الإمام
علي بن أبي طالب

الجزء الرابع

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

١

كان سلما إلى حين ، حتى تنجاب عنهم غاشية الذلة ويهدأ الروع . . آفة الشر فى نفوسهم مقيمة ، لها دبيب ووجيب . والقلوب التى استشعرت الأمن من بعد خوف تحركت بها مواجدها . فلا الحرب صهرتها فطهرتها ولا المغفرة أسرتها فغيرتها . إنما عاد لها شنآنها القديم سيرته الأولى ، يغلى ويفور ويثور . كان خفقها الضغينة ، وهل لقلب بغير نبض حياة ؟

ذات مرة أحكم وصف عواطف الناس نحوه فقال :

« لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفى هذا على أن يبغضنى ما أبغضنى ، ولو صببت الدنيا بجماتها على المنافق على أن يحبنى ما أحبنى . ذلك أنه قضى فانقضى على لسان النبى الأمى أنه قال : يا على لا يبغضك مؤمن ، ولا يحبك منافق . . . »

فصدقت قولته بصدق ما سبقها من نبوءة الرسول .

وها هو اليوم : يطعم من أحقادهم صابها وعلقمها وما انفك عن رقابهم كرمه . . . لعلهم فى ذات اللحظة التى أباحهم فيها الأمن والحياة والحرية كانوا فى دخيلة نفوسهم يدبرون ما يفسد عليه أمره ، ويزلزل سلطانه ، ويهد كيانه . . لعلهم يصطنعون مكراً جديداً يثيبه على إحسانه إليهم إساءة . . . لعلهم يختلونه ويختلون عنه قوما لم تستنر بصائرهم ليهضموه ثمرة حقه بعد أن وجبت دونها بالأمس رقاب وفريت أسباب . أفيعجب ؟ . . أم هى هكذا طبيعة الأهواء ؟ . .

كم منهم عطفهم إليه عطفه ؟ . . كم منهم استأسرهم عفوه — هذه الطعمة الباقية من وليمة الموت ؟ . . عندما كان قدرهم على طرف لسانه ورهين بنانه . اشتروا منه آجالهم بذلتهم . فيهم فئة خشيت الحتف فلاذت بفرار وبقية أعمار ! . .

وفيهم أخرى قهرها الخوف قبل السيف فأحنت الهام وخفضت الجباه ليجلى لها فى الحياة ! . . أولئك شهدوا بيعته على أرض الوقعة حين انجلى عن أديمها غبار الصراع وراحوا يرددون مع الناس : « علينا عهد الله وميثاقه بالوفاء ، لنكونن لسلمك سلما ، ولحربك حرباً ، ولنكفن عنك ألسنتنا وأيدينا . . . » — بل

قد فعلوا ، ومدوا إليه الأكف بالتسليم وإن عف هو عن تقبل هذه الأيدى التى انبسطت نحوه تظهر الخضوع وتكتم الخداع . ومع ذلك فقد كبح عنهم بطشه، ورد نقمته ، وكان صفحه صدى طبيعة كريمة ليس وسيلة إلى استخلاص طاعة أو كسب ولاء .

لكنهم لم يعرفوا له جميله الذى طوق أجيادهم وقلدهم . لم تنعطف قلوبهم إليه من بعد شرود . لا ، ولم يجنحوا — فى القليل — إلى مهادنته أو الصبر عليه ، كأنما العار فى الطاعة أو القرار ليس فى خلافهم هذا كل العار ! . . فاعجب إذن منهم ، كيف اشتبهت عليهم القيم ، والتوت بهم مسالك النظر حتى أصبح جزاء العمل عندهم كفاء عكسه لا كفاء جنسه ! . .

أبمثل هذا الجحود يلقون مثيله ؟ . . وبالإحن الشاقة يستقبلون منه هذه الطبيعة السمحاء ؟ . . غيره جدير منهم بسوآت الأنفس الناضحة ببغضائه المنكرة لآلائه ، التى لا تزال يقبضها شر ليبسطها شر ثم لا يكفها غلوها فى كراهته دون أن تجرع من كؤوس حسدها حتى تخلص إلى ثمالة الشرور ! . . لكنه كان يسمو بنفسه عن مقابلة الصغار بالصغار ، ويعلو بالطبيعة البشرية التى خالطت روحه ترفعاً عن الغرائز الدنية ، ويقهر الهوى لينصر الله . أو ليست الأهواء الجامحة محاريب إبليس ؟ . . .

الإمام كان أعرف بالسنة الهادية . كان صاحب رسالة راح ينشرها لتحصين الأخلاق . وكانت وسيلته الأولى لنشرها أن يكون هو أسوة ، وأن يضرب بفعله وقوله الأمثال للناس . وفى الصراع الذى انتشب بينه وبين عدوه وسالت خلاله الدماء كالجداول ، حرص دائماً على أن يكون مرآة مصقولة ، من شهد فيها استبان رشده وطالعته أقوم الخلال — فى الخلاف السلمى وفى الخلاف الحربى سواء بسواء . . . ولم يكن كرمه بهم وسيلة لعطفهم إليه ، بل كان عفوا للعفو وصفحا للصفح ودرسا ترشد به الأنفس التى تميل إلى الاستيعاب ولا تتغافل عن طريق الصواب . . . . أجل ، كان أبعد امرئ عن تسقط النصير من سبيل استذلاله بخوف أو استشاره بمكرمة . كذلك شهدناه وكذلك هو على الأيام ، وإنه ليبرح المدينة فى أعقاب أم المؤمنين وصاحبيها فلا يستبطن إلا من توثقت به النية

على غير خذلاته ، فمن عرفه مدخولا قلبه استغنى عنه . ومن كان نقى له سريرته ثم ثبطه عن مظاهرته حين الصراع شىء لم ينله بالقهر ليحتلبه المونة . . . وإنه ليترك قبلها ، يوم استخلافه بالمدينة ، أناساً وشأنهم رأوا أن يحبسوا عنه بيعتهم ما كان أيسر أن يركنوا — لو عنف بهم قليلا — إلى الخضوع . . . وإنه ليخلى إبان مسيره صوب البصرة بين قيس وطائفة أخرى من القبائل وبين اعتزاله فى الفتنة التى شبتها عائشة ، وأذكاها طلحة ، وأقحم فى سيرها ابن العوام وأمدها بالوقود مروان وطغمة أمية الموتورون . ولو قد شاء لأخـــذ بالشدة أولئك وهؤلاء . ولـكنه كان داعية حق يهدى إلى السبيل السوى ؛ فليس السيف إذن بأقطع وسائله ، إنما الحجة كانت وحدها سلاحه . ولئن وثب ، يوم الجمل ، بخيله ورجله على جحافل مناوئيه ، فلقد فعل بعد أن أعيته الحسنى ، ومضى يحارب فيهم الردة عن الحق ، وخلف الوعد ، ونقض العهد ، وصدع الأمة الإسلامية التى لم شتاتها — قبل غدرهم — جهاد الرسول . .

أما الآن — إذ خمدت الفتنة — فالحجة هى الحجة ، والإعذار هو الإعذار ما من سبيل له إلى قلوب من قعدوا عنه وأفهامهم إلا أن يبصرهم على أن يروا طريقه واضحاً سوياً لا تضل عنه البصائر ولا تزيغ الأبصار . ليس الختل سبيله . ولا الملق ، ولا شراء النفوس سلعة رخيصة مبخوسة بذهب الإغراء . . . هو نفسه لم تقو الدنيا بنشبها وزخرفها وسلطانها العريض الباذخ على ابتياعه ، فكيف إذن يتخذها أداة فتنة فى كفه يلوح بها أمام أعين الآخرين ؟..

بغير هذا يقوم الإمام فى الناس . وإنه ليدخل الـكوفة غب ظفره بأعدائه من جند الجمل فلا يفتنه عن مثله المستقيمة زهو الانتصار . إنما يغدو أشد تأبيا على سطوة النفس ، أدنى تواضعا إلى الله كحاله منذ عرفته دنياه . . . يقبل عليه أنصاره ، وقد هيأوا له دار الإمرة بحاضرة ملـكه الجديد ، يسألون :

« يا أمير المؤمنين ، أين تنزل — أتنزل القصر ؟ » .

فيتواضع تواضعا هو قمة الترفع وأعلاه عندما يجيب :

« قصر الخبال لا تنزلونيه ! . . . » .

ويأمر فينزل الرحبة لأنه أراد تجنيب نفسه منازل الأبهة والاختيال وإن كانت

عصية بطبعها على الغرور منيعة عن بنانه . فحسبه أن يقيم بنجوة عن دار كانت قبله مقام فرقة من الطغاة أصحاب الجور . . .

لقد كانت الدنيا بعزها تافهة ، بغيضة لديه ، يدفعها دفعك الحية الرقطاء و إن استهوتك من جلدها المرقش زخارفه . ولم يكن مجهولا عنه أنه طالما قضى الليالي مسهداً يناجيها وفي نبراته تنطلق سخريته كنطق نسكه وتأبيه : « هيهات! غرى غيرى . لا حاجة لى فيك ، فعيشك قصير ، وخطرك يسير ، وأملك حقير !..»
— كان أبدا يلقى بسماتها بغير احتفال ، وإقبالها عليه بالإدبار والزراية . ولم يكن فحسب يحصن نفسه دون اشتهائها والنزوع إلى مفاتنها ، بل ظل دائما يحصن — كما بدا — جمهرة الناس ، ويلقنهم ما وسعه بفعله وقوله كيف يكون كفاح النفس وجهاد شهواتها وإن جاء جهادهم هذا — فيما يحسب الغافلون — على حساب هيبته ، وهو صاحب الأمر فيهم، ومن حق له عليهم أن يستقبلوه بمظاهر التجلة والهيبة ، وعلائم الإعظام والتوقير . ولكنه وفى لمثله ، حريص على غرس أصولها عميقة فى القلوب ، ونشر فروعها عليه فى الضمائر حتى لتشهده يغضب أشد غضب وأبلغه لأن فريقا من دهاقين الأنبار قد ترجلوا له عن خيولهم ومشوا يشتدون بين يديه من إجلال . . . يقول لهم حينذاك وقد ساءه ما رآه :

« ما هذا الذى صنعتموه ؟ . . . »

فيجيبه القوم وهم فى عجب من أمره إذ يثيبهم الإنكار على ما حسبوه مجلبة رضائه وما هو دائما مبتغى سواه :

« خلق منا نعظم به أمراءنا ، يا أمير المؤمنين . . »

عندئذ يأسى لهم من بعد زراية ، فجهلهم بحزنه حقيق ، ويقول باسطا لهم آفاق الهداية :

« والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم ، وإنكم لتشقون به على أنفسكم فى دنياكم ، وتشقون به فى آخرتكم . وما أخسر المشقة وراءها العقاب ، وأربح الدعة معها الأمان من النار ! . . . »

ما هو إذن بصاحب دنيا فيشترى من الناس نفوسهم بعرض الحياة كما يفعل غريمه نزيل دمشق المنحدر من أصلاب التجار ! . . ولا طالب جاه من منصب

أو سلطان فيرائيهم لينصروه ، إنما جاهه خلقه ، وسلطانه حقه . وهو رجل دعوة مثلى ، بالحق تنادى وعلى الحق تقوم ، فليس يكرثه إلا أن تنحرف أساليبه إلى غير ما يؤمن به ويناضل عنه وحاشاه أن يحيد . . . أما الدنيا فليس لها عنده حساب . وليس يجب أن تكون ذات شأن فى تفكير رجاله وأخلادهم فيبادرهم بما يهون أمرها ويقمأ خطرها — يخاطبهم ، ويعظ الناس ، ومن فوق منبر الكوفة يوم دخلوها وفى ركابهم النصر . بعد أن ذهبت ريح جند البهيمة :

« . . . إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى ، وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة . . . ألا إن الدنيا قد ترحلت مدبرة ، والآخرة ترحلت مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة . . اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل ! . . . »

غير أنه ، وإن كان قليل الاحتفال بهذه الدنيا ، سادرا عن مفاتنها، لا يزدهيه فيها نصر ولا يبطره جاه ، إلا أنه لم يكن الذى ينام على الهضم فيدع حقه نهبا مضيعاً بين نوازع الهوى الضالة . لقد كان أدنى إلى صفحه وصبره على ضيمهم لو قد جاروا على حقوقه خاصة ، ولكنه فى حق الله ليس بالصافح الصابر . وما نكث الناكثون بيعته فحسب ، حين نكثوا ، وإنما اجترأوا على حق الأمة ، وفرقوا الكلمة بعد اجتماع ، وثلموا فى دين الله ثلمة غدت عزيزة على الالتئام . وإذا كان قد ألقمهم بظلمهم السيف ، ومشى على هامهم بالمنايا الحاصدة ، فأولئك الذين آمنوا بالقضية التى قام ينصرها ثم تقاعدوا عن تعزيزه لهم جزاء المتخلف الذى أوشك الونى أن يسلكه مسلك المتحيف . . .

لذلك لا يبرح له المنبر حتى يهتف بأهل حاضرته الجديدة :

« . . إنه قد قعد عن نصرتى منكم رجال،وأنا عليهم عاتب زار ، فاهجروهم وأسمعوهم ما يكرهون حتى يعتبوا ، ليعرف بذلك حزب الله عند الفرقة . . »

إنما أراد أن ينصف فلا يأخذهم بتقاعسهم عنه قبل أن يعذر إليهم، حتى يتبين أعن غير عداوة كان ذلك القعود أم رضوا أن يكونوا مع الخوالف حقت عليهم قولة الله فى المنافقين بالمدينة إبان عهد الرسول : « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ، وقيل اقعدوا مع القاعدين » .

لـكن الحية تملك نفس مالك بن حبيب اليربوعى ، فلا يكاد يسمع من الإمام هديه حتى يغضبه هذا الرفق بالخوالف ، فيقول :

« والله إنى لأرى الهجر وإسماع المكروه لهم قليلا . والله لئن أمرتنا لنقتلنهم ! . . . »

فلا يرضى الإمام منه بأن يخرجه غضبه عن طوره ، وعن السبيل المأمون ، فيرده عن غلوائه :

« سبحان الله يا مال ! . . جزت المدى ، وعدوت الحد ، وأغرقت فى النزع ! . . »

« يا أمير المؤمنين . لبعض الغشم أبلغ فى أمور تنوبك من مهادنة الأعادى . . »

« ليس هكذا قضى الله يا مال . قتل النفس بالنفس ، فما بال الغشم ! » .

ثم لا تـكاد الجموع أن تقبل عليه خافضة جناحها لسلطانه ، خاضعة له ، حتى يلتفت منهم إلى السادة الذين اعتزلوه يجبههم بعذله فى صراحة مكشوفة :

« ما بطأ بكم عنى وأنتم أشرف قومكم ؟ . والله لئن كان من ضعف النية وتقصير البصيرة إنكم لبور ! . . والله لئن كان من شك فى فضلى ومظاهرة على إنكم لعدو ؟ . . »

ويردف العتاب بقول الله :

« . . وإن منكم لمن ليبطئن ، فإن أصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيداً ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن ، كأن لم تكن بينكم وبينه مودة : يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما » .

بهذا الأسلوب الواضح المستقيم كان يلقاهم، غير باغ ولا عاد، وهو مستمسك بحقه عليهم، ملتزم حدود الشريعة العادلة السمحاء أدق التزام . وكانت صراحته، على عنفها ، أفعل فى النفوس من ختل معاوية غريمه ، أقدر على استعبادها من الدهان والمراءاة . ولعل فى نبأ سليمان بن صرد ، وزياد بن أبيه ، وسيرتهما المأثورة فى الوفاء له طوال النوازل التى ألمت بعهده ، ما قد يؤيد لدينا منهاجه الواضح السليم . . .

يدخل عليه سليمان ، غب رجعته من البصرة ، مسلما ، فيلومه الإمام :

« ارتبت وتربصت وراوغت ! . . وقد كنت من أوثق الناس فى نفسى ، وأسرعهم ، فيما أظن ، إلى نصرتى ، فما قعد بك عن أهل بيت نبيك ؟ ومازهدك فى نصرهم ؟ »

فيعتذر له الصحابى الجليل ، ويجيبه فى استحياء يخالطه رجاء :

« يا أمير المؤمنين . لا تردن الأمور على أعقابها ، ولا تؤنبنى بما مضى منها ، واستبق مودتى تخلص لك نصيحتي . . وقد بقيت أمور تعرف فيها وليك من عدوك . . . » .

ثم يؤوده ما بدا من على من الإغضاء ، فيسرع إلى الحسن سبط الرسول يستجير به على غضبة أبيه :

« ألا أعجبك من أمير المؤمنين وما لقيت منه من التبكيت والتوبيخ ؟ . . »

فيلقاه الحسن بالمأثور من رفقه وسجاحة طباعه :

« إنما يعاتب من ترجى مودته ونصيحته » .

« إنه بقيت أمور سيستوسق فيها القنا ، وينتضى فيها السيوف ، ويحتاج فيها إلى أشباهى ، فلا تستغشوا عتبى ، ولا تتهموا نصيحتي . . »

عندئذ يربت الحسن كتف الرجل النادم الأسيف ، مهدئا روعه :

« رحمك الله ، ما أنت عندنا بالظنين » .

وكان سليمان حقا أبعد عن متناول الشبهات ، فبقى أبدا مخلصا للإمام طوال أيام عهده ، وفيا لذكراه من بعده إذ احتوته روضته ، حتي لقى مصرعه فى الطلب بدم الحسين الشهيد .

وكذلك وفى لعلى زياد . أو هو فى القليل ظل له الولى المؤتمر بأمره، المزدجر بنواهيه إبان سنى خلافته وصدرا من ملك معاوية — ولئن التزم فى البدء الحيدة، واحتجب فى البصرة أثناء الصراع الذى لون ثراها ، وحق عليه بهذا الاعتزال لحى الإمام ، فلقد لاذ عقيب الجمل بأبى السبطين حليل الزهراء ، وأخذ ينضح عنه وعن غايته فى ولاء وغيرة حتى أراد الله لعهده القصير أن يزول ، بل هو قد

ظفر من ثقة على فى ذات اليوم الذى استحق فيه تأنيبه بما أوشك أن يذيله إمرة البصرة ، لولا أن اعتذر وقال :

« . . بل رجل من أهل بيتك ، يا أمير المؤمنين ، يسكن إليه الناس فإنه أجدر أن يطمئنوا ، وسأكفيكه ، وأشير عليه . . . »

وقد فعل . فكان المشير المخلص الناصح لواليها دونه عبد الله ابن عباس . وكانت له فى سياسة الأمر فيها حكمة أدلى بها للأمير حقيقة بأن يصلح بها شأنها فى مثل ذلك الوقت الذى أطلع الفتنة :

« اضرب بمن أطاعك من عصاك ومن ترك أمرك ، فإن كان أعز للإسلام وأصلح له أن يضرب عنقه فاضرب عنقه . . . »

ثم كان من بعد يدا لعلى قوية القبضة ، أمسكت نواحى من دولته أن تنهار. لم يغره عن الوفاء له نسب يلحقه بأبى سفيان ويلصقه أخا بصاحب الشام غريم الإمام ، ولعل أبلغ ماقد يشير إلى المحاولات التى ظل معاوية يبذلها لقتل ابن أبيه، والميل به عن الولاء الذى استنه لنفسه وارتضاه ، ذلك الكتاب الذى بعث به أمير المؤمنين ، بعد حين ، إلى زياد ، يبصره بخديعة أخيه :

« . . وقد عرفت أن معاوية كتب إليك يستزل لبك ، ويستفل غربك ، فاحذره ، فإنما هو شيطان يأتى المؤمن من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، ليقتحم غفلته ، ويستلب غرته . . . وقد كان من أبى سفيان فى زمن عمر فلتة من حديث النفس . ونزغة من نزغات الشيطان . لا يثبت بها نسب . ولا يستحق بها إرث . والمتعلق بها كالواغل المدفع . والنوط المذبذب » .

لكن معاوية لم تقعد به وسائله عن الكيد للرجل الواضح المحجة . السوى السبيل . فإن له إلى النفوس مسارب ملتوية كأنها مسارب الأراقم والثعالب الرواغة ! . . ولئن أعجزه أن يلقى غريمه بالحجة فليس يعجزه أن يلقاه بالخداع. ولئن بات كالخفاش يعشيه النور فمجاله إذن ظلمة الدسيسة . ولئن عز عليه أن يستلحق زيادا وإن لوح له بالنسب الأصيل بعد الصلب المجهول . فهين أن

يستلحق غيره ويلفهم حول عروض دنياه كالتفاف الضباع بالجيفة ! . . يسير هذا عليه ما بقيت النفوس كلفة بالآراب والمطامع ، وما أكثر من استجابوا سراعا لنزغة واستعبدتهم شهوة الحقد ، أو سطوة المنصب ، أو فتنة الثراء .

حتى أولئك الذين اصطلوا بمحنة الجمل وودوا لو جنبوا نفوسهم محنة غيرها تالية ، لم يعدموه محركا لنفوسهم على الإمام . . . نجا ابن عامر من البصرة بثوبه وما يكاد فطوى فى حشاه همه وقبع ببقعة بعيدة عن النضال يجتر فيها طموحه الذى التمع آونة من عمر الغابر فى أفقه التماع السراب ، فلما قنع من كفاحه الفاشل بالأوبة ، وغنم البقيا ، وحسب الهدوء والأمن فى حيثما أقام ، جاءه من معاوية كتاب يثيره ، ويوقظ فى فؤاده أطماعه الجريحة ، ويحرك فى نفسه جذوة الحقد التى أوشك أن يدفنها رماد الاندحار .

إذ ذاك كتب الرجل — الذى ما زالت فى دخيلته بقية تحضه على أن يلوذ بالسلامة — يرد على كتاب الشيطان :

« . . إنى أقحمت طلحة والزبير إلى البصرة وأنا أقول : إذا رأى الناس أم المؤمنين مالوا إليها ، وإن فر الناس لم يفر الزبير ، وإن غدر الناس لم يغدر مروان . فغلبت عائشة ، ورجع الزبير ، وقال مروان طلحة ، وذهب مالى بما فيه . . . وإن اليوم كأمس ، والناس أشباه ! . . »

فلم يوئس الجواب ذلك المفتون بالسلطان . الساعى إليه من كل سبيل وإن كان تمزيق الأمة وتفريق وحدتها ، بل عاود نزغه هذه المرة أبلغ وأشد فكتب يقول :

« . . أما بعد ، فإنك قلدت أمر دينك قتلة عثمان ، وأنفقت مالك لابن الزبير ، وآثرت العراق على الشام فأخرجك الله صفر اليدين ، ليس لك حظ الحق ولا ثأر القتيل . . »

ومضى يدور بابن عامر ، يعالج جماحه ، ويهيج فيه ما خمد من نخوة الثأر ويوقع فى فؤاده الحسرة على ما أنفق فى فتنة الجمل من أموال ، حتى يلين لوسوسته . . . فإذا رآه ترك نجوته ، وشد نحوه الرحال ، وابتسم لنفسه راضيا عن أحابيله . . . أليس به قد استزاد أصبعا جديدة فى مجموعة الأكف التى أعدها كى تجتذب له الشواء الشهى من بين النار ؟ . .

٣

غدت المدينة بلدة الذكرى ! . . لم تعد موطن الحكم ، ولا مستقر الحياة السياسية التي أخذت تصبغ الدولة من طرفيها بأصباغ فيها اختلطت حمرة الدماء ! . . إنما باتت وأصبحت فإذا خطرها قد ذهب ، وضمه الماضي ، وبقيت لها منه الصورة الباهتة التي تتحدث سماتها البوادي بدورها القديم في تاريخ الإسلام .

سبعة أشهر من التنافر والاضطراب قضت تماما على مكانة البلدة الطيبة ، وخرجت بها عن معترك الأحداث التي مضت تنحرف بمصير الأمة إلى خلاف ما رسمت لها رسالة الرسول . وإلى غير ما أملت نفوس قوم رفعوا في السنين الخوالي ألوية الكفاح والجهاد . وكان الدين الناشئ القويم يأسى ، والقلوب الخالصة لله تقطر بالحزن خشية من مستقبل غامض يهم أن يقودهم إلى التناحر . غير أنه قدر جرى على بلاد السلام لم يكن له من مغير ، ومصير مقضى به قبل أن تتجمع في الأفق مقدماته وأسبابه ، الله بالغ به أمره . ومنذ اللحظة التي أمسك فيها عبد الله بن سلام بعنان دابة الإمام يود أن يرده عن الخروج من حاضرة محمد ، كان ذلك المصير قد استوى قائما على قدميه ، وراح يدب على صفحات التاريخ دبيب الدابة على صفحة الرمال . فما انثنى على ، بعد مسيره في أعقاب جند عائشة ، إلى مدينة الرسول . ولا عادت البلدة ثانية إلى ما كان لها من المجد ومن القوامة السياسية على أمصار الإسلام . ولكنها تخلفت عن مكان الصدارة ، ونزلت مقهورة عن دورها السالف إلى سواها ثم قبعت كسيرة في قتامة الظلام ! . .

وكانت الكوفة هي الوارثة . برزت إلى ضياء الحوادث ذات يوم من الشتاء ندى الريح . وتسلمت صوالج الحكم من الحاضرة الأولى ، التي احتضنت النبوة ، وآوت شرودها ، وأمنتها من خوف ، ثم شهدت من بعد انبعاث المستضعفين من كتائب الله ، وانتشارهم في الآفاق على الحواضر والبيد ، ذوى أيد شديد وفي أكفهم مشاعل النور . . . الكوفة أخذت عن أمها الهادية الراية . وقامت على الأثر

بجهد لتترسم خطاها فى سبيل نصرة الدين . ولقد أبى عليها الطالع أن ينفسح أمامها الزمان ويمتد به سلطانها جيلا تستطيع خلاله أن تمكن فى القلوب لبذرة الهداية . . . لكنها ، على أى حال ، قد وسمها فى فترة سيادتها القصيرة ، كليلة الصيف ، أن تفرق الهدى من الضلال . وما أجله من سفر سطرته فى الحق أصابع الإمام حينما أقام فيها سلطانه . وما كان أنضر عهده من أيام لو أدخلنا فى حساب حكمنا المبادئ القويمة التى اختطها بتلك المدينة لتكون شريعة ، بها تستطب القلوب وتستنير الأفهام .

غير أن الهوى خوان ، فشقيت بدائها الضمائر ! . . أم تستقيم الحياة على محجة سوية وإن للبشر لأنفساً تحيد وتميل ، وأعيناً تمشو عن السبيل ؟ ... بل الناس استدنوا طريق الدنيا فأقبلوا عليها ، واستطالوا طريق الآخرة فأدبروا عنها ، وبئس لهم ما فضلوا من مقام ! ... كانت للشيطان فى قلوبهم حصون وقلاع ، وبينهم موال وأتباع ... وكانت تلك الزمر من حشوده وجنوده لا تربض فحسب بالشمال ، إنما فى حيثما اختلبت اللب غاية ذاتية فطغت بصاحبها على قانون الأخلاق . لكن الشام — فيما أحسب — كانت حينذاك أرضاً وبيئة يموت فيها الإيثار ! ... أما الأثرة فلها هناك طلع منضود وظل ممدود . فلقد دعا معاوية فيها بدعوته التي حركت فى النفوس شرها بإثارة شراهتها ، وفتحت أمام العيون آفاقا وسيمة من الدنيا كلها متاع .

فى هذه الفترة العصيبة من حياة الأمة العربية وقفت الكوفة تنضح جهد الطاقة عن تراث النبى ، الذى انتهى إلى ابن عمه ، فلا تدانع — إذ تنضح — عن سلطة الإمام قدر دفاعها عن مبادئ الاسلام . كفاحها فى حقيقته لم يكن يستهدف بسط سطوة زمنية بذاتها ، ولا فرض حاكم بعينه على البلاد والعباد ، بل قد كان كفاحا خالصا لتقويم الطباع وكبح جماح الأطماع . وفى خلال الأعوام القليلة التى تسنمت فيها منصة الحكم سارت دائما على سننها لا تحيد ...

كانت نصيرة الفطرة السليمة والخلائق المستقيمة ، فمضت قدما تحمل البشر على حق الله . وكان الصراع العنيف الناشب بين دمشق وبينها ، حقيق بأن جلى تبيء للعارفين المدول ، صراعا بين عماية الظلمة وصفاء النور ... كانت

قصبة الشام ، ومن ورائها أميرها العاتى ، تحالف المادة وكانت الكوفة تناصر الروح . ولمن شاء أن يستقصى ما شاء فيستوثق كيف كانت سياسة الإمام البادية للعيون ، تلتزم الصراط ، وتستهدى فى الكفاح المرير بالمثالية ، بينا غريمه كان يغوى ويدس ويبيت ، حتى أقام له سطوة على أكتاف مردة الظلام ! ...

بنفس الأسلوب الذى بنى به محمد دولته الناشئة بالمدينة مضى ابن عمه يبنى فى الكوفة . فلا مخاتلة ولا إغراء . ولا هوادة فى حق أو مساومة فى باطل ... لا انحراف قط عن الخطة المثلى التى اختطها الله فى كتابه سبيلا للناس يسمو بالبشرية عن وهدة الضلالة والجهالة العمياء . فمن اليوم الذى انتهى فيه إليه أمر أمته كان الإمام فى قرارته يشعر بأن عليه عبء تقويم الجماعة الإسلامية على النسق الذى أرادها عليه الرسول . ولو قد خلى له ليختار لآثر النأى عن تقلد الخلافة زهادة ، لكنه رأى قومه بباب فتنة ، وقد ثابوا إليه ، وأجمعوا إجماعهم ذاك على تنصيبه فكان أليق به أن يبادر بغوثه عسى أن يردهم عن اقتحام المزالق . ولو تركت له الخيرة بعد استخلافه لظل جارا لمثوى محمد وليه وهاديه . غير أنها أحداث جرت بغير ما يهوى قلبه فأخرجته عن مقامه الحبيب ، ومضت به ، تخط وإياه تاريخاً جديداً لقصبة جديدة هو فى حياة البلاد أقباس نور ...

أما وقد تبعنا الإمام عبر الصحراء ، من الحاضرة الإسلامية الأولى صعدا إلى مستقره بالرحبة ، بعد انقضاء فتنة الجمل وتوقف النزاع للسلاح إلى حين ، فجدير بنا تبين الدوافع التى جعلت الكوفة أثيرة لديه حتى اجتباها مركزاً لدولته دون غيرها من المدائن ... ألأنها موئل عزيز لأوليائه ؟ ... أم لتوسط موقعها فى رقعة بقاع الإسلام ؟ أم هى أدنى بلدة فى الأمصار من دمشق فلا تخفى ليه فيها خافية مما يبيت له معاوية بالشام ؟ ...

حين نكر بالزمن خطوة إلى الوراء ، بضعة أعوام ، نرى ثمة عاملا يتبدى فى ضباب الحوادث المضطربة حينذاك ثم يسبح مناضلا حتى يبلغ بنفسه أكداس السخط المتجمعة كالهشيم فيشعل فيها النار ! ... إن عزة الكوفة بأنصار على ، وتوسط منزلها ، ودنوها من موطن دسيسة الأموى الأول ، كانت لا ريب دوافع ليست منكورة الخطر ، ذات أثر فى اجتبائها حاضرة ، ولكنها لا تحيط بكل

الأسباب . إنما نجد ذلك العامل الذى أجج الفتنة على عثمان فى ذيل عهده كان هو صاحب اليد الطولى فى الخيرة ، وبريشته وحدها تلون مصير المدينة ، وتلون مصير البلدة التى قامت اليوم تتزعم بلاد الإسلام ، وتلون من بعد كذلك مصير هذه الأمة الناشئة مدى أجيال وحقب طويلة .

فى الكوفة حينذاك بزغ فجر القوميات . . . بأرضها انغرست بذرتها ، ثم نمت ، ثم اشتد عودها واستطال حتى استقضت الخليفة الشيخ أجله . ولم تكن فى حقيقتها فتنة أريد من ورائها تبديل حاكم بحاكم ، إنما قد كانت ثورة على وضع من الأوضاع أمعن فى تأييده أمير المؤمنين عثمان وغدا جماع سياسته فى الأمصار فأبت البلدة أن تخفض له الجناح . . . ومن الإنصاف الذى تجأر حوادث تلك الفترة بمقوماته ، أن نقرر خطل تلك السياسة إذ هى لا تنهض على عمد وطيدة من الدين . كلا ! بل كانت كذلك لا تتفق ولب الرسالة المحمدية التى نادت نداءها لتسلك البشرية كلها فى وحدة عامة ، المنطوون فيها سواء .

هذه المساواة التى انبنى عليها صرح الإسلام واجتذبت إليه الشعوب على اختلاف العناصر واللغات والألوان ، لم تجد فى عثمان من يعلى لها ، ويمكن لسطوتها على النفوس . إنما شهدته ينحرف إلى مثل العصبية الجاهلية الأولى فيؤثر من الأمة فريقاً دون البقية ، هاديه فى إيثاره : قوميته الخاصة ، ثم قبلها أو بعدها قرابة الأقربين . ولقد نتلمس له العذر حين نحسبه أرادها دولة عربية خالصه أقدر على نشر الإسلام ، فى دور تأسيسه ، أشد غيرة عليه من بقية الشعوب . ولكننا إذ نتتبع سياسته لا نلبث أن نراها سياسة قبلية تجتبى قريشاً ثم تختص منها الفرع الأموى الذى ينتهى إليه نسبه فتؤثر رجاله ، دون غيرهم من العرب ، بالنفوذ والسيادة . ولو قد أحسن الشيخ انتقاء عماله من بين ذويه ، لكان هذا أدنى إلى تجنيبه مصيره . لكنهم كانوا فتية غير ذوى مرس وخبرة فأساءوا السيرة فى الأطراف التى تولوها وهم يرون فى إمارتهم ميراثاً خاصا يديرونه كيف يشاءون . ولسنا هنا بسبيل حصر ما أتوه من أخطاء فنعدد لهم ما ارتكبوه ، لا ولا يعنينا أن نعرض لهم عرضاً يظهر شخصياتهم التهافتة المريضة ، ولكننا نجتزىء من أمراضهم النفسية بذلك الصلف الذى حركته فيهم

دماؤهم العريقة وأحسابهم الرفيعة فمضوا به يستعلون على رعاياهم ، ويرمقونهم بعين السيد رمق عبده الرقيق .

غير أن الذين أشربت قلوبهم مبادئ الإسلام وعرفوا أن نواتها المساواة بين أبناء بلاده كافة ، أبوا أن يطأطئوا الجباه لصلف الولاة . فلئن كانت قريش في القديم أعرق العرب وأعلاها شرفا فلقد غدت وإياهم بمنزلة سواء أمام الشريعة . ولئن حسبت العرب لأنفسها قدمة على غيرها في الدين فهي بانتشاره باتت شعبا من بين شعوبه ، نأت أو دنت منازل هذه الشعوب من تخوم الجزيرة . أولئك وهؤلاء أضحوا طائفة من الشعب الإسلامي الكبير الذي لم تعد تفصل بين عناصره العديدة فوارق جنسية أو حدود إقليمية — عضواً في كيانه ، ولبنة في بنيانه ، لا يتفردون ولا تتفرد زعيمة حسبهم قريش بفريضة في الدين أو مزية مما كتب ربهم على المجموع . . . .

الإسلام بث إذن روح المساواة في نفوس أبنائه مؤلفاً بها بين العرب والأعاجم وإن اختلف اللون من اللون وتباين العنصر عن العنصر . غير أن السياسة العثمانية — فيما يبدو — لم ترقها المساواة فسايرت هواها ، ومضت شوطها وهي تحمل فريقا من أبناء الأمة على فريق وتختصهم جهاراً وخفية بأكرم الأنصبة والمقادير . وكانت قريش عامة ذات الحظوة الأولى عند التقديم ، وآثرها به وأسبقها إليه أهل بيت الخليفة حين توزع المناصب أو تقطع الإقطاعيات وتوهب الهبات ، يحتزئون بالنفوذ والمال . . . فلم يكن عجباً — وهذه هي الحال — أن تنشأ في البلاد طبقة جديدة تحصن أفرادها بالثروة والحسب والسطوة فغدوا ذوي قوة عاتية في تسيير أقدار الدولة وصبغ مصيرها بالصبغة التي يشتهون .

فلعل امرأ يذكر هاهنا طبقة نظيرة لهذه سبقتها إلى الحياة ، وبرزت بالمجتمع الإسلامي في عنفوان دولة ابن الخطاب . تلك كانت لا ريب تصلها بلاحقتها سمة واحدة من التشابه ثم تفصلها عنها سمات من الخلاف . في عهد عمر سار الرجل على سنة في الأفياء خالف بها المأثور عن رسول الله وعن خليفته إذ أجراها على غير سوية وقسمها بين الناس أنصبة مختلفة المقادير . وكان من أثر هذه التفرقة أن ظهرت على الزمن — طبقة باذخة الثراء في المسلمين تكتنز المال ،

أدى وجودها إلى تذمر البقية الفقيرة . لكن الحزم العمرى عرف كيف يكبح أولئك السراة — وكلهم من الصفوة والسباقين إلى الإسلام — عن استرقاق الأنفس بجاه المال ، فحبسهم بالمدينة إلى جواره ، لا ينتشرون فى الأمصار ، ولا يحركون شيئاً فى سياسة الدولة التى امتلك أعنتها فى قبضة كفه القوية . . . أما عثمان فلم يكن له حزم سلفه ، ولم يرع فى منح المال ما كان ذلك يرعاه . ثم راح أيضا يوزع إمارة الولايات على ذويه ، ومقياس بذله المال واستعماله العمال هو القربى ، دون الحاجة ودون القدرة على الاضطلاع بالأمور . . .

هكذا نشأت فى الدولة طبقة ثرية حسبية فى أيديها السلطان . فلم يكن مما يخالف الطبيعة البشرية أن ينظر أفرادها إلى عامة الأمة من علياء برجهم الاجتماعى نظرة الصلف والتكبر ، فهم أصحاب الثروات ، ذوو الأحساب ، مالكو الرقاب ! . . ولم يكن أيضا مما يخالف الطبيعة البشرية أن يتبرم الناس باستعلائهم ، سواء فى التبرم من غضب لله إذ أهدروا المساواة ، ومن غضب لنفسه عن حسد لهم وغيرة مما انفردوا به من ألوان الجاه . وكانت الشعوب المغلوبة أسبق غيرها إلى استشعار الضيق بصلف هذه الطبقة ، المتمثلة حيالها فى أمراء عثمان ، لأنها أبت لماضيها التالد ذى الأمجاد ، أن يطأه كبر عصبة من الحكام تنتهى — فى حساب الحضارة — لشعب كان حتى أمسه القريب بغير تاريخ ! . .

« الأرستقراطية القرشية » هى التى كانت وحدها المقصودة بالتدمير حين الثورة على عثمان . فى الأمصار اضطرم عليها السخط والتذمر بنفوس الموالى والأعراب سواء بسواء . ومن الكوفة طارت شرارة اللهيب . وبالمدينة تهاوى الحطام . . . ولعلنا هنا فى غير حاجة إلى معاودة تبيان غضبة الأشتر وصعصعة ابن صوحان وأصحابهما على سعيد بن العاص ، ليلة ملكه غروره ، وأخذته العزة بحسبه ، فادعى سواد العراق قنية خالصة لقريش من دون سكانه الأصليين ، وفاتحيه ، والنازحين إليه من قبائل العرب غب دخوله فى الإسلام . كذلك لا نرانا بحاجة إلى تكرار عرض الحوادث التى أدت لاستشراء الثورة فى بقية أرجاء الدولة وانتهت بهدم سلطان عثمان . إنما يكفى الإقرار لهذه الحركة بالنجاح وبلوغها مارنت إليه . فلقد وسعها اقتلاع الطبقة الحسبية الحاكمة ، وقشرها

من نفوذها ، وابتزازها ما كان أضفى عليها جورا من الهبات والإقطاعيات ثم رده إلى بيت المال حقاً لعامة المسلمين . . .

بالانتصار لحق العامة بدأ عهد الإمام . . . كان على وليهم ، تتجاوب فى فؤاده أصداء مشاعرهم . وكان هو الرجل الذى اختاروه — حتف رغبته — ليصلح فى الأمة ما أفسد سلفه ، ويعيد الأمور فيها على النسق الذى رسم الله ووضع أساسه الرسول . فليس إذن يستغرب أن ترى الطبقة المستعلية صوالحها فى غير سبيله ، فتتحد على حربه عساها تستعيد نفوذها الذى غلبتها عليه عامة الأمة . أو تتجيش حشوداً وجنوداً تظاهر أيما رجل وقف منه بموقف مناجزة . وليس أيضاً بعجب أن تصطف خلفها قريش تنضح معها عن عزتها القبلية ومزاياها الاجتماعية التى أهدرتها سياسة الإمام الهادفة إلى تحقيق المساواة التامة بين المدلين بالأحساب وبين سواهم من بقية العناصر فى شعوب الإسلام .

وكانت المدينة — وهى حينذاك موطن السادة — حرية بأن تخلص ثانية لأهلها حرة ، حين تنحسر عنها أمواج الوفود القادمة عليها من الأمصار إبان فتنة عثمان ، وأفواج العبيد والأعراب الذين ظاهروهم على تدمير سلطانه . فلم تكن إذن ، وهذه حالها ، بالتى تصلح عنوانا معبرا عن المادة التى يحتويها سفر العهد الجديد بين غلافيه ! . . . ولئن كنا شهدنا أشرافها يبادرون إلى الإدلاء بالبيعة إلى الإمام ، فلقد شهدنا منهم ، حين قرت الأمور وارتحل عنها الثوار ، فريقا سارع إلى نقض البيعة ونكث الأيمان ثم لم يكفه إلا أن يجلب على أمير المؤمنين بالخيل والرجال : . . وشهدنا كذلك فرقة تذابت فترة بين الإباء وبين الإقرار عسى أن تسفر لها غيوم الأحداث عن الجانب الذى تستطيع أن تنحاز إليه وهى فى أمان من الوبال ! . . . أولئك وهؤلاء قد شهدنا ، ثم من بعدهم غيرهم : بقايا الأرستقراطية القرشية ، يتسربون تباعا من مكامنهم ، تسترا وخفية ، فيرحون دورهم بالمدينة وسواها من بلدان الجزيرة ، ليلحقوا بمعاوية غريم على وحليفهم الطبيعى . لعلهم بمظاهرته يستعيدون مكانتهم التى لا رجعة لها إلا فى التفاوت بين الطبقات . . .

الكوفة إذن هى العنوان ! . . فى اتخاذها حاضرة جديدة للعهد القائم

الجديد بشير لأهلها خاصة ، ثم بعدهم للساخطين من أعاجم وأعراب ، الذين انبسطت لهم رقاع البلاد المقتطعة من ملك فارس والروم . . . أم لا والإمام لم تقم له دولة إلا على كواهلهم ، ولم يعز عندهم مكانه إلا لأنه أقدر الناس على الرجوع بسياسة الحكم إلى ذات الأسس السليمة التى وضعها الدين وبنى عليها الرسول ؟ . . الآن ، وهو قائم على أمته ، كفيل بإنفاذ شريعة العدالة التى أمامها يستوى الكافة ، فلا تمييز بين فرد وفرد ، أو عنصر وعنصر . لا حياة فى المجتمع الإسلامى لهذا التفاوت بين الطبقات الذى ابتدعته الأحساب والثروات والمنازل وأضرابها من مزايا مادية . إنما ينبغى أن يقاس التفاوت بينها بمقياس روحى : هو حرصها على التشبث بالدين ، وسبقها إلى التزام تعاليمه . . أجل . فى سيادة الكوفة بشير . وفيه أيضاً نذير رائع الصوت ، حرى به أن يقرع أسماع الأشراف والسادة ويدوى فى آذانهم دويه ، معلنا لهم فى كل لحظـة وحين أن الله قدير أن يذهب ريحهم ، ويورث غيرهم عزتهم مابقوا هكذا سادرين فى انحرافهم مع الأهواء عن سبيل هديه القويم . . .

هذه بعض مشاعر الكثرة من المسلمين حين تسنم على الحكم فى دولتهم ، وحين طفت الكوفة على صفحتها ورسبت بلدة الرسول فى القاع ! . . وهى تحت التأمل حرية بأن تصبح قوة معنوية لدولة الإمام ، إلى جوار القوة المادية ، التى آزرته وسندت سلطانه الشعبى ، المتمثلة فى أهل الكوفة الغير على حقوقهم ، وفى أبناء الشعوب الأخرى المستلحقة بالدولة حينذاك من أعاجم وأعراب . فلقد كان على يكون وحده الرجل الذى فهم هذه المشاعر وهى بعد تصطخب فى نفوس أصحابها قبل الانفجار ، فكان يرى دائما أن تتخذ سبيلها إلى الحياة لأنها جديرة ، فى نطاق ما رسم الله ، بأن تتنفس وتعيش . لكن غيره أغمضوا العيون . . . وها هو السخط انبعث كطوفان ! . . وها هو الدوى أقض مضاجع السادة النيام ! . . وها هى سنة الله تحق عليهم كما حقت قبلهم على من سلف من بنى العصور الغوابر الذين جانبوا العدل وآثروا الجور . . أفقد حسبت قريش أن ربها مستحدث لها وحدها سنة تغاير ناموسه الأزلى الذى لا يقبل التحول ؟ . .

إنما غرها الكبر وخدعتها الخيلاء فتعلقت من دنياها بمثل السراب ! .

أما أمير المؤمنين فأعرف بما تبطن وبما تظهر الحياة ، لا يستهويه منها طلاء ولا يفتنه زخرف . . . إن عبرة الماضى تعيش دائما فى ذهنه ، وحكمة الأعصر تتدفق عن لسانه تدفقها فى منطق الحوادث المتواترة على البشرية طوال الأزمان . . . يجيئه بالكوفة أهالى السواد فيخلو منهم إلى « نرسا » يستفسره بعض أنباء قومه :

« أخبرنى عن ملوك فارس ، كم كانوا ؟ . . »

فيجيبه الفارسى :

« كانت ملوكهم فى هذه المملكة الآخرة اثنين وثلاثين ملكا » .

« فكيف كانت سيرتهم ؟ . . »

« ما زالت سيرتهم فى عظم أمرهم واحدة ، حتى ملكنا كسرى بن هرمز فاستأثر بالمال والأعمال ، وخالف أولينا ، وأخرب الذى للناس ، وعمر الذى له ، واستخف بالناس ، فأوغر نفوس فارس حتى ثاروا عليه فقتلوه . . »

وعند ذاك يقول الإمام :

« يا نرسا . إن الله عز وجل خلق الخلق بالحق ، ولا يرضى من أحد إلا بالحق . وفى سلطان الله تذكرة مما خول الله . . »

وكذلك هذه تذكرة لمن يعى ، تتحدث بها الشواهد التاريخية ، وينطق التنزيل . ثم لا يزال العالم يسير على السنن الواضح ما لزم حكامه الخطة المثلى التى رسم الله عماد العدل لسياسة الرعية .

لكن النفوس قلب ، والقلوب غير . ما يدعها الهوى فى مستقرها إلا كطرفة العين ثم يميل بها مرة إلى يمين وأخرى إلى شمال . ولا تكاد الضمائر تثبت أمام إغرائه حتى تأخذها أمواجه وتتقاذفها أواذيه . وهانحن أولاء قد شهدنا الإمام ، من أول يوم سلطانه ، تضطرب حوله الأهواء كأنواء ، فتدفع بسفينه بعيداً عن البلدة التى رحبت بهجرة الرسول ، فى البدء ليقهر شراذم الجمل الخارجة عليه ، الناكثة لعهد الله ويردها إلى الطاعة ، ومن بعد ليقمع شهوات صاحب الشام ويلزمه الفىء إلى كلمة الجماعة . . . ها نحن نتبعه على أودية الرمل ، وفى مغاور البادية الفسيحة كالتيه ، وهو يسل سيفه آونة بالنقمة ، ويحرك لسانه مراراً بالحكمة ، ليأخذ النفوس الشاردة بتلك السنة الإلهية التى تنظم العلاقة بين الحاكم

وبين المحكوم ، وتضمن للبشرية — شعوباً وأفراداً — عدالة مثلى لا ينتهب فيها الحق ولا تستباح الكرامة . . إنه ليمضى . . قدما يسير غير آبه — فى الله مسيرة ، وإليه مصيره — يدوس الصعاب ويطأ الأوصاب . . إنه ليدع وراءه أسوار بلدة طيبة ، عزيزة الذكريات ، خلع فيها إهاب الشباب ، وروى تراب التخوم حولها من جراحه ، واستودع ثراها الرطيب أحب صفوة إلى قلبه : الرسول والزهراء . . إنه لينطلق عنها فى هجرة ، كما أتاها فى هجرة ، ليبدأ نضاله عن حق الله ، وتحرير الناس من ربقة الناس — ينطلق شوطه العسير القصير ، فى فؤاده يقين ، وبروحه هدوء الإيمان ، فلا يزال بقية عمره بين مد الحوادث وجزرها حتى يعانق السلام بدنه وهو نازح ، نائى الموطن ، غريب الديار ! . .

٣

أنى له أن ينسى عهده . عهده الذى قطعه أمام الله وإنه يومها لطفل أبى جبينه أن يعنو للباطل المتمثل فى أوثان تخلقت من حجارة منحوتة ؟ . . . الحق أبدا ، والحق وحده غايته ، وإن مشى إليه فوق الأشواك ، ومد نحوه حبلا من روحه ، وسبح على نهير من عرقه الناضح ودمه المسفوك . . .

ولقد وخزه الشوك ، وأذاب من روحه ليهدى العصاة . وبلل بالدماء والعرق الجبل والقاع . . . غيره كان حريا بأن يتلقى الأمور بالدعة والسكينة ، وبالرضا والطمأنينة ، فقد انبسطت تحته الدنيا ، كما عرفها عالم تلك الأيام ، إلا بقاعا قليلة كانت وشيكة أن تطويها أعلامه . . . إن ملكه قد ضرب بين قرنى الشمس . استغرق فارس ، ولامس الهند والصين . . . هز تاج الروم ، مطوحا بأهله عبر الصحارى الإفريقية الوسيعة ، يقتلعهم من شواطىء الأبيض فيها إلى مياه الأزرق فى غربها البعيد . . تاخم شمالا بلاد الجليد وتاخم جنوبا مواطن السود . . ذهبت الأكاسرة ، وذلت القياصرة ، وغدت الدنيا على اتساعها تضيق عن همة قومه الفاتحين . . . لكنه هو لايقنع ، ولا يرضى بهذا التراث الذى انتهى إليه عن أسلافه يقتعد عرشه وهو مستعز قرير . ليست العزة فى حساب رأيه بالرقعة

الممدودة ، المحدودة بالجهات ، الممدودة بالأقاليم . . . ليست بكثرة الشعوب والأجناس التي تخضع لهيبة الحاكم ، المنعكسة على أشفار السيوف وأسنة الصوارم . ليست بتلك الخيرات الدافقة على حاضرة الدولة . المبتزة أو المجلوبة من البلاد المغلوبة . . . هذه كلها مظاهر يراها غثة ، تبدى القوة لعين المخدوع ، وما هي بقوة ، وتبدى العزة وقد يكون حشوها هباء ! . . إنما المنعة أن تمتنع النفوس على الهوى ، وتعز عن مناله . العزة أن تتحصن دون نزغه وزيغه . أن تتحرر الأفكار من إسار الوساوس . أن تتطهر الأرواح من أدران المادة . أن تلفظ القلوب مضغة الشهوة . وحينما يجد الحق طريقه للأفهام والأحلام ، وتسبح له نواة في عروق البشر من رعيته تلون دماءهم ، وتنمو وتثمر — عندئذ يكون الإسلام قد حقق مبادئه ، وامتلك أعنة القوة ، فغدا حريا بأن تنتشر ألويته على الآفاق ، ويسير شوطه إلى الأمام .

هو عليم بأن دينه لا يقوم على غزو البقاع وامتلاك الرقاب ، وإنما على غزو الأنفس وامتلاك الألباب . والرقعة التي تخضع له لا تقاس بالأرض التي تطؤها جيوشه ، بل بمقدار من أشربت أرواحهم تعاليمه . وما كانت قط غاية هدف إليها الإسلام أن ينشر على العالم بأقطاره نفوذاً سياسيا من لون خاص . ولا أن يلتئم طائفة من الدويلات في دولة ذات حدود تستمد هيبتها مما تذخر من عتاد وتحشد من كتائب وأجناد . . . « الإيمان الأول » هو وحده السلاح القاطع الذي يستطيع المسلمون به بسط سلطانهم على الدنيا الضالة ، لأنه سلاح من عند الله يضل ما عداه . الايمان الذي غرس محمد — عهد تبشيره بالرسالة السماوية — نواته في قلوب حفنة من المستضعفين والعبدان فأعادها نشأة جديدة ، ذات بأس شديد على ذوي الأيد والجبروت من أصحاب العروش والصوالج . تمشى على ملكهم مشي الإعصار المدمر والطوفان الجائح . . . كانت هذه قوة روح تنحسر أمام مدها قوى المادة الصماء ، وتذل ، وتتلاشى حتى كأن لم يكن لها قبل التلاقي كيان . لكنها اليوم ليست كالأمس . فترت خبا ضرامها : بردت جذوتها أو تكاد فلم تتقد في الجوانح اتقادها القديم . ولئن ظل علم الاسلام يرتفع على ساريته ، وبقي حكمه يمتد فيشمل بقاعا من بعد بقاع ، فتلك بقية من القوة الدافعة التي

ابتعثها ذلك الإيمان ما زالت تحرك دولابه ، وتسدد ركابه حتى يئين لها أن تفنى — بعد جيل ، أو حقبة ، أو قرون — لولا أن تبادر النفوس الغافلة فتثوب !...

على مثل هذا النحو كان على يفهم واجبه الذى لزم عنقه منذ ولى الأمور . وفى ضوئه كان يلمح المصير الذى ينتظر أمته وينتظر معها البشرية . ومن عظات الغابر السحيق والماضى الدانى راح يقبس الأمثال فتلهمه ليكافح حتى لا تغدو عقبى الإسلام عبرة منذرة لمن أراد تلمس العبرة وإلقاء سمعه للنذير . . . فلم يكن للعبث ما سلف من جهاد الرسول . ولغير هذه الغاية المخوفة كان تبشيره . وإن الفرد ليذهب ، وإن العروش لتتهاوى ، وإن الدول لتضمر أو تتقلص عنها ظلال الوجود ثم لا يبقى بعد هذا كله وغيره من العروض والأباطيل إلى شىء ينفرد وحده بالبقاء فى الحياة كالدهر هو الحق الذى لا يفنى له جوهر ولا يزول . . .

فلتمتد إذن إلى سلطانه يد الأهواء تهم أن تنوشه من كل ناحية ... ليتربص به المتربصون . . . ليقعدوا له كل مرصد ومدخل . لكنه لن يستسلم . لن تهن روحه قوى . لن يشترى منهم أمنه وراحته بعطية يلقيها إلى شهواتهم كالعظمة إلى الكلاب الجياع ! . . لقد كان أدنى إلى هدوء باله واستقرار السلام فى أطراف دولته لو رضى لهم بإمرة هذا المصر أو ذلك القطر يسودونه وتبقى لهم به بعض مظاهر الكبرياء والعزة وبعض علائم النفوذ التى تسيل لها نفوسهم تحرقا ولهفة . غير أنه يأبى الهدوء الذى يأتيه على أنقاض مبادئه وأشلاء المثل العظيمة التى يؤمن بها حق الإيمان . ليس فى خلقه أن تثبت تحت قدميه رقعة أرض يظلها حكمه بينما تتحطم قواعد الحق وتتهاوى فى روحه . وإذا كان معاوية يكاد يشنها عليه حربا شعواء وهو يظهر للناس بداره إلى الثأر لدم عثمان ، فإنه ليسير الحرص على استبقاء ما فى يديه من نفوذ ، وليوشك أن ينسى ولاية الدم لو لوح الإمام له بولاية الشام ! . . .

لكنه تلويح محال . ومنطق للناس من ناقدى السياسة العلوية يعوزه الاستناد إلى القواعد الخلقية وإن وجدت له من قواعد الرياء بضعة أسناد ! . . فما يحق أن يلام من يدرأ عن اللب والجوهر قبل العرض والمظهر . وكان الحق هو الأصل . المبادىء المثلى التى سنها الإسلام للبشر شرعة لعالم مثالى هى الجذر

والبلاد التى تنضوى تحت حكمه هى الفروع . ولن يضير الدوحة أن يتقصف منها غصن أو يتكسر فنن ، وإنما يضير ويأتى عليها من القواعد أن يدب الفساد إلى جذورها الغائرة فى الأعماق ! . . .

وكان الإمام على بينة من الأمر الذى أخذ نفسه بإقراره ، فصلب فيه واشتد حتى العناد . وقد كان كفيلا بمعاوية ، قديراً على أن يخضعه وأضرابه ، ويسوقهم إلى الانصياع لهديه المنبثق من روح الإسلام ، وإلى الامتثال للقيم الإنسانية العليا التى دعت إليها تعاليمه . ولكنه كان كذلك أبعد الناس عن الغرور والاعتزاز بما فى يديه من قوة ، فللزمن أحياناً جموح ، وللظروف الدنيوية بدوات قد تخفض العزيز كما قد ترفع الذليل . وهو أمام عواملها المجهولة ، المتسربلة بالغيب . التى لا يكاد يدربها حسبان الحاسب ، يرى « ربما » حرية أن تتخايل أمام عينيه ! . . فمن يدرى ؟ . . لربما فشت فى القوم فاشية من حب الدنيا فقدموا الدعة وأخروا الجهاد ؟ . . لعل أن يحوزهم باطل ! . . قد يستأسرهم من معاوية سرفه وترفه فتمتنع الشام على جنود الإمام ! . عندئذ لا يعدم على عاذلا يعذله لأنه لم يهيء لنفسه أسباب السلامة ولم يرض بمهادنة تبقى الدولة بها سليمة ، وتظل دمشق ، وعاملها المشاق ، تحت ظله . . . أما هو فقد وطن على العذل نفسه ، ووطنها على أسوأ ما قد تنجاب عنه الأحداث من فروض وأحداس . وإذا كتب لابن أبى سفيان وأشباهه أن تكون لهم فى دولة الإمام إمرة فلتكن إذن حين ينبو سيف على وتتقطع أسبابه ، ولا يقولن بعدها امرؤ عنه إنه خشى على سلطانه فداهن وهادن ، وأقام ركناً لدنياه على أنقاض مبادئه ، وساوم فى حق الله وحقوق الناس ! . . .

نظائر هذه الخواطر وأمثالها كانت دائماً تمثل بخلد على ، لا تريم لحظة عن باله ، ولا يكف ذهنه عن لوكها كلما تبدى لناصح أن « ينصح » أو لعاقل أن « يشير » . فإنما غدا النصح والمشورة مضغة فى أفواه الذين تخدعهم الظواهر ولا تهديهم البصيرة . وطالما انبرى للإمام منهم من أهاب به أن يبقى ولاة عثمان على ما فى أيديهم فيبقى بهذا على كيان سلطانه ، ويمنع عنه الانتقاض فى الأقاليم النائية بعض النأى عن كفه وسيفه . بهذا نصحته طائفة غب البيعة وهو بالمدينة ،

وبمثله أشار عليه المغيرة بن شعبة : أن يثبتهم على أعمالهم ، أو يثبت — فى القليل — منهم معاوية ، حتى تأتيه بيعتهم فيعزل بعد هذا من شاء ... حتى ابن عباس أيضا كان ذات يوم من هذه الطائفة الناصحة ، التى ترى الدهاء فى المداجاة إلى أن ينفسح الوقت للحسم ولقاء الأمور بغير الهوادة كأنما الوقت ما آن . وكم من قبله رأوا رأيه ، وكم بعده من خلصاء الإمام . . . لكنه رد هذا « النصح » وارتفع بذهنه عن استيعابه ! . . فما هو إلا سياسة المتردد المستريب فى أساليبه ، الأخذ بها رياء ، والنكول عنها — بعد إقرارها — غدر ، وكلا الأمرين ليس فى شيمة الذى يقول قولته فى أهل الغدر ومن يرونه دهاء وكياسة :

« . . . لقد أصبحنا فى زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً ، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة . ما لهم ، قاتلهم الله ! . . قد يرى الحول القلب وجه الحيلة ودونه مانع من أمر الله ونهيه فيدعها رأى عين بعد القدرة عليها ، وينتهز فرصتها من لا حريجة له فى الدين . . »

فليس هو إذن بالذى يتحرر من نطاق المعايير الخلقية ، أو يخضعها لأهواء الأنفس أو دواعى الظروف . ليس أيضا بالذى يلف بها ويدور ثم لا يزال يشذب من أطرافها وينتقص من نواحيها لتطابق فكرة مصنوعة وبدعة موضوعة . إنما طريقه سوى ، ونظرته إلى الأمور مستقيمة تخترق منها القشور واللباب . وإن شأنه ومعاوية كشأنه بالأمس ، وكشأنه فى الغد القريب والغد البعيد . لا مداهنة ولا مهادنة . لكنه يظل يعذر إليه ، المرة بعد المرة ، حتى ينفد الصبر . .

وكان يعلم أن إعذاره إلى الرجل الذى ادعى لنفسه ولاية الدم كالصرخة فى الربع الخالى ، لا تردد سوى صداها . فما نفسه عنه بخافية ، ولا نداؤه بمسمع صممه ما دامت على قلوب أكنة وعلى عيون غشاوة ! . . ومع ذلك فإنه على كتابا ، يود لو وسعه به أن يستفىء غريه ويهديه عن غيه حرصا على السلام والإسلام . وهو هذه المرة لا يوفد إلا رسولا يكاد معاوية يرضاه ، فإنه عنده ناصح ثقة . وما فعل إلا وقد رجا أن تبعث هذه الوفادة فى نفس العاصى طمأنينة تسوقه لخير . . .

وكان رسوله جرير بن عبد الله ، صاحب همدان فى عهد سلفه . جاءه الكوفة فبايعه ، بعد أن نزعه من إمارته ، وعرض نفسه للوفادة . . فقال إذ ذاك :

« . . . ابعثنى إلى معاوية ، فإنه لم يزل بى مستنصحاً ودودا ، آتيه فأدعوه أن يسلم لك هذا الأمر . . على أن يكون أميراً من أمرائك ، فأعمل بطاعة الله . . وأدعو أهل الشام إلى طاعتك وولايتك — وجلهم قومى وأهل بلادى — وقد رجوت ألا يعصونى . . »

والناظر فى شأن هذا الرسول قد يوشك أن يتبين ميله لابن أبى سفيان بعض ميل وإن هو حرص من بعد على أداء ما بعث فيه على نسق قد لا تناله المعابة . فهو يشير بأن يظل معاوية على إمارته ، عاملا من عمال على ، يخضع ولا ينزع ، كأنما فاته ما سلف على أمثال هذه المشورة من إباء الإمام . .

وعيل الأشتر إلى أمير المؤمنين عند سماعه قول جرير :

« لا تبعثه . ودعه ، ولا تصدقه . فوالله إنى أظن هواه هواهم ، ونيته نيتهم » .

لكن علياً لا يحكم بالظن فيدع اليقين . وقد نزع جريراً من ولايته التى ولاه عثمان فلم يجنح الرجل للخلاف ، بل سارع فنزل عند أمره ، وقال فيما قاله لأهل همدان وفى عينه كتاب خلعه ، حينذاك :

« ... هذا كتاب أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وهو المأمون على الدين والدنيا . . . وقد بايعه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان . . . ولو جعل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقهم بها ... ألا إن البقاء فى الجماعة ، والفناء فى الفرقة وعلى حاملكم على الحق ما استقمتم ، فإن ملتم أقام ميلكم . . »

فإن يكن قد خطر له اليوم أن يشير بإبقاء معاوية على عمله بالشام فلعله ترديد رأى قديم كانت بضعة قبله تراه . .

أما الإمام فلم يأخذه بالظنة ، ولم يستمع فيه للوم اللوام . من العدل أن يلى له ويسبر دخيلته حتى ينضح إناؤه بما فيه ! . . ولذلك نراه يقول للأشتر :

« دعه حتى ننظر ما يرجع به . . »

ثم يختم رسالته ويدفع بها إلى جرير :

« ... ائت معاوية بكتابى . فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون وإلا فانبذ إليه . وأعلمه أنى لا أرضى به أميرا ، وأن العامة لا ترضى به خليفة . . . »

يجب بقوله هذا مشورة الرسول وأشباهها من أنصاف الحلول ! . .

وكانت رسالة داعية واعية . دعت إلى الحق من أقصر سبله . وبأوضح أساليبه . . ووعت قصة الاستخلاف ، التي أثارت كل هذا الخلاف . بما سبقها وما لحقها من المقدمات والخواتيم . . . وكانت فوق هذا وذاك عظة جارية ، وحكمة هادية لمن أراد الهداية وشرح الله صدره وفجر في فؤاده ينبوع النور . فلم يغفل الإمام فيها أمراً جرت ألسن الناس بذكره إلا بينه . ولم يدع ثغرة ينفذ منها خصمه إلا سدها دونه . . . ما من شيء كان معاوية يستطيع أن يحتال به ، أو يدعيه حجة تؤيد خلافه وتسند انحرافه إلا مد له الإمام معولا من سطورها — حديداً شديداً — يدمر باطله ، ويقوض معاقله . . .

وشهدت دمشق ذات يوم عاهلها . مبهور النفس ، عليه فترة من اضطرابه ، وهو يلقى ساكناً بسمعه إلى حديث الرسول القادم صوبه من الجنوب :

« ... يامعاوية . إنه قد اجتمع لابن عمك أهل الحرمين . وأهل المصرين ، وأهل الحجاز ، وأهل اليمن ، وأهل مصر ، وأهل العروض وعمان ، وأهل البحرين واليمامة . فلم يبق إلا أهل هذه الحصون التي أنت فيها ، لو سال عليها سيل من أوديته غرقها ! . . . »

وكان القول ما قال جرير . فتلك الرقعة المبسوطة من بلاد الإسلام بين قرني الشمس كانت تظلها راية ابن أبي طالب إلا ثغورا في أقاصي الشمال تتاخم الروم قد غدت في يد الأمويين منذ وليها — خلال عهد أبي بكر الصديق — يزيد بن أبي سفيان . وهي اليوم بعده في حوزة أخيه . فلعل بقاءها في يد الأسرة هذه الحقبة من الزمن التي تزيد عن ربع قرن من السنين قد أطمع فيها معاوية ، فمضى يراها كالتراث الموروث . ولعل نفسه أبت إلا انتهابها طعمة له ولذويه ، يصطنع لامتلاكها الحيل ويحشد الذرائع ، ثم يحسب في خلعه عنها إهداراً لحقه وابتزازاً لسلطانه .

لكن جريرا لم يدع خيالات العاهل تسبح به إلى بعيد :

« . . . ألا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتن . ألا وإن العرب لا تحتمل السيف . وقد كانت بالبصرة أمس ملحمة إن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس . .

فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس . فإن قلت : استعملنى عثمان ثم لم يعزلى فإن هذا أمر لو جاز لم يتم لله دين وكان لكل امرىء ما فى يديه . ولكن الله لم يجعل للآخر من الولاة حق الأول ، وجعل تلك أموراً موطأة ، وحقوقا ينسخ بعضها بعضا . . . »

فسرح الوالي بعينيه برهة ، يذرع بهما ملامح الرسول . وتفكر مليا . حتى إذا أعياه الجواب الصواب ، همس يقول :

« انظر وننظر . وأستطلع رأى أهل الشام . . . »

فإلى غد . فإن غدا فرجة الحيران ! . . .

٤

تلك الليلة لم يغمض جفنه . . جاشت بنفسه همومه تحركت وساوسه . تداعبت رؤى الأمل نصب عينيه — أمله القديم الذى ابتنى له هيكلا فارع الذرا والعماد فيه عرش وصولجان ! . . يا ترى يرخى قبضته ؟ . . أيدع القنية الثمينة يفلتها كفه بعد حرصه على إمساكها كل هذه الأعوام ؟ . . هل يخضع للنزع فينزع ، وللخلع فيخلع ، ويرتد ، كغيره من الولاة القدامى مسلوبى الحول ، امرأ فى الغمار من عرض الناس ؟ . .

لم يكن بالغر . . الأحلام التى تضطرب فى جوانحه لا يحركها الوهم وحده . وأطماع نفسه التى تجنح به إلى تسنم غارب السيادة لا تستند فحسب على قاعدة هشة من خيالات مخدوع ... هو لا يلوى طرفه بعيدا عن السحائب التى تجمعت فى أفقه . لا يغفل عن الحقائق الجلية البادية وإن فدحته وأثارت باله . وهذه الرقعة المبسوطة تحته ، الخاضعة لسلطانه ، هى لا ريب أهون شىء على غريمه حين يستعر القتال ويغدو السيف وحده هو الفيصل . وهى كذلك محط شراهة الروم ، لا تنى سرايا جندهم تنوشها وتغير على ثغورها الدانية منهم لتردها كرة أخرى إلى أحضان أمها القسطنطينية . ولكنها جنة له على أى حال . وملاذ أمين يحميه من على إلى حين حتى تتكشف وجوه الأحداث . فلن يعدم وسيلة تكف

عنه غائلة القيصر الرومانى المستأسد ، إن بالصلح والمهادنة ، وإن بالمال والهدية ليفرغ من بعد للصراع الكبير . ولن يكل عند ذاك للغد وما يجن من عوامل خفية أن يحسم ما بينه وبين الخليفة الإسلامى الذى بات لا يرضيه غير استئصاله وقشره عن الشام . . إنما سيعمل ! . . لسوف يجيش كل فى طاقة البشر من جهود وحيلة . . . ليمدن إلى أطراف دولة خصمه ألسنة النار ! . . لتكونن كل بلدة من بلدانها مشغولة بنفسها ، لا تعرف الدعة ، ولا تستطيع فى محنها التى تترى أن تمد الخليفة بمال ورجال ! . . ليجعلنها مراداً لحفنة من العصابات المنهومة إلى العبث وانتهاب الأسلاب ، فتنام على غارة لتصبح على غارة ! . .

حتى الظروف نفسها بدت كأنما تؤازره . . . هذه سجستان وطئت أرضها جموع من هراب البصرة غب الجمل فغلبت عليها وقتلت عامل على هناك . وهذه خراسان انسلخ أهلها من الطاعة ، وانسلخوا كذلك من الدين صابئين ، ثم أمدهم رجال كسرى من كابل بما أجج ثورتهم حتى أوشكت أن تذهب فيها ريح الإسلام . . . إنها النذر . الأنسام الوانية التى تسبق المواصف ! . . وإذا كان ابن عباس قد بادر فاسترد سجستان وأعاد فيها راية ابن عمه خفاقة ، وإذا كان خليد قد مشى على خراسان فأوقع بالمرتدة فى نيسابور وغنم وسبى وساق بنات كسرى إلى الكوفة أسيرات ، فذلك نصر قد لا يجف له قلب غريم يقيس النتائج البعيدة بقياس المقدمات الماثلة للعيون . أو ليست هذه الفترة فاتحة تكاد تنبئ عن سلسلة أخرى من الثورات قد تسير غدا أو بعده فى ركاب الإمام ؟ . .

ليوشك معاوية أن تتبدى له الدولة كلها تزلزلت نواحيها ، لا يهدأ فيها بركان إلا ويثور بركان . . . وقد كانت المنى أحياناً هى التى توجه نظرته ، وتنفذ بها فى المستقبل إلى خواتيم مأمولة . وكانت الحقائق دليله فى بضعة من الأحايين . حتى مصر التى أثقلت فؤاده وعادته من أحوالها الهموم ، لم يعدم بها فرجة تنفس عنه بعض برحائه فما زالت ثمة فئة على ضفة النيل يتوقع عندها الخير . إنها هناك رابضة — وقد فتنها مقتل عثمان عن التزام جماعة المسلمين — تتربص بقريتها ، وتنتظر سانحة من الزمن تسنح لتعلن التمرد باسم الثأر للقتيل . هى تحتجر بخربتا احتجار الثعالب . تتلمس الأمن فى الاعتزال . تقر هادئة عن تخاذل

وخشية . ولكنها لن تلبث أن تضحى بعصر بؤرة تشل سلطة علي ، وتفسد عليه أموره أيما إفساد لو عرف الغاوى كيف يحرك منها على الخليفة النفوس ويوغر الصدور ...

غير أن هذا كله لم يعد معاوية بالطمأنينة ، فالزمن الذى يحالفه اليوم قد يحالف فى غد غريمه . والريح الرخاء التى يسبح فى مهبها شراعه قد تزمجر كالإعصار . بل هو لحظته هذه راحت تضطرب فى أعماقه عوامل خوفه وتدور أعتى من اضطرابها أمسه . فإنما مصر بلواه ! . . بها المال والرجال . وبها من الزاد وفرة تكفى أمة ضخمة من الجيوش تشرق وتغرب فى فجاج هذه الدنيا الفسيحة ثم لا تكفها عن الزحف حاجة ! . . وبها اكتملت لابن أبى طالب مادة الحرب كلها — بعد إذ غدا العراق ملك يمينه — من ذخيرة الجند والمؤن والعتاد حتى أوشك ألا تكون قط مادة لأحد سواه . ومنذ غلب عليها ابن أبى حذيفة وطرد منها عامل عثمان وهى شجا فى حلق صاحب الشام . قذى فى عينيه . حربة مسمومة تشق جنبه وتدميه . وليس يأمن الآن أن يأتيه جند منها وجند من الكوفة فيصبح بالجندين بين شقى الرحى ويشخب جنباه ! . . .

وأحس كأنما قدمه على مزلق تحتها هاوية سحيقة الغور إلى أبعاد تضل فيها النظر ضلالها فى السواد الكثيف الذى نشرته حوله هذه الليلة الباردة من ليالى الشتاء . وكانت العيون فى القصر وسنى . والصمت يشمل كل جزء من أبهائه ونواحيه . وكانت الريح ذات دوى وزئير وهى تجوس معولة بين غابات أشجار الحور التى أشرعت جذوعها كالمآذن وشبكت غصونها كالقباب ! . . ولم يكن ثمة فى الليل أنيس إلا الوحشة ، ولا سمير إلا العزيف والعواء ! . . لا هيئة إنسان ولا همسة لسان . الهدوء فى الدار والثورة فى الغاب ! ولو قد أتيح له أن يتكلم بمنطق الشجر والريح ، لبادلها وجيفا بوجيف وعزيفاً بعزيف ! فما أثقل الصمت على نفس الحائر ! وما أشقها من وحدة حينما تتكاثف حوله ظلال الهموم ! . . إنه ليتلفت فيما اكتنفه بحجرته ، وفيما امتد إلى ما خلفها خارج أسجاف الشرفة المنفغرة بكمام كفم المعتوه ، فلا تقع عينه إلا على صحراء من الخرس والظلمة . . . إنه ليطرب أمام خلجات خاطره . . إنه ليحس بدنه يهتز على ضربات قلبه

الواجف . . . أفيدعو إليه عتبة أخاه يبثه بعض شجوه ؟ . . أيصفق فيأتيه من فتيانه غلام علاً عليه بعض هذا الفراغ ؟ . . أيتربص بالحارس الذى أخذ وقع خطواته الوانية يتردد خافتاً فى الردهة ، ثم يبرز إليه يحادثه أيما حديث تجريه اللحظة على لسانه ؟ . . لقد تاق سمعه لـكلمة ، وتاق ثغره لـكلمة ، فمن له بسمع وسامع ؟ . .

ولم يشعر أن قدميه قد انسابتا ، كما فى حلم ، تحملانه إلى الباب حتى هم أن يجوزه . لـكن نسمة باردة ردته لوعيه قبل انفلاته إلى البهو ، وعادت به ثانية إلى الغرفة الـكئيبة . . . تأبى عليه نفسه أن يكشفها لمن يرونه صاحب قدره وسيد مصيره . تأنف عزته . دون هذا وتحرن خيلاؤه ! . . كلا ، لن يدع الناس يقولون إن شيئا حزبه وأمرا أهمه وهم يرجونه كلما اشتبهت الأمور والأشياء على الدهاة والأذكياء ! . . . إنما سيحفظ فى قرارته همه حتى ينبلج الصبح وتنقشع غمة هذا الليل الطويل الثقيل . وعندما يتبدى الفجر ستبدأ له شواغل تنأى به عن تيه أفـكاره . وحتى يسفر النهار فإنه سيزجى الفراغ والوحشة بالحديث والسماع . سيتكلم لسانه وتنصت آذانه ! . . .

وكرة أخرى عد أصابعه إلى الـكتاب الذى أقبل به عليه وافد الإمام . الآن لا يقرؤه قراءة عين . لا يتجول ناظراه فى سطوره وهو صامت يفـكر . إنما يلوك فى حلقه حروفه فتتذبذب لهاته بألفاظه ، ويفر الصمت على جرس صوته الخافت الوئيد :

« . . . أما بعد فإن بيعتى بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ، لأنه بايعنى القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد . وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماما كان ذلك لله رضا . فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ويصليه جهنم وساءت مصيرا . . .

إن طلحة والزبير بايعانى ، ثم نقضا بيعتى ، وكان نقضهما كردتهما ، فجاهدتهما بعد ما أعذرت إليهما حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . فادخل فيما

دخل فيه المسلمون ، فإن أحب الأمور إلى فيك العافية إلا أن تتعرض للبلاء . فإن تعرضت له قاتلتك ، واستعنت الله عليك . . .

وقد أكثرت الكلام في قتلة عثمان ، فادخل في الطاعة ثم حاكم القوم إلى أحملك وإيام على كتاب الله . فأما تلك التي تريد فخدعة الصبي عن اللبن في أول الفصال ! . :

لعمري يا معاوية لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان ، ولتعلمن أني كنت في عزلة عنه إلا أن تتجني فتجن ما بدالك ! . . واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ، ولا تعقد معهم الإمامة ، ولا تعرض فيهم الشورى . وقد بعثت إليك جرير بن عبد الله وهو من أهل الإيمان والهجرة السابقة ، فبايع . ولا قوة إلا بالله . . . »

ثم صمت الحديث ! . . عاد السكون يملأ أطباق الحجرة ، والوحشة ترود فراغها الثقيل . ورجع البكم مرة أخرى يحاور أذنيه ! . . ولكنه مع هذا لم يدع ذلك الكتاب من يمينه . ظل برهة من زمن ، طويلة على وهمه ، يقلبه في كفه ، لغير مرمى أو غاية . لبث يتبعه نظره يمد عينا لكلمة منه هنا وعينا لكلمة هناك . ففيم سبحه الآن على خضم أفكاره ؟ . . أقد استخذى إذ يعير بماضيه وتخلفه الغابر عن اللحوق بأهل القدمة والسابقة في الإسلام ؟ . . أود لو يستشف حقيقة الوعيد الذى أزجاه على إليـــه في ثوب رقيق من الرفق والسماحة ؟ . . أمست قلبه واعتصرته العبرة التي نضحت بها في البصرة عقبى أصحاب طلحة الناكثين ؟ . .

هو لا يدرى ، وأنى له ، أى هذا كله جرى في باله — تلك الساعة المتأخرة في السحر ، الدانية من الفجر — وإن ذهنه لتختلط فيه ولائده من خواطر وأوهام ، وخطط وأحلام . غير أنه استطاع أن يرى من خلال تلك السطور صورة لذلك القصير ، الذى دبج الكتاب ببيانه وأملاه بلسانه ، أطلعته في غير الهيئة التي يرسمها الحمق . . . كلا ليس بالغر ! ليس ابن أبي طالب بالذى تفتله خدعة مخادع أو حيلة محتال . . . وحتى قصة الثأر التي أهاجت عليه فرقة من أهل الشام ، وكانت حقيقة بأن تحد من غلواء أى خليفة سواه وتنال من صلابته ،

لم تكن ذات أثر مذكور فيما وطد عليه عزمه منذ بدء اضطلاعه بأمر الدولة ، بل لعلها زادته استمساكا برأيه ، وإصراراً على خلع مدعى ولاية القتيل . فما دم الشيخ بنهبة للناس من شاء منهم تولى ثأره . وإنما الأمير الشرعى وحده وليه ، يأخذ مهريقه ، وينفذ فيه كلمة العدالة . أما عشيرة القتيل وذووه فأفراد فى الدولة يلتمهم كغيرهم قانونها العام ، لهم حق الاحتكام فى ثأرهم إلى الحاكم دون حق الحكم فى المذنب ، فإذا سولت لهم نخوتهم ابتزاز سلطة القصاص ، فهم خارجون على النظام . . .

كل هذا قد انبسط فى الكتاب وتبينت حجته بلقاء لا يقدر أن يخفيها ادعاء مغرض ذى هوى وإن لف ودار وسمم الأفكار وسحر الأنظار ! . لكن معاوية اليوم فى حرب فناء ، يتوسل إلى كسبها بما يستطيع . فما يفيده أن يعين إذا اللين نصره ، ولا أن يغش إذا الغش عززه ، وعندما يصبح سلطانه الدنيوى فى كفة ، والقيم الخلقية العليا فى كفة ، فلن يتردد لحظة فى أى الكفتين يختار . ولقد أعز حقا غرسه فتعلقت به نفوس أهل حاضرته ، وراحوا يعاقدونه على الثأر الذى أبداه فى عيونهم بطلا يستجيب لدواعى المروءة والنجدة كما تتحدث بها أساطير الأبطال ! . ولم يكن تعاقدهم ذاك وعدا موقوتا بأجل النخوة التى ابتعثها فى قلوبهم غضبهم الطارئ للدم المسفوك ، ولكنه كان عهداً صادقا قطعوه عن سلامة طوية ونذرا خالصاً نذروه عن عزيمة وإصرار . فما زالوا إلى يومهم لا يمس جلودهم غسل ، ويعيشون فى بيوتهم كرهبان الدير لا يقربون النساء ! . . . وإنهم فى غـد حريون أن يظلوا على موثقهم حتى ينالوا ثأر الخليفة المقتول أو ينحرف بهم كبيرهم عن التماس القصاص .

وابتسم معاوية . عرف البشر الآن طريقه لوجه المكروب . ومض الأمل فى أعماقه التى ملأتها قتامة الهموم . خف قلبه الثقيل . . . وعندما كان يلقى بنظره الساهر إلى الظلام الذى أخذت ظلاله ترق خارج الشرفة فى لفائف الغاب ، كان خاطره يسبح به عائداً إلى ذات أمسية حارة من الصيف الذاهب ، وانية الهواء وسنانة النسيم . . لقد أصاب الحجاج بن خزيعة إذ ذاك ، وصدقت نظرته فى طبائع النفوس حين جاءه تلك الليلة يضرب عليه بابه لينبئه خبر ماجرت به الأقدار فى مدينة الرسول . . . يقول له معاوية :

« . . . ما وراءك يا حجاج ؟ . . »

فيجيبه الرجل وهو ساهم حزين :

« إني لك النذير العريان ، فقد قتل أمير المؤمنين . . . »

وتظلل سحابة من الفكر وجه السامع وأخرى من الأسى وجه صاحب الحديث ويسيطر الوجوم برهة على المكان . ويتفرد كل منهما قليلا بهمه حتى يعودا إلى ما كانا فيه من الإنصات والرواية . فإذا بلغ الحجاج من خبره غايته مضى يقول :

« . . . وإني يا معاوية مخبرك أنك تقوى على على بدون ما يقوى به عليك ، لأن من معك لا يقولون إذا قلت ، ولا يسألون إذا أمرت ؛ ومن مع على يقولون إذا قال ، ويسألون إذا أمر . فقليل ممن معك خير من كثير ممن معه ! . . »

وابتسم الماهل مرة أخرى وهو يثوب لنفسه من خواطره . وطاب فؤاده وصفا محياه . . . كانت الذكرى بشرى له بالأمان ! . .

ثم أقبل الفجر عليه من المشرق . أطلعت الظلمة له غرة لامحة بلون آماله تطل من خلال الظلال التى مدتها حول قصره مردة الشجر فى الغاب . وكانت عقود الضياء تنبثق من بعيد كقطر الماء من فم الينبوع . وكانت حباتها الدقاق البيضاء تنتظم وتتضام ، رويدا رويدا ، فى رحاب الفضاء الفسيح حتى غدت فيضا راح يغمر الدنيا بلألائه . . . وتبدت السحائب المنبثة فى جوانب الأفق ذات ألوان فى مسيل الشعاع ، بها من دكنة الليل ، ورقة اللازورد ، ووهج الفضة ، وحمرة الياقوت . وأخذت مسحة من الضوء فى نصاعة الثلج تجلل رءوس الروابى وقمم الأشجار التى أتلعت أجيادها ترنو مشوقة إلى جبين النهار الوليد . . . وعندما زحف إلى شرفته أول شعاع ، وطرفت أهدابه على وميض نوره ، وانطوى الليل الساهر فى غلالة الصباح ، كان الماهل المكدود الذى استخفه بشره يجتر الذكرى ، وتتراءى أمام عينه الوسنانة صورة صاحبه ، فيهتف لها — وهو باسم — بين خفق النعاس :

« . . . ما وراءك يا حجاج ؟ . . »

٥

كأنه فوقعة طوتها صدفة ! . . كان واجما ، غامض النظرة ، قد غلب على محياه السهوم وأخذت قسماته مسحة فيها عبوس وفيها جفوة . .. وكانت عينه جوفاء ، جللت لحها سحابة من الشرود كالضباب الذى يغشى أحيانا بركة من الماء الآسن ! . . ففى قرارها تنام حيرته ثم يخفيها وقاره المصنوع كما تخفى غيمة الضباب الحمأ والطين فى قاع البركة . وتحت أهدابها انتشرت دكنة خلفها سهرة كتلك الظلال التى تعدها على حوافى المياه الكدرة أعواد الشوك . ولم تكن نفسه هادئة وإن أوحى مظهره الساكن بالهدوء والطمأنينة . ولم يستقر له خاطر خلال النهر والليالى التى ملأها بتفكيره . فما يزال يتنسم القلق منذ جاءه جرير . وما تنى ألوان شتى من التوجس والخشية تتواثب على ذهنه كالأشباح . ولقد كان فى البدء يوشك ألا يحفل بوافد الكوفة إذ حسبه رسولا كالرسل ، يبلغ رسالة ثم يعود ، فإذا هو عنده ماكث مقيم ، وإذا هو كالصدى فى القصر الخالى يتردد دويه فى هذه وتلك من حجراته وأبهائه حسبما يفسح له فراغها فى الرجع والتردد . . . فكذلك غدا جرير . وكذلك لبث عنده لا يبرح إلا أن يرده عنه بجواب ما جاء فيه . .

بضعة أيام قضاها معاوية هدفا سهلا لإلحاف جرير لايعرف لنفسه مهربا منه إلا التسويف . فلقد حصرته دعوة الإمام للطاعة فى أضيق الأركان ، وسدت دونه كل مسلك إلا المجاهرة بالسلم أو المبادرة بالعداء وكلا الأمرين عليه شديد . ولكنه اختار أن يتربص بزمنه ، ويستأنى به لعله يجيئه بالخلاص . ففى الزمن لكل حائر ملاذ . . . وحسبه الآن أن يراوغ ، ويحتجر من الرسول كالضب أو الثعلب ، ويمسك قلبه خشية ثم يمسك لسانه تحرزا فلا يعلن البيعة ولا يشهر العصيان !» .

ويلتفت ذات ليلة وقد أطبق عليه إلحاح الرجل :

« . . . ياجرير ! . . إنها ليست بخلسة . وإنه أمر له ما بعده ، فأبلعنى ريقى ! . . . »

غير أنه لم يكن يرمى بعطله الجديد إلى الإفساح لنفسه فى التدبر ووزن الأمور . فالنهج أمامه واضح والطريق مستقيم . إنما لغاية يبطنها شاء أن يستمهل ، وأن يرجىء وسمه البت فى دعوة غريعه برد صريح . ومن يدرى ؟ . فلعل البريد أن يأتيه الآن بالجواب الذى بات طويلا يترقب أن تنشق عنه صحارى فلسطين . .

وفرغ والظلمة إلى خلوته . . . وكانت نفسه حزينة كالليل . وكان قلبه ثقيلا كالرمل . وكانت عينه ندية كالطل . بينا عوامل القلق تتناوب ذهنه الكليل كأنها ذئاب جياع تناوبت فريسة ! . . لكن هذا كله لم يمنع سمعه أن يمتد إلى الخلاء والرياض حول قصره العالي ينصت فيها لوقع الحوافر على الحصا والحشائش . غير أنه لم يتلقف فى الوحدة الهامدة إلاهمسات الوحشة فما ثمة جياد . ولا ثمة بريد يجيئه بما يريد . وإن الليل ليمضى به والهدوء شامل . وإن الصمت يتراكم حوله كما تكاثفت فى السماء غيوم أمسيته المطيرة . وأن الأنجم لتبرز مطلة عليه من بين السحب كالعيون السواهر ، ثم تزهر ، ثم تبهت فتغيب وما زال سمعه المترقب معلقاً بالمجهول . . . أيا ترى طاشت هذه المرة مشورة عتبة أخيه ؟ . . . أم النهار سيسفر عن أمله ؟ . . أم ذلك القابع بناحية البيع من فلسطين قد آثر أن يشخص بنفسه إليه فلا مدعاة إذن لتحرير رقعة لوفادة رسول ؟ . .

أينما جرت به أحلامه أو همومه فمشورة أخيه لاتنى تتردد فى فراغ ذهنه الأجوف ، حتى فى هذه اللحظة التى اختلى فيها بحيرته كان صوت عتبة يعاوده ، ويملأ خلوته ، ويدوى فى أذنيه دوى الطبول . . ولم يكن قد أغفل تلك المشورة التى لقنه سليل آخر من سلالة أبى سفيان ، ولا أمهلها حينا حتى يتبين ما لعلها تحتوى من رشد أو تسفر عنه من ثمار ، وإنما تلقفها ملهوفا من فم المشير وقد لاحت له كأنها القشة التى تنقذ الغريق ؟ . . ومع ذلك فما كفت — منذ احتضنها وأنفذها — تلح بلفظها عليه ، وتضطرب فى خاطره ، ويعلو جرسها رويدا رويدا من طوايا ماضيه الدانى حتى غدا يسمعها — ليلته هذه — كأنها تند لتوها من شفتي عتبة ، صاخبة هادرة كزبد الشلال : « اجتمعن بعمرو ! » . . « اجتمعن على هذا الأمر بعمرو ! » . . « اجتمعن على هذا الأمر بعمرو

ابن العاص ، وأنى له بدينه ! » . . . فما لعمرو ينام عنه كل هذه الليالى الطويلة فلا يقبل ولا يبادر بجواب ؟ . . .

كانت دعوته — وليدة المشورة — التى وجهها إلى نزيل فلسطين ، بسيطة ، ساذجة المظهر لا تنطوى على التواء : « . . : قدم علينا جرير فى بيعة على ، وقد حبست نفسى عليك حتى تأتينى : أقدم أذاكرك أمرا » . . . كانت تتحدث فى يسر ، بلسان راغب فى النصح باحث عن الصواب . كانت رخية اللفظ ، ناعمته ، تنم عن خطاب ند لند أثير لديه حتى ليدع ثقاته وخلصاءه أجمعين ممن فى متناول عينه بالشام ثم يستمد هذا القاصى رأيه ويستهديه عبر الصحراء . كانت غفلا من التلويح بالمغنم واستثارة شره الأنفس المفتونة بالمناصب وأسباب الجاه . فلولا أن ابن العاص عليم بخافية داعيه لأخذه الزهو حينذاك ، ولتاه عزة وكبرا وهو يرى داهية الشام يحبس نفسه على مشورته لكنه خبير به ، يعرفه أخا حذر . ويعرفه أيضا طويل المعطس يمد أنفه إلى مهاب نفعه كما يمتد خرطوم الفيل ! . . فإذا دعاه معاوية ، فلغير الحق أو صلة الصحبة دعاه . وإذا هو لبى ، فلغير ذاك أو هذه تكون شوراه . . . كلا الرجلين يجيد قواعد الحساب ! . .

وإذن فهذه رحلة إلى دمشق تنتظره ، وعناء ووعثاء ، ويد سخية عند نهاية الشقة تمسح عنه عرق المشقة ! . . إن ابن العاص كذلك أريب ، داهية كداعيه لا يتنكر طائعا للطبيعة الجائعة فى نفسه التى يمتزج فيها القليل من النور بالكثير من الطين ! . . إنه لا ينسى الجبلة البشرية ، النابتة من الأرض ، الرانية إلى الأرض ، المشغوفة من الدنيا بما لا يوشك أن يجاوز مجال الحواس . أما الروح فأمرها عليه هين ، والضياء الذى ينبثق من صفائها فقد غشاه درن المادة ، والقيم الإنسانية المثلى فقد غمرتها عبادة اللذات ! . . كان الرجل واقعى النظرة ، يؤثر أن يغوص بقدميه فى الطين على أن يسمو فوقه بجناحى ملك ترفسانه بعيداً عن نطاق عيشه . . كان وفياً لذاته غاية الوفاء ، مشغوفا بها غاية الشغف ، حتى لتوشك أن تكون كل همه وكل شاغله . . وعندما اكتوت الأمة بالفتنة التى كان عثمان قربانها ، مضى يراقب الأفق فى صبر ، ويتبين طلعه ، ثم همس لنفسه وهو متذائب بين اليأس وبين الرجاء :

« . . . إن يله طلحة فهو فتى العرب سيبا ، وإن يله ابن أبي طالب فلا أراه إلا سيستنظف الحق . وهو أكره من يليه إلى ! . . »

وها هو اليوم ، بعد طول تلبث وأناة ، يعلم بفاجعة البصرة . ويرى الناس يلتفون بعلى ، ويتبعون هديه الذى يقدم المبدأ على النشب . . . وها هو يشيم بشائر دولة توشك أن تقوض الأثرة وترسى عمدها على الفداء والإيثار . . وها هو مبشر جديد يدعو قومه إلى مكارم الأخلاق دون كرائم الهبات والأرزاق ، يحذرهم البهرج والزخرف ، ويحملهم على الشظف والزهادة فى مفاتن الدنيا ليرتدوا كرة أخرى إلى دعوة الله . فهل فى ساحة مثله لابن النابغة مكان ؟ . . .

ويومىء عمرو إلى ولديه وفى يده كتاب ابن أبي سفيان :

« ما تريان ؟ . . »

يقول له عبد الله :

« . . إن نبي الله قبض وهو عنك راض ، والخليفتان . . فقر فى منزلك ، فلست مجعولا خليفة ، ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا أوشك أن تهلك فتشقى فيها . . . »

ويقول محمد :

« . . إنك شيخ قريش ، وصاحب أمرها ، وإن تصرم هذا الأمر وأنت فيه خامل تصاغر أمرك . . فالحق بجماعة أهل الشام فكن يدا من أياديها ، واطلب بدم عثمان » .

الثأر لعثمان ؟ . .

هذه هى القضية ! . . وإنها لدعوة رنانة الجرس كقرع النحاس ! . . وإنها لراية حمراء فى لون الدم تنساق وراءها حمية الجماهير الكلفة بتأثر مواقع البطولة ! . . وهى التكأة التى يمكن أن يرتكز عليها عرش معاوية . وهى النبع الذى ترتوى منه أطماعه . وهى مجازه الوحيد للمجد حين أعوزه طويلا الفوز بغيرها من وسائل الأمجاد ! . . ليوشك عمرو أن يلبث ساعة يقلب فيها الأمور فى باله ، وهو يتدبر أساليب صاحب الشام لتستشف الخبيء خلف ندائه المدوى للدم . . أفهو صادق حقا القصاص إذن على ابن العاص حين يذكر الوالغون

فى دماء عثمان ؟ . . أم هو كاذب فدعوته لأطماعه ستار تلتق وراءه يد الباغى الواتر بيد الدعى الموتور ؟ . .

إن معاوية ليبدو كأن قد آثر طائعا أن يستمد ابن النابغة دهاءه من أجل مطامع وآراب ، ترق لها الدماء كالماء ، وينسى الثأر فلا يصبح له حساب ، ويتحالف الحسام الغاضب بالحسام المخضوب ! . . . لأمر ما يسالم الرجل واتره ، ويؤازر مهريق الدم الحرام المسفوك على الثأر من برىء . فما دور عمرو فى الفتنة بمجهول ، وما تأليبه على القتيل بغائب عن مدعى ولاية دمائه ، وما شماتته يوم أتته أخبار المصرع إلا لها بقية لا تزال تلفظها حتى اللحظة شفاه الرواة . . . ومع ذلك فابن العاص لا يستغش داعيه ، ولا يتهم التماسه المشورة لديه . إن شعورا غامض الـكنه يفىء الثقة على نفسه وهو يقلب بين أصابعه كتاب عاهل الشام . إنه لا يقرأ الغدر بين الـكلمات . لا يشك قط فى حاجة معاوية إليه ، ولا يظنه يريد استلحاقة وهو يخفى له غيلة — كلا ، فهذا بعيد . ولقد يوشك الحلف ألا يقوم بين مؤمنين بهدف ، مخلص كل منهما لصاحبه ، يتبادلان ثقة بثقة وولاء بولاء ، ولـكنه يقوم أيضا بين مربيين ، يلتقى نفعهما ، كالحال فى البيع والشراء . .

ويحدث عمرو ولديه وقد تعبد له مسرى تفـكيره :

« . . أما أنت يا عبد الله فأمرتنى بما هو خير لى فى دينى ، وأما أنت يا محمد فأمرتنى بما هو خير لى فى دنياى . . »

ثم لا يكون له فى أى الرأيين حسم إلا أن يجنه الليل . فالليل مسرح الفـكر كما هو مسرب الهوى والتآمر ! . . لـكن الجشع لا يدع له مهلة ليقدر أمره حق قدره ، ويبتغى فيه وجه الله . إن الطين فى طبيعته طغى على النور ! . قوة مطامعه غلبت إيمانه . استذله زخرف الجاه . هو نفسه لم يستطع من بعد أن ينـكر ما كان من جنوحه — هذه اللحظة — إلى متاع الحياة . كان عصيا عليه أن ينـكر ، عسيرا أن يهدأ ندمه ولما تبق بينه وبين عدالة الله إلا نفس واهن يلفظه صدره ولا يستعيده ، وخيط واه من أجله تعلق به وجوده ، وحفرة فى الأرض هى دار قراره ، وحفنة من ترابها هى كل دثاره ! . . فعندما لم يعد له أمل

إلا فى الرحمة ، وذبل بدنه كعود المشيم ، وفغر القبر فمه بعد بضع سنين قليلة ليلقاه ، بكى واستعبر ، وناجى الله :

« اللهم إنك أمرتنى فلم آتمر ، وزجرتنى فلم أزدجر . . »

فكم كان أولى له لو استشعر وخزات ضميره وكيانه ركين ، وبناؤه متين ، والعمر أمامه مديد فسيح للتوبة ! . . لكن المنى خدعته حينذاك عن آخرته ، ولمعت فى أفق حياته التماع السراب ، فانطلق مع الهوى إلى حيث لا جنى ولا ماء ! . وإنه عندئذ ليتشبث بدنياه بمثل حرص البخيل وشره المنهوم فلا يدع من كفه كتاب صاحب دمشق ، ولا يدع من باله عروضه التى اختفت وراء ألفاظه . . فإذا هو يمضى يتهيأ لرحلته وإذا هو قد ألقى بنظرة الوداع على ممتزله ، وإذا القافلة به تسير ، خلفها البيع وأمامها الشام . .

وتخب المطايا . ويترنم الحداة . وينساب الخف على الرمل الناعم انسياب الشراع . ويتأرجح الركب على الظهر فيتأرجح الفكر . . دون الهدف الذى سعى الرجل إليه مراحل تضطرب فيها الخطا كما تتضارب الشواغل . فالعاجلة شاغله ، والآجلة شاغله . المغنم والمنصب والنفوذ تصارع الحق والهدى والسلامة . وفى غمرة هذا المعترك كانت نفسه مضيعة ، لا تعرف مكانها اللازم بين القوى المصطرعة ، أإلى هذه أم هاتيك . . وإن الركب ليمضى فيهتف به أن يفيء للقرار . وإنه ليقر فينادى بالسير وإنه ليبطىء فيعجله أو يسرع فيمهله ، والرفاق حوله فى حيرة مما يبديه . .

ويهمس له غلامه وردان :

« خلطت أبا عبد الله ! . . »

فيلحاه :

« ويحك ! . . »

ولا يأبه العبد شيئا باللحى ، بل يعاود الحديث :

« أما إنك إن شئت أنبأتك بما فى نفسك . . »

« هات . . »

« اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت : على معه الآخرة فى غير دنيا ، وفى الآخرة عوض عن الدنيا ، ومعاوية معه الدنيا بغير آخرة ، وليس فى الدنيا عوض من الآخرة . فأنت واقف بينهما . . . »

عندئذ يطوف بشفتى عمرو خيال بسمة وهو يقول :

« فإنك والله ما أخطأت . فما ترى يا وردان ؟ »

« أرى أن تقيم فى بيتك ، فإن ظهر أهل الدين عشت فى عفو دينهم ، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك . . . »

فيغضى الداهية مليا يفكر . ثمة فى نصح عبده دهاء . هو أناة قد تثمر له راحة البال أو رفاهة الحال . فيه أمن من مغريات الحياة المضلة ، إلى حين ، حتى يتبين لمن الغلبة فى نهاية الصراع . . لكن ممه وحده أقف النصح ولفظته بعد ه كل جارحة فيه ، فإنما الدنيا أدنى ثمرة ، وأشهى لمن تعجل الحظوظ ! . . . وهو الآن قد جاعت نفسه بعد كل هذا الانتظار ، وشفها الظمأ إلى المجد ! . . . وهو قد هيأ لمصيره المرموق ركابه وجند أصحابه ! . . . وهو إنما يخرج مخرجه هذا ، كما يحسب أهالى فلسطين وكلهم لمعاوية رعية وظهير ، عن مروءة ونجدة ، تلبية منه لصيحة الدم ودعوة الثأر للخليفة القتيل . . . فهل إلى إحجامه سبيل ؟

ويهز رأسه فى تمهل ونفسه تحدثه :

« الآن لما شهدت العرب مسيرى إلى معاوية ؟ »

وتهتف كل جارحة فيه :

« كلا ! »

ثم يلتمع العزم فى ناظريه وهو يلقى بأمره ، صريحا صارما ، إلى غلامه :

« ارحل يا وردان . . . »

٦

عندما التقى الثعلبان تراوغا فترة . . . كان لقاء على دخل ، لم يأمن فيه أحدهما لصاحبه ، ولم يركن له . فما يستطيع حاف تقيمه الأنانية وحدها أن يربط بالثقة بين شخصين . . .

لكن مر الأيام قرب ما باعدته الريبة وراح يردم الهوة المحفورة بين وصولى فى سهم ووصولى الأمويين . وهل للمراوغة دون غيرها كانت رحلة ابن العاص ؟ وهل للتعالى والكبر كانت دعوة معاوية ؟ . أن ضغط الحوادث لينادى صاحب الشام أن يبادر الأمور بالحسم والمعاجلة . فالزمن يتسرب من بين يديه ويفر كالغمائم الرقاق فى إبان عاصفة . . . والنهز والسوانح قد تقبل ثم تدبر ثم لا تعود كرة أخرى إلى الظهور . . . وها هو عمرو عنده ، قد جاءه دون ريب لنفع ، وبذل من دينه وآخرته ، وأراق من ضميره بقدر الخطا التى قطعتها قافلته طوال طريقها من فلسطين إلى الشام ! . كلا ، لم يكن ابن العاص بالمخدوع فتغشه كلمات صاحبه التى غلفها له بطلب المشورة وبطنها بالنخوة للدم المراق ، كلا لم تغب عنه جبلته فيظاهره نصرة لحق أو يشايعه حقيقة على واتر ، بل النفع هو الذى يرسم الصلة بينهما ، ويختم بخاتمه صك الاتفاق ! . . .

ويخرج ابن العاص من التلميح بطلبته إلى التصريح السافر عندما تؤوده مداورة حليفة وتعييه :

« . . . والله يامعاوية ما أنت وعلى بعكمى بعير ! . . »

فلا تغضب العاهل هذه المجابهة، ولا ترده عن الإنصات . ويعاود عمرو الحديث :

« . . . مالك هجرته ، ولا سابقته ، ولا صحبته وجهاده ، ولا فقهه وعلمه . ووالله إن له مع ذلك حدا وجدا ، وحظا وحظوة ، وبلاء من الله حسنا . فما تجعل لى إن شايعتك على حربه وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر ؟ . . »

قال معاوية :

« حكمك . »

« مصر طعمة . »

فتلكأ حينذاك صاحب الشام . أهالته فداحة المطلب وسرفه أم غلبته الخشية على نفسه وعلى أهدافه من خبث حليفه ؟ . لكنه أغضى هنيهة عن شكوكه ، وراح يرد طمع مساومه باللين والدهاء :

« إنى أكره يا أبا عبد الله أن يتحدث العرب عنك أنك إنما دخلت فى هذا الأمر لغرض الدنيا . . »

فتجهم عمرو . وأجابه فى اقتضاب :

« دعنى عنك ! »

ثم أولاه ظهره ، ومشى ليغادر المكان .

لكن معاوية لم يتركه . إن الأطماع دربها طويل . فيه حزون ومفاوز . فيه أودية كثيرة من التيه توحش السارى وتزرع الخوف فى خياله . وفيه أيضا عوسج وشوك . . . وعندما قر فى عزم ابن أبى سفيان أن يرود هذا الطريق ويقطع مراحله لم يغب عنه أن يهيئ لنفسه المطية ، فليس من الحكمة الآن أن يدفعها إلى الشرود ! . .

وآنئذ ابتسم لصاحبه بسمة خابية ، رقيقة الشعاع كأنها من شفق أب رحيم عليم لطفله الأحمق الحرون ! . . ثم قال فى هدوء :

« . . إنى لو شئت أن أمنيك وأخدعك لفعلت . »

فثار ابن العاص :

« لا لعمر الله ! . . ما مثلى يخدع . لأنا أكيس من ذلك . . »

قال الأخير بغير مبالاة ، بعد أن ضرب الصمت بينهما برهة :

« ادن منى أسارك . . . »

وفى اهتمام ولهفة دنا عمرو . . . أقبل على صاحبه ، ولصقت أذنه بشفتيه ليسمع السر وهو يمنى نفسه بتحقيق آماله . . فإن هى إلا لحظة لما تمض حتى ندت من فمه صرخة مكتومة كأنها الفحيح تنبئ عن حنقه قبل أن تنبئ عن ألمه حين غافله صاحب الشام وعض إحدى أذنيه !

ولم يزد معاوية بعد هذا على أن قال :

« هذه خدعة ! »

وابتسم راضيا عن نجاح مكره .

لكن المداعبة لم تمنعه أن يعاود وقاره ثانية فيقول لحليفه المخدوع :

« أبا عبد الله . ألم تعلم أن مصر مثل العراق ؟ . . »

« بلى . ولكنها إنما تكون لى إذا كانت لك . وإنما تكون لك إذا غلبت علينا فى العراق . »

إن ثمة حقيقة ظاهرة ، عمادها المنطق ، يقوم عليها رأى ابن العاص . وثمة أيضا لهفة على طلبته ، ورغبة تتوثب فى حروف كلماته أن يظفر بما يريد . . . أفيكفى حنينه إلى اقتعاد أريكة النيل أن ينم عن عزمه على الانتصار لمعاوية ، ثم الإخلاص لدولته المرتجاة إذا قدر لعرشها أن يقوم ؟ . .

معاوية ما زالت بنفسه بقية من خشية ، وبقية من شك فى الثقة بهذا الحليف الذى يقاس ولاؤه بانتفاعه ، ويتنسم الهواء دائما فيدور بوجهه يشم ريح الشواء ؟ . ومع ذلك فهو أريب . أجل ، إن ابن العاص لكذلك ! . . له رأى فى الأمور ثاقب ، وله دهاء يحاور به ويطاول الأحداث إذا واجهته وضيقت عليه الحصار . ولقد أسفرت الأيام القلائل التى مكنتها يحاوره عن بعض مكر يجنه حرى أن تصلح به الأمور المضطربة ويستقيم شأنها حين يخفق العنف فى مقام الحيلة . . وهو قبل هذا أخو حرب مرس زمنا بشدتها ولفحته وقدة القتال . وعندما يذكر ماضيه لا تنسى مصر ثم لا يغيب عن بال الذاكر أنه عالج فيها سياسة النيل سلحة من عمره الطويل عرفت خلالها البلاد من حزمه ولينه واقتداره ما لا يبعد معه أن تكون له فى نواحيها شيعة باقية حتى اليوم .

على أن هذا جميعه لم يبدد غيمة الشك التى أوشكت أن تستر مزايا ابن النابغة عن ثقة داعيه . فما زالت ظلال من الريبة قائمة بنفس معاوية ، تشعره الرهبة ، ويسير منها فى ظلام من الحدس والوساوس لا يدرى إلى أين مداه . . . وكرة أخرى تؤرق العاهل هواجسه ، وتمضى به ساعات ليله بطيئة ثقيلة فى مثل وفى تأملاته الثقال . . وإنه ليرضى ساعة ، ثم يأبى ساعة ! . . وإنه ليوشك أن يبتسم ، ثم يعبس ، ويزور وما كاد يأنس ! . . فإذا أشفى به الضيق على حدوده ، والتف به الهم ، وسامته الحيرة أطلع السحر عليه عتبة أخاه . . .

ويقول له عتبة فى رفق مشير وعتب نذير :
أما ترضى أن تشترى عمرا بمصر إن هى صفت لك ؟ »
« إنما مصر كالشام . » .
« فليتك لا تغلب على الشام ! . . » .

وكذلك أذابت النصيحة تردده وهتك نذيرها الستر الذى حال قليلا بين التقاء كفه وكف عمرو على عداء الإمام ... فلم ينشب الصبح أن شهد اجتماع الرجلين يبرمان صك الاتفاق ، ويوثق كل منهما به المواثيق حتى لا يخونه خدينه .

كانت مصر هى الدارة التى هفت إليها نفس عمرو الظمآنة . وها هى اليوم فى حوزته — فى حوزته على القرطاس ! . . إنها لتلمع الآن له من بعيد ، وتنعكس على صقال مياهها صور نفوذه وسلطانه ، وتتبدى فى ذهنه ألوان الخير التى تطلعها حدائقها الزهر وحقولها الخضر حتى لتوشك أن تكون ذهبا فى لون الرمل الذى يمتد وطاء لأقدام النيل ! . . كانت معقد آماله ، ونبع أحلامه التى ما ونت منذ برحها تتهادى بخياله . . . أموى رده عنها وأموى يردها عليه . فما أعجب أن تكون ثمنا يتناوله فى نظير طلبه بدم ذلك الغريم ! .. ومع ذلك فليس يفيده اليوم أن ينتصر لعثمان وقد كان فى أمسه يسخطه ويود لو أنه اقتص منه . . لا يضيره أن يفعل ما دامت مصر سترجع إليه . كانت شاغل خاطره ، ومهوى ناظره . هى أوطاره وآرابه . . . هى واحته ، أم هى يا ترى سرابه ؟ ولكنه يسعد بالعهد على أى حال ، وتطيب نفسه وترضى ، ويمضى يشحذ من همته ما أمله كفيل بأن يردها عليه . . .

ولقيه بعد الموثق ولداه :
« ما صنعت ؟ » .
« أعطانا مصر . »
قالا له :
« وما مصر من ملك العرب ؟.. »
ولقيه ابن أخ له ، ذو أناة وبصيرة :
«ألا تخبرنى بأى رأى تعيش فى قريش ؟.. أعطيت دينك ومنيت دنيا غيرك !.»

وغضب مروان بن الحكم حين علم بما انتهت إليه المساومة فحادث نفسه وهو واجد مغيظ :

« وما بالى لا أشترى كما اشترى عمرو ! . . »

إن القوم ليلحون الرجل على ما نال . تصغر فى عيونهم الطعمة — مرة من طمع فى مزيد ومرة إذ هى ثمن بخس لدينه وآخرته . أو يصغر شأنه أخرى من حسد له فتكبر وتهول . . . أما محمد المعنى بدنياه فقد ود لو شارك أبو صاحبه فى ملكه القابل ما داما قد تحالفا على المشاركة فى الصراع . . وأما الثانى التقى عبد الله وابن الأخ الذى يرقب الله ويخاف سطواته فإنهما أنكرا عليه جشعا أنساه الحق وإنه لأحق بالاتباع . . . وأما ابن الحكم فقد أثاره أن يراه أثيرا لدى معاوية يفرض له دولته ولما تقم لها دعامة . . . ولكن ابن العاص لا يكاد يحركه شعرة عتب عاتب أو غضبة غاضب . فهذا وغيره لا يرده عن القصد وما وطن النفس عليه . وإنما يسير شوطه . السطوة منه قيد خطوة . الدنيا تلقى بمفتاحها إليه ! . . الزمن أيضا حليفه على نيران العدل وشعلة الضغينة . وها هو مروان ما يكاد تثور ثائرته حتى ينبرى له معاوية بما يترضاه :

« يا ابن العم ، إنما نشترى لك الرجال ! . . »

ومن تلك الليلة بات عمرو فى عين صاحب الشام . أصبح حارسه . أضحى درعه فى الصراع القريب . غدا ظله الذى يقتفى خطاه ... إنه لا يكتمه المشورة ، ولا يبخسه النصح حين تتأزم عليه الأحداث . إنه ينطلق أمامه حين البأس يعبد له الطريق الذى يقوده إلى المجد والسيادة . وها هو الآن ، والمداد لين على الميثاق يبادر بعونه وينثر أمام حليفه ذخره من الدهاء . . . كانت الأنباء حينذاك تقض على الأمير الطامح مضاجعه ، وتفسد رقاده وصحوه بالأخطار المتوثبة من بينها كأبالسة النار . فلا يكاد معاوية يأمن ابن النابغة ويأنس إليه حتى يستهديه :

« يا أبا عبد الله ، طرقتنا فى ليلتنا هذه ثلاثة أخبار ليس منها ورد ولا صدر ؟ . »

« وما هى ؟ . . »

« . . أن محمد بن أبى حذيفة قد كسر سجن مصر فخرج هو وأصحابه . وهو من آفات هذا الدين . . . »

فيجيبه فى هدوء وقلة اكتراث :

« ما يتعاظمك من رجل خرج فى أشباهه أن تبعث إليه خيلا تقتله أو تأتيك به . . . »

فبعث بخيل إلى مصر ، عليها مالك بن هبيرة الكندى يحاول أن يقتحم بها الحدود إلى الغريم المخوف . لكنها استعصت دونه واستغلقت كالسر . فلما أن أعياه أن ينفذ ظافر إلى الغرين ظل يكايد ويطاول حتى خرج إليه محمد فى قلة من رجاله ووفرة من غروره وإدلاله . فإذا الإعداد يغلب الاعتداد . وإذا الكثرة تطغى على الجسارة . وإذا الخيل تكر وتغير حتى تحصر محمدا بالعريش وتقضى عليه وهو على قدميه قائم ، فى بركة من دمائه ، يذود العداة . . .

« . . . وأن قيصر زحف بجماعة الروم إلى ليغلب على الشام . . »

فينصحه عمرو :

« فأهد له من وصفاء الروم ووصائفها ، وآنية الذهب والفضة ، وسله الموادعة فإنه إليها سريع . . . »

فيفعل ابن أبى سفيان . ويهدى إلى عاهل الدولة العجوز المتاخمة كنوزا من الذهب والنفائس ، ودرا من الجوارى والغلمان تلهيه عن حربه ، وتميل به إلى المهادنة ووضع السلاح فى أغماده إيثارا للسلم والسلامة . . .

« . . وأن عليا نزل الكوفة متهيئا للمسير إلينا . . . »

على ! . . .

هذه عقدة العقد يعى حلها الدهاة ممن تجرى لهم سيرة فى المكر كالأساطير ! . .

أم ترى تجدى الغارة ، أو تثمر وسائل الملق والموادعة مع الإمام ؟ . .

بل هى بيعة أو قتال ، بلا تذبذب بين طرفى القرار ... ولقد يوشك ابن العاص أن يكفى حليفه — بتدبيره — أمر ابن أبى حذيفة بمصر ويرد عنه عاديته . ولكنه لو فعل فقد أمن الخطر فيها إلى حين ثم لم يضمن من بعد أن تلين تحت قدميه جنة النيل . . . ويوشك أيضا أن يكبح عنه شرة القيصر وبنى الأصفر من ذنابه البيزنطية . ولكنه لو وسعه فقد أمن منهم حدوده الشمالية — وهم حينذاك عدو مريض مهيض ، منتفخ الإهاب مثلوم الناب ! — ثم ترك بقية الحدود والتخوم نهبا سهلا لغريم غيرهم ذى قوة وأيد ... فما هى إذن جدوى تدبيره والحال هى الحال :

أمير أمر وعامل عصاه ، والدولة هى الدولة : وحدة سياسية — إلا ولاية — فى كنف على ، وشعب مخلص — إلا فرقة — على الولاء لسلطانه الشرعى بين أهل الإسلام ؟ . .

ويتفكر الداهية . ويعبس . ويتعقد جبينه الذى غضنته أعوام عمره الطويل . . . للحظة بدا كأن قد غامت عينه وفارقها النور حتى حسب معاوية أن غفوة أطبقت على جفونه . . . للحظة تراقصت على صفحة وجهه الأسمر ظلال وأطياف حتى ظنها من دكنة لونها هوة عميقة من الظلام غرقت فيها لمة الرجاء . . . للحظة تقلصت منه شفتاه على ولائد واجنة من الألفاظ يمسكها الحذر ثم توشك أن تفلتها الحيرة . . . ولكنها لم تكن غفوة ، ولا ظلة ، ولا حيرة تلك التى اعتورت قسمات ذلك العريق فى الخديعة . إنما انساح فكره بين صفحات التاريخ القريب والبعيد يهم أن يستلهم الرأى والمشورة . وعندما آب ذهنه من الرحلة ، أضاءت التماعة عينه الخابية ، وانبسطت الراحة على غضون محياه ، وتوثبت بسمة عريضة تتراقص على شفتيه نشوانة قبل أن تند الحروف من بينهما ترسم الخدعة الجديدة .

٧

فى وهمه تراءت دولة عريضة ، ممتدة مع الأشعة التى ترسلها الشمس كل ضحوة ، ومع الظل الذى ينتشر عندما تجنح عائدة إلى عوالم المساء . . . واسعة المدى مبسوطة الأطراف حتى لتلتئم كل أهل الإسلام ، وتنتظم فى عقدها الطويل أقطاره .

وفى صحوة تراءت دويلة ، قال الناس إنها ولاية ، وقال الواقع إنها دولة فى الدولة ، نسيج وحدها بين غيرها من الولايات ، قد بكرت فى النمو وبكرت فى الانقطاع عن الوحدة السياسية التى ضمت كافة الأقاليم الإسلامية كأنما رشدت وجاوزت حد اليفاع ! . . .

ولكنه يدع عن نفسه وهمه ، فصاحبه أمامه جاثم ينتظر منه رأيا يصلح له من شدة الحقيقة ، ويهيء السبيل إلى السيطرة على الأحداث التى مضت تتزاحم حواليه . . معاوية ما زال فى لهفة من أمره ، يكاد يتلقف ذات الأنفاس التى تند عن شفتى

عمرو لعل كلمة تبدر معها فترسم الخلاص . وإن نفسه لحيرى ، وإن عينه لقلقة غاية القلق وأعتاه وهو يعد ببصره إلى مشيره الذى بدا صمته قطعة من الجمود . . .

غير أن ابن العاص ، وقد آب لتوه من رحلة ذهنه فى فيافى التاريخ ووديانه ، كان مشغولا عن صاحبه ، وعن دولة الوهم التى أقعده عرشها الباذخ ، بتأمل دولة الحقيقة التى ما فتئت تفسد عليه خيالاته . . فما معاوية فيها ؟ . . ما سلطانه المستفاد من هذه الولاية التى تتاخم الروم ؟ . . ما غاية شأوه وقصاراه لو نجح كفاحه فبقيت له إذا حالفته دنياه ؟ . . إنه لا ريب غير ذى خطر . ليس شيئاً فى عين الدولة القائمة اليوم : بيدها وحضرها ، أبيضها وأسودها مما وسمت رقعتها الممدودة بين الشروق والغروب ، وممن ضمت شعوبها الشتى من الروم إلى النوبة ومن البربر إلى الصين . . . ليس شيئاً إلا أن يقاس قدره بنظرات أهل إقليمه فإنه حينئذ شىء على أى حال . إنه فى عين شامه رب سطوة لا تستطيع النظرة الزارية تخطيه أو اقتحام مقداره هو حقا فى اعتبار السلطة الزمنية ، وفى اعتبار الرأى العام الإسلامى فى مجموعه ، وال من الولاة ، ولكنه فى اعتبار الحقائق الناطقة ليس كالولاة . فما ينكر أحد أن الرجل قد وسعه مع الزمن أن ينفذ إلى نفوس أهل إقليمه باللين والبذل وحسن الحيلة وغير هذه وتلك من وسائل تربط برباطها الوثيق بين الحاكم وبين المحكوم . . . وولايته — على هذا الاساس — يمكن أن تغدو له ردءا يحميه وجنة يتحصن بها إذا ما تأزمت عليه الأحداث . . . وأنصاره فيها — أو قل رعاياه — قد يشفى بهم حماسهم له على أن يشرعوا الأسنة حينا من الزمن ، ذودا عن سلطانه عليهم أو — فى الحق — عن إحسانه إليهم عرفانا منهم بجميله وأياديه . . .

ومع ذلك فإلى أى مدى تستطيع أن تثبت الشام ؟ أقد أخلصت له صفوف أهلها بغير فرقة بينهم ولا خلاف فيطمئن عمرو عندما يحكم تدبيره إلى أنه لا يبنى على أرض رخوة ؟ . . أكلها أموية ؟ . أتستجيب حين الجد لدعوة الصراع فتكون صدى صادقا لصيحة معاوية ، تردد عنه وتؤازره ، وتحمل وسعها حتى تقيم له الإمرة المنشودة على أنقاض إمرة الإمام ؟ . . .

لا يدع عمرو هنة فى الغابر ولا فى الحاضر إلا أحصاها ثم طاردها بالتمحيص والاستقصاء . وها هو لا يأبه شيئاً بلهفة حليفه الذى جلس أمامه ساعة كالدهر

ينتظر رأيه فى ثالث الأنباء التى هزت خاسره وزلزلت هدوءه . إنما يعضى شوطه فى الاستقراء وهو يعرض أمام باصرته مشاهد من تاريخ هذه الدويلة القريب والبعيد . إنه منه على بينة : أولئك الذين يميلون فيها إلى ابن هند هم الكثرة الغالبة إذا استمسك بحذره فى التقدير ولم يرجم الكافه ... فيها جاوروه السنين الطوال بعد أن جاوروا قبله أخاه يزيد بن أبى سفيان أميراً لهم فى عهد الصديق . . وبها انتأوا معه — عن مقر الخلافة الإسلامية — فى رياضها وغياضها المنقطعة عن مدينة الرسول بعثات من الأميال والفراسخ وعديد من الفلوات وأودية التيه . فعسى هذا النأى قد وهب معاوية نوعا من التفرد فى ربوع الشام بالحكم والسيادة دون عين ترى فتنقد فعاله أو رقيب ينقض ويحد استقلاله . . . عسى طول عهده بحكمها قد زوده بنوع من الاستقرار على سلطانها أدناه هونا من أصحاب الملك الراسخ ذوى العروش والصوالج ... عسى الجوار أيضا أورث أهلها الألفة به ، والخنوع له ، والتسليم بأن يكون عليها ماشاء وشاءت له سعوده أو ظروف أحواله .

هذه مزايا حرية بأن ترفع معاوية فى الشام إلى ذروة التفوق حين ينحصر الخلاف بينه وبين غريمه ابن أبى طالب على الشام . ولكنه تفوق لا يغمض عين عمرو عن سواه من الاعتبارات الأخرى . فما الشام إلا ولاية كالولايات . وما أهلها إلا ناس كالناس . . وفى خلال الأعوام الطويلة السالفة ، منذ أصبح فيها للعرب سلطان ، لم يكن لفرد من رجالها رأى فى اختيار الخليفة إلا بقدر ما يأتى الخبر فى اختياره فيبايعه الوالى وتبايعه على البيعة أتباعه . ما من امرىء منهم نقض أو ثار ، بل كانوا جميعا لعاملهم الصدى والظل كحال غيرهم من الأهلين فى غيرها من الأقاليم الدانية والنائية ، التى لم يكن لها فى الشورى كلمة حتى اليوم . فلم نشهد قط ، بعد حركات الردة وعصيان مانعى الزكاة خلال عهد أبى بكر ، عاملا أو مواطنا حاول أن يتمرد على البيعة التى تعقدها المدينة . أيما رجل فى القوم لم يعص ، ولم يخالف ، ولم يجل له بخاطر أن ينحرف مرة عن الطريق التى كان يرسمها دائما ذلك «المجلس النيابى» بالعاصمة ، المتمثل فى جماعة المهاجرين والأنصار . إنما كان حقا خالصا لتلك البقية من صحابة الرسول أن تختار خلفه على أمته ، وأن تقتضى المسلمين كافة فى أنحاء الدولة الوفاء لعهدها الذى أبرمته والطاعة لمختارها الذى ارتضته . . .

كان هذا حقا المدينة غير مردود دون غيرها من المدائن . ثبت فى الضمير الجماعى للذين ألفهم دينها وأظلهم علمها الموحد وإن فرقتهم الأمصار مشرقين ومغربين وتقسمتهم الأرض بين الجبل والوادى والقاع . ولقد ألف الناس الأمر حتى غدا مع الزمن عرفاً ثابتا مقررا له فى نفوسهم رسوخ التقاليد المسيطرة وقوة القانون النافذ ، وأوفوا به وامتثلوه أصدق امتثال حتى أصبحت له عندهم قداسة .

البيعة إذن أمر والرضا بها التزام . هذه حقيقة نطقت بها دائما وقائع الحال منذ كانت هناك بيعة عقدتها « ندوة المدينة » أو « مجلس الأمة » أو أيما اسم يمكن أن ندعى به تلك النخبة من حواريى محمد وصحبه الذين التأمهم مجتمع حاضرته وغدوا على تراثه خلائف وأمناء ... ابن العاص قد علم هذا وأقره ، ونزل دائما على ماتعارف عليه المهاجرون والأنصار وقضوا به لأبى بكر ، ثم لعمر ، ثم لعثمان . لكنه اليوم غيره فى أمسه ، وهو فى غده أميل إلى الزيغ والانحراف !.. كما تبدت رويدا رويدا خيوط نفعه فى آفاق الزيغ والانحراف ! . . وإنه ليتنكر للبيعة الرابعة كما لم يتنكر لما سبقها من بيعات . ويجهر بخلافه وانتقاضه على الإمام خلافا لاتغذيه إلا عاطفته وانتقاضا توجهه صوالحه الخاصة . ولئن قيل غضب الرجل لدم عثمان بعد ندمه لما سلف منه فى حقه فمن حق أى امرىء أن يغضب كما يشاء دون أن يساير انفعاله إلى المدى الذى يتجاوز به حدود العرف والقانون والمقدسات . وإن اعتذر له بأنه يفسق إمرة على فيراها موضوعة فبأى عذر يساغ سعيه لتأمير معاوية خليفة للإسلام ! . . فلقد سعى لهذا سعيه وإن توارى خلف الثأر ولبس هدفه الشخصى بغلاف زائف من المروءة . أو لا فكيف يساوم خليفه على مصر إلا أن يكون قد وضعه فى خياله ، وفى تقديره ، موضعا تكون له به السيطرة عليها وعلى غيرها من الأمصار ؟ . .

من اليوم الذى أتته فيه كلة ابن هند وهو بمتجمه ذاك فى فلسطين حزم عمرو على الخلاف أمره ، ورسمها فى باله إمرة المؤمنين يقوم عليها عاهل الشام وينسلخ منها الإمام . وما أحسبه إلا سبق بهذا التفكير معاوية نفسه الذى كان قصاراه لو أقره على إقليمه وأبقى له به السيادة القديمة . . . وإنه فى سبيل ما أضمر ليتخذ لكفاحه عدة من الدس والمكر والتآمر ويحرك فى القلوب الساذجة شغفها

بالمروءة والنخوة وولعها بالقصاص وفق شريعة الغاب ! . . إنه ليفتح أمامها باب الثارات وسيما على مصراعيه بعد أن كان الدين قد أوصده وحرم على أهله اقتحامه منذ حين . . إنه فوق هذا يبتكر فرقة جديدة يضرب بها حق بين أهل نفس إقليم صاحبه ، فالنار — في رأيه — تأكل النار والانقسام يقضى على الانقسام ! .

نظر عمرو فرأى لزاما عليه ليبلغ أربه أن يحيي من العصبية القبلية ، ومن التحزب الأعمى للأصل ، ما كاد يموت . . . كان عليما بأن الشام يمنية ، فيها ثلة كبيرة من بقايا غسان منذ استظهر الروم بهذه الفئة العربية قبل الإسلام ووطدوا لها على حدودهم ملكا يدرأ عنهم شرة الأكاسرة وغارات بدو الصحراء . وكان عليما بأن الهجرة الإسلامية بعد الفتح قد مكنت لليمنية أيضا في التفوق العددى بالإقليم وأفاءت عليهم نوعا من الشعور بأنهم غدوا أولى القوة فيه أو أنهم أوشكوا أن يعيدوا دولتهم الغابرة للحياة . . . فمنذ بعيد ، عندما كانت العرب مزقا محاولة وكان أبناء شمال الجزيرة ووسطها يعيشون معيشة قبلية خالصة ، تقدمهم إلى التكتل ، ثم الوحدة السياسية ، طوائف من قبائل الجنوب فبنت لنفسها سلطانا في دويلة هنا ودويلة هناك كما نعلم عن ممالك الغساسنة والمناذرة وكندة اليمنيين . تقدمت اليمن إذن إلى التملك ، وسبقت غيرها من العرب في مضمار الحضارة ، فلما أن أتى الدين الجديد في قريش ، وعلت به مصر . وربطت يد الحجاز بين قبائل العرب أجمعين في الجزيرة : من ولد عدنان وولد قحطان ، هفت العزة بنفس الغالب ولعبت الغيرة بنفس المغلوب . ولولا أن دعا الإسلام بين أهله بدعوة السوية لما انطمرت في قلوب أولئك وهؤلاء — حق حين — عوامل المنافسة والتفاخر وما قد تجر إليه من تناحر وشنآن . . .

لكن عمرو بن العاص لم يرد لتلك الحزازات الانطمار ! . . إن التلويح بقاعدة إسلامية في الشام تساس منها الدولة الناشئة قد يكون لمعة السراب . ولكنه على أية حال محاولة تستحق منه أن يجربها إذ هي حرية بأن تبتعث الرجاء في نفوس اليمنية وتدفعهم إلى الطموح عسى أن يستردوا فخرهم المسلوب ويعودوا إلى تسنم ذروة مقامهم السالف على هام العرب أجمعين . . ولئن كان معاوية من قريش فإن الإمرة المرقوبة له لن تقيمها إلا سيوف « جنوبية » يعرف فضلها عليه حين

يأتى حين المفاضلة بين قبيل وقبيل . وما أحراه عندئذ بأن يقدم اليمن على غيرها فتطفو بهم « غسان » القديمة من القاع ! . . وما أولاها إذن بمكان الصدارة فى ملكه دون مضر التى لن تؤدب إلا بالتخلف إلى الذيل ! . . .

كان منطق الأشياء ، وأصداء التاريخ ، ودقة الاستقراء كلها تمهد الطريق لتدبير عمرو وتقديره فلا يكاد يلمح عقبة واحدة تسد السبيل دون « المغامرة الكبرى » التى حزم عليها أمره تلك الليلة وهو يتلكأ بشوراه عن صاحبه المهموم . . . غير أنه آثر التريث قبل أن يدلى برأيه ، فما تؤمن اليمن بالهين يتنازعان ! . . وما يستطيع هو أن يحملها على الثقة به وعندها من هو بهذه الثقة أولى منه . أترى انكشفت خبايا تفكيره للإمام فتحرز له وأعد العدة التى تفسده عليه ؟ . إنه حين يجده قد بعث جريرا رسولا من لدنه إلى معاوية يكاد يؤمن بأنه فتق حجاب الغيب ولما تنفسح الأيام لتفكير مفكر ولا لتدبير متآمر . فجرير من بجيلة وبجيلة من اليمن واليمن هى التى يهم عمرو أن يتخذها عدة فى الصراع المرقوب ، الذى راح ماكرا يرسم خطوطه ، لكثرة من انتشروا من بطونها وأعجازها فى إقليم الشام . فهل يستقيم له دسه على على بين أولئك اليمنية وهم حريون بأن يكونوا أسمع لجرير وأدنى إلى الوقوف بجواره منهم إلى الانحياز لصف عمرو بن العاص ؟ . .

فليضرب إذن الرسول القادم من الكوفة ببعض أهله ! لتكن من اليمن نفسها أداته القاضية على نفوذ ابنها جرير ! . . فليطلق النار تأكل النار ! . .

وابتسم راضيا عن نفسه وقد شارف به تفكيره نهاية المطاف ، ولمعت عينه الخابية كأنها شهاب . وامتلأ بالزهو والاعتداد عطفاه وهو يلقى بسمعه فى تراخ إلى تساؤل خدينه الملهوف :

« وما ترى فى على ؟ . . »

« أرى فيه خيرا . . »

فلو أن امرءا سوى معاوية كان سامعه لهبطت هذه الكلمات القلائل بقلبه إلى مواطئه ! فما أرقها ملقا يمسح على ظهر غريمه وينشر حوله هالة مضيئة من الإجلال . . لكن سليل أمية كان أقدر على كبح شعوره أن يشى باضطرابه حتى مضى صاحبه يكمل حديثه :

« يا أبا يزيد . أتاك فى هذه البيعة خير أهل العراق ، ومن عند خير الناس فى أنفس الناس .. ودعواك أهل الشام إلى رد هذه البيعة فيه خطر شديد ! .. »

قال معاوية وهو يعالج قلقه باصطناع الهدوء :

« فما ترى يا أبا عبد الله ؟ . . »

« أرى أن رأس أهل الشام شرحبيل بن السمط الكندى ، وهو عدو لجرير . فأرسل إليه ، ووطن له ثقاتك فليفشوا فى الناس أن عليا قتل عثمان . وليكونوا أهل الرضا عند شرحبيل ، فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحب ، وإن تعلقت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشىء أبدا . . »

عندئذ استضاءت عين الداهل ، وهدأ زفيره ، وتباج وجهه المكدود وهو يهتف كالحالم :

« شرحبيل ! . . »

« عدو جرير ! . . »

ومضت الليلة وئيدة الخطا ، على جناحها كتاب وعى أقل لفظ وأدله ، اندفع به البريد من دمشق إلى الشمال حتى بلغ حمص فأودعه يد شرحبيل .

« . . . إن جرير بن عبد الله قدم علينا من عند على بن أبى طالب بامر فظيع . فأقدم . . . . . . »

وأصبح الصبح وقد اتسمت رقعة التدبير فضمت من بنى عمومة المراد بالدعوة طائفة من أسد ، وزبيد ، وطىء ، هم قادة قومهم من اليمن وقحطان ، دسوا على صاحبهم يوررون له القول ويعرهونه على ما اشتهى معاوية ، ووفق خطة ابن النابغة وتدبيره . . .

واختلف الناس فى بدء المحنة على شرحبيل ، اختلفوا عليه خلاف رأى ومشـــورة لا خلاف عداوة وعدوان ، فهو منهم الرأس وهم منه الفروع والأطراف . . . يقول له ابن غنم الأزدى :

« . . إنه قد ألقى إلينا قتل عثمان ، وأن عليا قتله . . فإن يك قتله فقد بايعه المهاجرون والأنصار وهم الحكام على الناس . وإن لم يكن قتله فعلام تصدق معاوية عليه ؟ . . »

ويقول له عياض الثمالى :

« . . . دع قول المضلل ! . . فإن ابن حرب ناصب لك خدعة . . »

لكنه فى تردده ، واستجابة منه لغل توارى بقلبه ، يأبى السمع ، ويصر على المسير إلى دمشق ليلقى معاوية فيها ، ويتلقى عنه فصل الخطاب . . . فإذا رأى ابن غنم منه تصميمه ، هتف به ناصحا يحذره مرة :

« يا شرحبيل بن السمط ! . . لا تهلك نفسك وقومك . . . »

ومغريا يحضه أخرى :

« يا شرحبيل بن السمط ! . . إن كرهت أن يذهب بحظها جرير فسر إلى على فبايعه على شامك وقومك » .

ولقد كره وإن حسب أنه تلمس وجه الحقيقة دون وحى من عدائه القديم . . وإنه ليمضى شأنه ، لا النذير يردعه ولا الإغراء يلويه . يمضى قدما إلى معاوية . . . إلى دمشق حاضرته التى موهتها الفتنة . . . إلى طغمة بها رتبت فى طريقه كنسق بيادق الشطرنج وفرسانه وعاربيه ، هيئت لها خطواتها سلفا إلى غاية مرسومة ، ووضعت فى أفواهها الألفاظ لتمجها عند اللحظة الحاسمة ترديد ببغاء ! . . ومن وراء هذا كله ، من خلف ستار ، يد معروقة تحرك الخيوط فى الظلام ، وتدفع الدمى ، إلى مصير محتوم ! . . .

١

كان الغروب منسكفيء الظلمة ، شاعت فى جنبات أفقه الدامى خطوط المساء سوداء عريضة كأنها تؤلف الإطار الحزين الذى هم أن يطوق المدينة . وكان الهدوء يعلق فى الجو كالضباب ، وينساب خلاله انسياب الظلال التى راح ينشرها الليل ، لا يكاد يشى لكثافته بما ينبيء عن العاصفة الوشيكة الوقوع التى أخذت تعتمل فى الأنفس وما بدت مقدماتها فى الطبيعة . . النسمة وانية . الشجر تفتر وتهدلت غصونه . الماء ركد فى جداوله كقطع المرايا المصقولة يستقبل الشعاع ثم يوشك لخدره وتراخيه ألا يعكس الشعاع ! .

الطمأنينة التى اكتست بها السماء ، وأغفى الجدول ، ونعس الغاب لم تلق ظلا من ظلالها على الناس . لم تعد فى دناهم رواقها الآمن . لم تلف تزغ نفوسهم بأبراد الهدوء والسكينة — على الأرض سكون ، وعلى الأوجه خداع . . .

ها هى دمشق فى أمسيتها صامتة ، وسنانة المظهر وإن كان قلبها يضج كخلية النحل ! . فشت فيها دعوة الإفك التى لفقها عمرو وملأها الطنين كغاية ما تهفو إليه مطامع حليفه معاوية . . . تواتر فيها الهمس . توالت الفرية تتبع الفرية . تزاحمت ألسن أهلها على البهتان . . .

أينما خطوت فى القصبة المفتونة التى تهيأت بحديثها الملفف لاستقبال شرحبيل ، صك سمعك اللعب بسيرة الإمام ، وقصة محنة شارك فيها — كاختلاقهم — بسيف مخضوب . . ومنظر دم حرام موهوا فيه بالزيف ولعبت ريشة أخيلتهم فى جنباته بالنقصان والزيادة . . .

لكن الطنين ، والرسم ، واصطخاب القلوب بالنقمة لم تعد كلها نفس معاوية بالطمأنينة ، لم يحس فى قرارته الراحة التى حسبها الصدى اللازم لهمسات قومه ، ولغطهم بالفتنة ، وتناديهم فيما بينهم بالقصاص . فما زال قلقه يأكل يقينه ويفرى أمانه . وما ونى أمله يضطرب به على مثل اللجة الحائرة ينشرها المد آونة ويجذبها الجزر آونة . . . هدوءه مفقود ، وقلبه مفئود . وحين تلوح له فرجة للرجاء بين تدبير مشيره لا يلبث اضطرابه أن يسدها ويبنى عليها بالطين ! . . فلعله الآن قد خشى أن يفسد دس ابن العاص فلا ينطوى له شرحبيل . . من له

بائتلاف اليمنية معه على غريمه وإنهم لشيع بعدد البطون والقبائل وبقدر المشارب والأهواء؟ . . أيستطيع أن يأمن منهم بدواتهم وهم لجرير ذيول؟ .

كلما أوغل المساء حمل من قتامه إلى دخيلة نفس ابن أبي سفيان ، وعفى على أحلامه المونقة بظلاله . . الآن حقاً في حوزته الشام ، ملك عينه وإحسانه ، ولكن أمرها في غد في يد الغيب . . . هى أموية ، والته عشرين حجة طويلة ، وحرية بأن تواليه بعدها عشرين لو بقيت حالها كأمس وأمهل له الأجل في الحياة . غير أنها — بعد أيام ، عندما تتفاعل الدسيسة التى دبرها ابن العاص — سيغدو مصيرها معلقاً بخيط ، بكلمة قد تفلت من هذا الفم أو من تلك الشفاه ، فإذا أمرها ينتهى إلى غير رجعة ، وأمله يذهب مع الريح ! .

وحد هونا من اضطرابه ، ورد من ثائرة خيالاته . إن القلق ليلعب بنفسه ، وما يحسن بالسياسى الأريب أن يعطل العقل ، ويعمل بأعصابه . . لم يعد يؤمن اليوم بالنتائج التى حدسها عمرو وإن كان ليؤمن بالمقدمات بعض إيمان . وهل ذلك التدبير إلا مغامرة؟ . . وهل النجاح إلا صنو الفشل فى أمثالها من المغامرات؟ . . . إن كاد ليقنع بجلوسه ينتظر ما تنجلى عنه التجربة لو علم أن شامه باقية له خاب تقدير مشيره للخواتيم أو أصاب . ولكنه هو وحده محور التجربة : المادة التى تنصهر على نار الانتظار . فما مآله لو لم تخلف التجربة فى البوتقة إلا رماداً أو ما هو أتفه من الرماد؟ . .

أليق إذن بطبعه ألا يدع مصيره ومصير إقليمه فى يد نتيجة مجهولة تسفر عنها أحابيل عمرو . ليس هو بالذى يكل شأنه للمصادفات ، أو لرجل كشرحبيل تلعب بنفسه جمحات عاطفته فلا يؤمن جنوحه ألى يمين أم إلى يسار ، أو لحفنة من رءوس اليمن قد تضطرب ميولهم بينهم فلا تتفق كلمتهم على قرار . ليس هو بالذى يبيع ما فى يديه ليشترى سلعة خبيئة لما يطلعها الغيب . . . إنما من حق أهدافه عليه أن يستبقى الجسر الذى يربطه بماضيه لا يهدمه لعله يكون مجازه — حين محنة — إلى ضفة الأمان ! . .

وهدأ جأشه لهذه الحيطة الواجبة منه ، فانطلق من لحظته ، الليل وطاؤه والخفة رداؤه . . . فلما أن جنته دار رسول الإمام ، ألقى العبء الذى أثقله خلال انفراده بأفكاره :

« يا جرير ، إنى قد رأيت رأيا . . »

فانبسطت أسارير الرجل الذى برح الكوفة ، وقطع من الفلاة شوطاً ومن الزمن سلخة فى سبيل الوفاق :

« هاته يا أبا يزيد »

« اكتب إلى صاحبك يجعل لى الشام ، ومصر جباية — »

« وتبايع ؟ »

« فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة فى عنق . وأسلم له هذا الأمر . وأكتب إليه بالخلافة . . . »

فتفكر جرير . . . ما عليه لو فعل ، عسى الله أن يرأب الصدع ويحقق الجماعة ؟ . .

قال :

« اكتب بما أردت ، وأكتب معك . . »

فلو أن هذا الرسول احتذى حقاً نهج سيده الذى إليه أرشده لما خط كلمة واحدة فى كتاب ابن أبى سفيان ، ولما ارتضى منه هذه المساومة . إنما بعثه على لبيعة غير مشروطة يقتضي معاوية إياها ويقتضيه معها إمرة الشام : التسليم وحده كان مجاز الأمير المشاق إلى رضاء الإمام عنه ، والوسيلة إلى الإبقاء على وحدة الأمة بلا انقسام . . . لكن جريرا جاوز حدوده ، وتحيف على أمانة الأداء المفروضة فى كل رسول ، فنضح بما فى نفسه بفعله ، وتبدى لنا كرة أخرى — كيدئه قبل تركه الكوفة إلى دمشق — فردا من أولئك الذين يلوون الحق ليلائم الهوى وفرقته كأنما حسبوهما يجتمعان . . .

أفتصدق عليه إذن كلمة الأشتر : « إنى لأظن هواه هواهم » فهو خائن بهذا التقدير ؟ . . إن المرء ليوشك أن يساير الشك فيؤثم الرجل ، ثم يوشك أن يحسن الظن به فإذا به هو مخدوع . ولكننا على الحالين نرى علياً صاحب المبدأ الأمثل الذى لا ينحرف قيد شعرة مع الباطل وإن جاءه الانحراف بالدنيا جميعها مسومة تناديه أن تكون متنة ! . . ونراه كذلك رجل السياسة الذى يجد المساومة آفة تأكل من هيبته كما تضعف مثله وتقوض خططه التى جعلها أعمدة

دولته . فما من امرئ يعلمه هاود بعد طول تمسك وإصرار إلا أيقن أنه أضعف الفريقين غلبه الحق على عناده . وإنه إذن لحرى بأن يكون ألعوبة فى أيدى عماله يجبلون طينته على الشاكلة التى توائم هوامهم ، متهافت القدر فى عيون شعبه فلا يؤمن فرد واحد بأهدافه . . .

خدع جرير أو خان فالإمام ثابت فى مكانه ، رسخت قدمه على عزمه ، وصحت نيته على انتهاج المحجة المستقيمة بغير زيغ ولا انحراف فليس هو بالذى يساوم الباطل أو يهادنه . وليس هو بمن يفتله زخرف أخدوعة ! . . العقدة لا يحلها أن يدعها بل أن يقطعها ! . والحية إن بتر منها ذيلها ثم أطلقها فلن يكف عن اللدغ نابها السام ! . . .

ولذلك كان جوابه إلى جرير يكشف عن حيلة معاوية ويهتك سترها المموه بزيف الرغبة فى الخضوع والطاعة :

« . . . إنما أراد معاوية ألا يكون لى فى عنقه بيعة ، وأن يختار من أمره ما أحب . وأراد أن يريثك حتى يذوق أهل الشام . . . »

لقد صدق حقا حدسه فى البدء والنهاية ، فإنما رحلة الكتاب وأوب الجواب مهلة مطوطة يقرت لمعاوية عن دخيلة عنية إقليمية ورأسهم شرحبيل فهذه دمشق تحتوى الرجل بعد أن تخمرت بالدسيسة ! . وها هو يبيت فيها كمن فى خلية ، ملأت أذنيه بالأزيز والطنين . . وها هى استقبلته كاستقبالها الغزاة المظفرين ، يلسب حديث صنائع أميرها بإعانه ويسح ثناؤهم على غروره ! . وعندما تفتح له أبواب القصر يمشى فيه كأنه متبوع ، يوشك معاوية أن يسير بين يديه من خضوعه ! . .

ويفرغ الرجلان من بعد الخلوة ، يقبل معاوية على زائره خلالها فى استحياء العذراء :

« يا شرحبيل . إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة على . وعلى خير الناس لولا أنه قتل عثمان . . »

فيتفكر سيد اليمن هنيهة وهو مشغول . هذه نفس الصورة التى شهدها طوال طريقه بالحاضرة الأموية حتى بلغ دار الأمير . ذات الطنين . ذات الخلية المضطربة

بالوسوسة والأزيز . . يا ترى هذا كله كلة مصنوعة وزعت على الألسن ووضعت في الأفواه ؟ . . أتلفيق ؟ . . أتواطؤ على مكيدة ؟ . . هو يخشى أن يكون رأيه ملهاة لقوم يزيغون به مع هواهم ويخطون به مجراه . لكنه يكبح نفسه أن تنساق وإن آمن في ضميره باستحالة إجماع كل من قابلهم على ضلالة . وإنه إذن ليتحرز فلا يتعجل بحكمه ، فإنما الخير في الحيطة .

ويبدى الريث في تساؤله :

« رأيك ؟ »

فإذا معاوية لا يجيبه إلا بما يتملق اعتداده بمقداره بين الناس :

« . . إنى قد حبست نفسى عليك وإنما أنا رجل من أهل الشام ، أرضى ما رضوا وأكره ما كرهوا . . »

عندئذ يطمئن خاطر شرحبيل وتهدأ وساوسه . فما هذا حديث مولع بفتنة كما حدث ابن غنم ، ولا بخدعة مضلل كما ظن ابن عياض . بل هو قول من يحب أن يتلمس الحق حيثما كان ، فيصدر في رأيه عن شعور أهل إقليمه ، وفي فعله عما يحملونه عليه . . .

ونهض شرحبيل راضيا وهو يقول :

« أخرج فأنظر . . »

وحسب بهذا أنه بلغ ذروة التحرز وطلب الحق الخالص في مآويه !

٢

كرة أخرى احتوته الخلية ! . . الآن أرفع أزيزا حتى بلغت الهمهمة مثل عواء العاصفة في الغاب . الرياح نفسها راحت تحمل الثورة على الإمام . . قطر المطر على دروب عاصمة الشام كان له مثل قرع الطبول الداعية للحرب . . ليالى الشتاء الحالكة كانت مرآة تعكس العواطف الحزينة التى فاضت بها القلوب أسى لعثمان . .

أينما مضى الرجل يستطلع نبتت ألسنة في مسارب قدميه تناديه للقصاص . ضاقت السبل عليه بمن وطأهم له معاوية ومشيره . ملأ النحل عليه هدأة الفضاء ! .

إن جرسهم جميعا واحد ، بغير تفاوت فى الرنين كأنما صدر من ذات الناقوس ! .
سحنهم كلها واحدة قلبها الغضب وبدت فيها تكشيرة الذئاب ! . . تلويحهم أيضا
واحد ، تقبضت به الأصابع تتوعد كأنها تشد على حسام مسنون ! . .

وفرت الحيطة موليه أمام هذه المظاهر الناقمة ، فهاج شرحبيل :

« يا معاوية ! . . أبى الناس إلا أن عليا قتل عثمان . ووالله لئن بايعت له
لنخرجنك من الشام أو — لنقتلنك ! . . »

فكتم الحاكم المجدود غبطته بغفلة حليفه الجديد ، وقال وهو يبدى التسليم :

« ما كنت لأخالف عليكم . وما أنا إلا رجل من أهل الشام . . »

« فرد هذا الرجل على صاحبه إذن . . »

إن بارقة واحدة للحق تبلجت هنيهة فى ذهن شرحبيل وكاد يستضىء بها
ضميره ذات ليلة أراد أن يدل فيها على جرير بسلطانه بين قومه من رجال الجنوب .
فما نراه بعد لقائه معاوية ذاك إلا أن ملكت نفسه الشماتة ، واستبدت به رغبته
فى التشفى علاجا لغله ، فمضى يقرع رسول الإمام وهو يحرص على أن يملأ حديثه له
بغمزات سخريته وازدرائه :

« . . . أتيتنا بأمر ملفق لتلقينا فى لهوات الأسد ؟ . . وأطرأت عليا وهو
قاتل عثمان . . . »

فجبهه جرير :

« . . والله ما فى يديك من ذلك إلا القذف بالغيب من مكان بعيد ! . . »

واحتدم بين الرجلين حوار أحسب كلا منهما كان يدافع عن قدره قبل
دفاعه عن أهداف صاحبه . ولكنه حدل بذر الشك فى نفس شرحبيل ، وذكره
ما أضمر بين الحقد على منافسه وما أخوى من كلفه بجاه النفوذ . . وإنه لتلعب به
الريبة فلا يدرى أين يضع تأييده حتى يسمع من ابن أخت له شعرا لو ترك معه
وشأنه لكان حربا على معاوية ولكن داهل الشام كان أنفذ بصيرة ،
وأسرع إلى معالجته عن التزام جانب النصفة فإذا الصنائع تفتله ثانية ، وتتهم
عنده عليا بدم عثمان ، وتقيم البينات والحجج على ما ادعته : كتبا مختلقة وشهادة
زور ! . . وعندئذ يحمق ويعود عناده حتى لود لو اقتضى ابن أخته ما يجعله
أمثولة :

« هذا بعيث الشيطان ! .. والله لأسيرن صاحب هذا الشعر أو ليفوتنى .. »
ورين على بارقة الحق فى ذهنه بظلمة الضلال . وباع نفسه للباطل . . وكتب على الأمة الفرقة . . .

وإذ أوشك أن يبرح دمشق حج ثانية إلى كعبته : قصر الأمير المغامر ، يعاقده على ما انتهى إليه تفكيره :

« . . . أنت عامل أمير المؤمنين عثمان ، وابن عمه ، ونحن المؤمنون ، فإن كنت رجلا تجاهد عليا وقتلة عثمان حتى ندرك ثأرنا أو تفنى أرواحنا استعملناك علينا ، وإلا عزلناك واستعملنا غيرك ممن نريد ثم جاهدنا معه حتى ندرك بدم عثمان أو نهلك . . . »

فهلّ لغير هذا سعى معاوية حتى يتردد لحظة فى اعتناق ما عرضه شرحبيل ؟.
إنه قد غامر وأفلحت مغامرته بعض فلاح ، ودبر وكاد يجدى عليه تدبيره ، وعندما يمضى شرحبيل عنه إلى منازله ، وإلى مأوى قومه ، وإلى بطون من قبائلهم وأفخاذ تؤلف الكثرة الغالبة من أهل الشام ، فحينئذ سيسرى هناك رأيه كالعدوى ، فتطيب به عزتهم ، وتصبح طرية دانية تنتظر آن القطاف ! . .

ومع ذلك فلم يقطع صاحب الشام برأى فى وفادة جرير حين كر عليه يستحثه البيعة ، ويستفيئه الدخول فى الجماعة . فلقد أبطأ حتى لم يعد بعد هذا مجال لإبطاء ، ومضت به الأيام والأشهر وهو يستمهل رسول الإمام عسى أن تتفاعل دسيسة عمرو فيتعرف خبيئة أهل إقليمه ، ويذوق طعم دخيلتهم المغشوشة ! . .
وإذا كان شرحبيل قد سره هونا ، وزوده من تأييده بأدسم زاد ، إلا أنه ما زال يؤثر التريث حتى يجيئه الغد باليمنية كلهم ظهيرا وتكأة . . . وإنه ليجلس الآن ، فى قلبه ثقة ، وعلى وجهه مثل صمت الجلمود ، يستمع إلى جرير وهو يتلو عليه آخر ما وصله من الإمام :

« . . . أما بعد . فإذا أتاك كتابى هذا فاحمل معاوية على الفصل ، وخذه بالأمر الجزم . ثم خيره بين حرب مجلية ، أو سلم مخطية ، فإن اختار الحرب فانبذ له ، وإن اختار السلم فخذ بيعته . . . »

فلو أن بينه وبين محدثه حجابا ساترا لحركت حروف الكتاب من قسماته ما ينبئ عن انفعاله وهو آمن أن تراه اللحاظ الناقدة والعيون الرقيبة . ولكنه راض عاطفته على البقاء فى قرارة جليدية ، تنطفئ فيها جذوة قلقه واضطرابه . بل قد حبس لسانه فى حلقه لا يحركه ، حتى ليحسب مشاهده أن كل جوارحه همدت فيها حركة الحياة إلا سمعه المرهف لبقية الحديث ! . .

وراح فى سكونه يعد أذنه الصاغية لوعيد جرير ، ولكنه كان إنصات المشغول بأمر بعيد . دونه فسح من الزمن وأشواط من المسافة . . فإلى الشمال قد مضى خاطره — إلى منازل شرحبيل — إلى حمص التى لا بد قد وصلها رأس الجنية الآن ومضى فيها يعدى الناس بنفسه المريضة ! . . وإن قلبه ليتبع داعيته الجديد هناك . وإن عينه لتتأثر خطاه أينما مضت به القدم فتتعلق منه بكتابه الذى لاريب قد تلقاه . . لقد كان لا بد لإتمام الخطة ألا يقبع شرحبيل بمستقره ، قانعا بسخط الإمام وغضبه عليه . بل أن يسير بنقمته تلك يذرع الإقليم ، ويغرس نواتها فى أيما رجل كانت نفسه تربة صالحة لاستنبات الفتنة . . . وما كان أيسر هذا على معاوية وقد ضمن ميل شرحبيل إليه . ثم رسم له النهج الذى أراد بكتاب منه لحق به غب مبارحته دمشق ، يقول فيه :

« . إن هذا الأمر الذى قد عرفته لا يتم إلا برضا العامة . فسر فى مدائن الشام ، وناد فيهم بأن عليا قتل عثمان ، وأنه يجب على المسلمين أن يطالبوا بدمه » .

ورد معاوية عن متابعة رحلة الخاطر أن صك سمعه ختام الحديث الذى كان قد ساقه جرير :

« . . . أراك قد وقفت بين الحق والباطل كأنك تنتظر شيئا فى يدى غيرك ! . . »

فرفع برهة عينا تائهة إلى محيا الرسول ، ثم حمل لسانه على الجواب :

« ألقاك بالفيصل أول مجلس إن شاء الله » .

غير أن ذلك المجلس لم يتح له أن يكون إلا بعد أن مضى داعية الباطل وخطة عاهله ، يغير النفوس ، ويثير الثائرة ، ويؤلب الناس . ولقد يكون من حق الواقع الإقرار هنا بتلك المعارضة التى صادفها شرحبيل ، ولكنها مع ذلك معارضة

سلبية ، لم تجد لها صدى فى نفوس العامة الذين تتألف منهم كثرة أهل الشام .
كانت حيدة التزمتها طائفة من نساك حمص ، ممن صفت قلوبهم لله وأبت الزيغ فلم يصغوا للدعوة . ومع ذلك فلم يؤثر تقاعدهم شيئا فى همة الداعية المفتون ، بل راح ينفث سمومه حتى لم تبق فى الشام مدينة إلا استجابت له وقد سمعته يقول :

« . . . إن عليا قتل عثمان بن عفان ، وقد غضب له قوم فقتلهم ، وهزم الجمع ، وغلب على الأرض . . . وهو واضع سيفه على عاتقه ثم خائض به غمار الموت حتى يأتيكم . . . ولا نجد أحدا أقوى على قتاله من معاوية . فجدوا ، وانهضوا . . . »

فلعل هذا النجاح قد أغراه باهتبال غيره أبلغ ، تكون له المنة به على صاحبه والحظوة لديه عندما يستقيم أمره على غاية ما يشتهيه . فما إن فرغ من رحلاته فى بلدان الإقليم ، ورأى تبشيره قد أتى بثمره ، حتى راح يقلب كتاب معاوية فى كفه وهو آخذ عليه ما بدا فيه من قناعة ومطلب يسير ؟ . . أفيكتفى الآن بالإمرة ؟ . . ألا تتطلع عينه لما هو أعلى من مكانته ! . . أضاقت دنياه إلا عن الشام ؟ . .

وهتف الداعية لنفسه :

« هذه سقطة ! . . »

ثم قام من فوره يكتب إلى أميره

« . . . إنك أخطأت خطأ عظيما حين كتبت إلى أن أبايع لك بالإمرة . . قد بايعت ومن قبلى لك بالخلافة ! . . »

وقد فعل .

وسافر البريد إلى دمشق بالكتاب والأخبار .

عندئذ آن لمجلس معاوية أن يكون ، فقد ذاق أهل الشام ، وطعم من حلوهم ما لم تطلمه قط أحلامه ! وإذا به يمد يده إلى رسول الإمام بالرد الذى طال عليه الانتظار ، ثم يقول فى خيلاء :

« ياجرير ، الحق بصاحبك ! . . »

٣

أين هدأة الطمأنينة؟ .. أين سكينة الوفاق والوحدة ؟.. أين منهم ، جميعاً ، السلام ؟ . . خياله كان وهم أفئدة خشيت الفرقة أن تمزق الأمة وتعيدها ثانية قبائل محاولة كبدئها الواهن فى صحارى الجزيرة . حديثه كان أمنية وحلم حالم . . أما الآن فما للسيوف تؤثر العرى ؟ . . إنها تهيأت تنضو القرب وتخلع الأغماد . الحراب شحذت والسهام ريشت . الرماح أتلعت الجيد فى الفضاء وشدت القوام ، يكاد صقالها يخطف البصر وسنانها يقطف الهام ! .

اليوم لا سلام ! . . حق الـكوفة للصابرة لا كت الحرب . الصمت آدها وأعياها . الركود الذى ارتضته فى الله لم يعد له فى أعضائها مسرى بعد إذ لقيت دعوتها إلى الاتحاد العنت والجحود والترفع . . ليس فيها اليوم من يستطيع رد نفسه عن لقاء عدوها العاصى بما يغرى ادعاءه ، ويقمع طمعه ، ويقمأ خيلاءه . كل أهلها الآن غاضب ثائر ، تمردت كبرياؤه على صبره . .

وكان الإمام لا ريب أولى امرئ فيها بأن يثور كصحبه ويصبح لهم فى غضبهم طليعة . ذاق من الشام مرها وعلقمها . طعم من تمرد أميرها الصاب . لـكن طبعه جنبه الدفعة ، وأبت عليه حكمته أن يلى لحنقه أو يفسح السبيل لعواطف قومه فتطغى على أناته . وإنه ليـكبح منهـا الجماح ويمسك عنانهم أن يتفلت من كفه فيلقاهم بالملاينة كلما تلاسبت نواظرهم لتلبث جرير وشدوا على سيوفهم وقربوا الخيل وصكوا الأنياب :

« . . وقت لرسولى وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعا أو عاصيا » .

وما كان يريثهم رهبة ، إنما رغبة فى استنفاد كل معذرة قد يسوقها غريمه ، وفى إنفاذ كل حجة إليه ، ثم ينتضى بعد هذا حسامه ! . . . أما الآن فقد مضى وقت الإعذار إلى غير رجعة . فشلت المصابرة ، ونبذت الحجة المؤزرة . . عاد أخيرا جرير ، وها هى الأرض توشك أن تميد به ، أمن قلق أم من خيبة ؟ . . وهذا حديثه يترنح به . . . وتلك ملامحه عليها غبرة ، أو صمة عاص أو سمة مخدوع ؟ . . .

ويقبل الإمام بسمعه ، ثم يغضى بعقله عن كلمات رسوله التى جابها معه من الشمال كأنما لقنها من لسان عاملها وقومه العصاة . . يغضى عن أسلوب الوعيد ، وقصة مئات المئات من ذوى الخيـــل والأسنة المتمرسة بالحروب ، ونبأ الخطر المنبثق من اجتماعهم على التنادى بالثأر انبثاق سيل الطوفان ! . . فأما مكابرة معاوية فلا يغض عنها جنانه — مكابرته التى حملها جرير من دمشق فى كتاب ، أديمه زيف ، ومداده افتراء . . .

يقرأ سطور الإفك المنقوشة أمامه وهو آسف حزين لما انحدر إليه ضمير ابن هند ووجدانه :

« . . . لعمرى لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت برىء من دم عثمان كنت كأبى بكر وعمر وعثمان . . . ولكن أغريت بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف . . . وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان . فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين . . . »

فما كان أعجبها فرية لا تكاد تلزم عليا تحمل دم القتيل ، وإن ألب وخذل وشرك فيه ، تتهافت وتتهاوى ، على بها قاتل برىء ! . .

وتتهم العقل ، لاريب ، إن أقدمنا على فحصها تحت مجهر المنطق ، أو رددنا أسنادها إلى وقائع التاريخ . . لكننا نؤثر التخلى عن الجدل فيما لا يجدى فيه . ونحاول أن نلم بهذه الآونة التى أشرعت فيها الأسنة تستعد للتشابك فلا نراها إلا فترة من حرب لفظية سبقت حرب الحديد والنار . كل فريق أخذ اليوم فى الإعداد ، وجذب الأنصار ، وجمع الكتائب المكتبة تقيم له أهدافه فوق دعامة من الجماجم ! . وما نريد بهذا أن نرمى الإمام بالظمأ للدم ، إنما نراه — وقد غلب على صبره — لم يجد معدى عن لقاء خصمه ببعض الأسلحة التى اختارها للصراع ؛ وكان من بينها سلاح المحاجة والمكايدة والتبشير . .

غير أننا لا نستطيع هنا أن نغمط معاويه حقه من التفوق فى هذا الميدان . لقد كان أملك لأدواته من على ، أقدر على العمل بها قاطعة حديدة لأنه رجل لم يرده وازع عن التماس أى أسلوب فى حربه الباردة ، مشروعا كان أو غير مشروع . لم ير حرجا فى الدس ، ولا فى الغدر ، ولا فى الادعاء بالباطل ماوصلت به طرائقه

الملتويه إلى مطمن قاتل فى غريمه . كان همه أن يفوز وإن وطئت قدمه الملوثة قدس الحق وقيم الأخلاق . كل حرمة مباحة ، وكل ضلالة حلال . الحق باطل ما عارضه ، والزيف حق ما أيده ، فهو بما اجتمع له وزودته به خصاله وشيمه صاحب اليد العليا فى حرب القلم وحرب اللسان . .

وكانت الخطة التى اتبعها على ها هنا دفاعية ، تماما كأختها التى التزمها من قبل ومن بعد فى القتال . فما عرف عنه قط أنه هاجم ليكون بادئا بعدوان ، بل « الرد » كان أسلوبه . الرد ليبصر ، أو يدفع تهمة ، أو يقمع فتنة عدت على حقه الذى هو حق الأمة التى نصبته حارسا عليها يذود عنها الدواهى الداهمة والعوادى المغيرة . . . فلا عجب أن يكون خصمه فى ميدان المكايدة « أخف حركة » منه ، يبدأ حين يشاء ، ويختار من جنبات الحلبة ما شاء . وأن يكون « حر الكف » يتناول السلاح الذى يوائم طباعه وليس عليه من ضميره رقيب يزعه عن فعال تسيل لأشباهها بالندم ضمائر الأحرار ! . .

لم يكن الرجلان إذن فى مجال هذا الصراع اللفظى على مكانة سواء . رجحت كفة العادى وشالت كفة المفترى عليه . تباينت الأسلحة ، فهى فى يد على محدودة وفى يدى خصمه وفيرة عديدة جمعت كافة الصنوف والأنواع . تعددت ميادين المحاجة والتبشير أمام معاوية وضاقت حلقتها على الإمام — إلا ما أقره منها الدين وارتضته المثل الإنسانية الرفيعة . بل الغرائز البشرية فى صورها الشائهة لمعاوية ظهير إذ هو امرؤ أجاز لنفسه تسويد المادة على كرائم الأخلاق .

تحت هذه الأضواء التى تشعها أدوات الصراع يمكن فى يسر فهم التفوق الظاهرى الذى حازه ابن هند حتى علت به يده فوق كف غريمه . وإنه لتفوق ترفعت عنه شيم الإمام وسجاياه وهو غير عاجز عن حيازة مثيله . إنما قد أباه وهو عالم أنه بإبائه هذا مغبون . فلقد آثر ألا يعد دينه ومثله السامية سماطا تطعم منه أهواء اللئام فتشبع البطون وتجوع الأرواح . ولقد رضى باللحى يبذله به الجاهل العائب ، والشانئ الثالب وإنه لعارف أن تفوق خصمه تفوق غدرة لا تفوق قدرة ... وها هو يكشف لنا عن حقيقة الحال فى النزال الذى لم تتكافأ فيه القوى المتنافرة فى الجانبين ، عندما يقول :

« والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس . . . »

فالقياس هنا بين قدرتين : إرجاف بالباطل ، وتحيف على أصول المقارنة ، ومجانبة الإنصاف . وهو كمثل صرك الماء فى ثوب ، وحصرك الشماع فى قبضة ! . فأما العائب الزارى الذى أضله هواه فرفع معاوية درجة فى مراتب الدهاء ، وقرر ذكاءه . ووفر له من مقومات الحنكة السياسية ما شاء ، فهلم فليقدم ليكشف لنا متى جرد الداهية من باطله ماعجز حتى الإمام عن الثبات له ثم فشل من بعد دون دحره واستذلاله ! . . .

جيش عاهل الشام من مكره وأخاديعه الكتائب التى تعمل له ، وفرق منها فى الميادين الإسلامية . . . فى مكة والمدينة بث دعاته . وفى أرض النيل . وفى إقليمه هو الذى كان حريا به أن يطمئن لولائه ، بل فى الكوفة أيضا نشطت له فرقة من العيون والجواسيس ... وكان يعلم أن أفيل أسلحته هو ما هاجم به عليا فى إمامته ، ونال من شرعية البيعة التى غدت له فى عنق الناس فلم يأله تنقصا وتجريحاً ، ولا ونى عن معاجلته باللمزة تتبع اللمزة ، والهمزة تردف الهمزة ، تكاد تتفق فى معانيها وإن تباينت فيها الحروف والألفاظ . . كان يفترى ، ثم يعاود الفرية ، ثم يكرر المعاودة ما وسعه أن يكرر عسى أن يقر افتراؤه فى نفوس صحبه يقينا ، أو يثبت الريبة فى نفوس أعدائه فينحدر بهم تيار الشكوك إلى دركه ومهواه . وإنه بهذا الرابح على أى حال ما دام مستطيعا أن يخفى عن الناس الجوانب التى لا تظاهره ويبدى كل ما عداها : ما يتنقص من سمعة الإمام . . .

ولم يكن كتابه الذى احتمله جرير أول ما نطق بكذب ، ولا آخر ما أتى ببهتان . . . إنك لتكاد تعد من أمثاله ما يعيى الحصر ثم توشك لو شئت أن تختزلها جميعها فى واحد يغنيك لبابه عن الكثرة الوفيرة . ولكنك لن تجده قط انبرى بإفكه إلا انبرى له على بحقه ، فيه دحض وحجة وإفحام . فهذه الحرب اللفظية التى شنها لقيت أمامها الكفء القادر على أن يحيلها سجالا لا ترجح فيها كفة العادى إلا بقدر ما يتهيأ خصمه لرث العدوان ، ولو أن عليا صمت فلم يجب على تلك الكتب المبطلة لما نال صمته من قدره فى نفس أى امرىء يتحرى

النصفة ، ولكنه كان عارفا بطبائع الناس ، عالما أن السكوت قد يساء فهمه عند العامة الذين تستهويهم مظاهر الأشياء فيرون الحسر فى الصمت ، والكف عن الجواب توأم الحرج والاعتراف بالهزيمة . لذلك لم يغض الإمام قط عن فرية ساقها معاوية ، ولا عن كتاب هاء الرجل أن يزخرفه بزيفه وأباطيله ، ولعل اجتزاءنا ببعض رده على ما احتمله جرير فيه غناء عن الإطناب وسوق الأمثال .

كتب عند ذاك إلى العاهل المتمرد يقول :

« . . . أتانى كتاب امرئ ليس له نظر يهديه ، ولا قائد يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ، وقاده فاتبعه . . .

زعمت أنه أفسد عليك بيعتى خطيئتى فى عثمان ، ولعمرى ما كنت إلا رجلا من المهاجرين ، أوردت كما أوردوا ، وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على ضلالة ، ولا ليضربهم بالعمى . وما أمرت فيلزمنى خطيئة الآمر ، ولا قتلت فيجب على القصاص . . .

وأما قولك : ادفع إلينا قتلة عثمان ، فما أنت وعثمان ؟ . . إنما أنت رجل من بنى أمية ، وبنو عثمان أولى بذلك منك ! . . فإن زعمت أنك أقوى على دم أبيهم منهم ، فادخل فى طاعتى ثم حاكم القوم إلى أحملك وإياهم على المحجة . . .

. . . إنها بيعة عامة ، لا يثنى فيها النظر ، ولا يستأنف الخيار . . . »

وإذ كانت العرب فى جملتها أمة « سامعة » قبل أن تكون قارئة ، فقد استغل الفريقان منها هذه الصفة فحرص كل فريق على أن تصل دعوته إلى السمع تصكه وتغزوه . . . لذلك تراميا — فيما تراميا به من أدوات هذه الحرب السلبية — بالنظم يزجونه ، كل إلى غريمه ليهز تحته مواطئه . فللشعر مدخل إلى النفوس قد يستغلق دون غيره من فنون البلاغة ، وله ذيوع يشق على ما سواه من صنوف الكلام . إنه صحف العرب السيارة التى تخلق الرأى العام أو تصوغه وتجيله . له مسرى على أجنحة الريح ، مع الظاعن الراجل والفارس الراحل . . . الرواة يتناقلونه ، والحداة يترنمون به ، حتى يبلغ الحضر كبلوغه الوبر ، وحتى يقتحم الكوخ كاقتحامه القصر ، والندى كالحدر . . .

ترامى الفريقان بالشعر خطير المرمى بعيد الغاية ، يستعدى الناصر ويجذب

المعين ، فإذا هذه الحقبة كالتربة الخصيبة ، أطلعت نفرا وفرا من شعراء السياسة ، يدعون بدعوة الكوفة أو الشام ، ويتأنقون في إبراز القضية التي يظاهرونها بمنطق القصيد الذي يستهوى السمع والعاطفة ، حشوه الحجة والبرهان . . . يحدثنا بعض شعر من تخيرهم معاووية لنصرة أهدافه . في مجال التعريض بعقيدة رجال الإمام :

وقالوا : على إمام لنـــا   فقلنا : رضينا ابن هند ، رضينا
وما في على لمستعتب   مقال سوى ضمه المحدثينا
وإيثاره اليوم أهل الذنوب ،   ورفع القصاص عن القاتلينا

فما يكاد شعره يصل الكوفة حتى يكون له صدى : شعر آخر يجاوبه ، ويتردد في غياض دمشق ورياضها :

« . . أتاكم على بأهل الحجاز   وأهل العراق ، فما تصنعونا ؟
يرون الطعان خلال العجاج   وضرب الفوارس في النقع دينا
جعلتم عليـــا وأشياعه   نظير ابن هند ، ألا تستحونا ؟ »

ثم لا تقتصر هذه الحرب الشعرية على أن تتناقلها الكتب أو الرواة عبر الفلوات ، بل نرى جموعها زحفت تقتحم على معاوية معقله ... فإن هي إلا أيام حتى كان على قد بعث إلى الشام خفاف بن عبد الله ، أحد بنى طيء في زيارة لبعض أهله هناك لعله أن يلغ بهم أميرها ابن هند فيلقى في روعه من حديثه وشعره ما يكسره ويكسر معه رجال إقليمه . .

ويستقبل معاوية الرجل وقد قدمه له حابس ، سيد طيء ، فيسأله حين يعلم أنه حضر فتنة المدينة :

« . . . حدثنا عن عثمان »

فيجيبه خفاف :

« حصره المكشوح ، وحكم فيه حكيم ، ووليه محمد وعمار ، وتجرد في أمره ثلاثة نفر : عدى بن حاتم ، والأشتر النخعي ، وعمرو بن الحمق ، وجد في أمره رجلان : طلحة والزبير ، وأبرأ الناس منه على »

« ثم مه ؟ . . »

« ثم تهافت الناس على على بالبيعة تهافت الفراش ، حتى ضلت النعل ، وسقط الرداء ، ووطئ الشيخ . ولم يذكر عثمان ولم يذكر له . . . ثم تهيأ للسير ، وخف معه المهاجرون والأنصار . وكره القتال معه ثلاثة نفر : سعد بن مالك ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة . فلم يستكره أحدا ، واستغنى بمن خف معه عمن ثقل . . . حتى إذا كان فى بعض الطريق أتاه مسير طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة ، فسرح رجالا إلى الكوفة فأجابوا دعوته ، فصار إلى البصرة فهى فى كفه ثم قدم إلى الكوفة فحمل إليه الصبي ، ودبت إليه العجوز ، وخرجت إليه العروس فرحا به وشوقا إليه . فتركته وليس همه إلا الشام . . . »

وما يعنينا أن نتناول هنا القصة التى رواها خفاف بالتمحيص والنقاش ، فقد فرغنا قبل من حديث الفتنة وأفضنا فيه . ولكنها على أية حال ، أبرأت عليا من الدم أمام من لفق اتهامه ، وبلسان امرئ كان لا يسخط عثمان . وإن معاوية ليتدبر ما فى رواية الزائر فلا يقع منها إلا على ما يرد كيده ، ويهدم دعواه ، ويكاد يكسر عنه أعوانه لو خلى بينهم وبين السماع . . . وإنه ليخشى الخشية كلها على كفاحه ، حتى ليوشك أن يطوى مجلسه عن سيد طيئ وصاحبه مذعورا مضعضع النفس من خشيته ، لولا أن يصطنع قلة المبالاة وهو ينصت لبقية الحديث . . .

ويقول حابس :

« . . ولقد أسمعنى ، أيها الأمير ، شعرا غير به حالى فى عثمان ، وعظم به عليا عندى . . . »

فهبط قلب عاهل الشام . ولكنه يتجلد جهده ، وينظر إلى خفاف :

« أسمعنيه . . . »

فإذا الرجل قد بهته بقريضه ، وأتاه من ألفاظه المبينة بمثل صوت التحام الأسنة ، وقعقعة السيوف والصوارم ، ما أوشك أن يصم سمعه ! . .

ويمضى خفاف فى قصيده :

« . . ارهب اليوم إن أتاك على   صيحة مثل صيحة الأحقاف !
إنه الليث عاديا ، وشجاع   مطرق نافث بسم زعاف

فارس الخيـــل كل يوم نزال ونزال الفق من الأنصاف
واضع السيف فوق عاتقه الأيـ ن يذرى به شؤون القحاف
سوم الخيال ، ثم قال لقوم تابعوه إلى الطعان خفاف :
استعدوا لحرب طاغية الشا م ! .. فلبوه .. .. »

فما عاد المتمرد يستطيع أن يستمسك ! لقد عصف به قلقه ، وذعره ، وانزعاجه . . . إن الجدران حوله لثملة ، تترنح وتميل . والأرض تحته ميادة . وقلبه يضطرب بين جنبيه كانتفاضة الطائر الذبيح . . . لـكأنما القتال استحر . لـكأنما الخيل حصرته . لـكأنما السلاح اعتوره وهو ملقى على الثرى ، موطئا للحوافر ، تنفث جراحه بقية حياته قطرات حمراء ! . . .

ونفض معاوية الرؤيا المفظعة عن ذهنه المحموم . ورفع وجها باهتا إلى سيد طيء ، ثم مال عليه يسر بقدر ما وسع نفسه اللاهث :

« يا حابس . إنى لا أظن هذا إلا عينا لعلى . . . أخرجه — أخرجه عنك لا يفسد أهل الشام ! . . . »

٤

أحديث خفاف ، أم بعض الخطط المرسومة هو ما أوحى إلى معاوية بتوجيه دسه إلى الحجاز ؟ . . ابن العاص — على أية حال — لم يشر عليه ، ولم يكن من تدبيره أن يبعث صاحبه كتبه ورسله إلى الجنوب . وإنها لسقطة منه ما كان يحسن أن تغيب عن دهائه . فبث القتاد فى طريق الإمام أولى بعثله ، وأقمن حين الصراع أن يعلو بصاحبه على غريمه .

لـكنه ، لأمر لعله أسره ، ود لو رد معاوية عما عقد رأيه عليه ، وعندما سمعه يقول :

« إنى قد رأيت أن نلقى إلى أهل مكة وأهل المدينة كتابا نذكر لهم فيه أمر عثمان ، فإما أن ندرك حاجتنا ، وإما أن يكف القوم عنا . . . »

أبى ، وحاجه :

« إنما تكتب إلى ثلاثة نفر : راض بعلى فلا يزيده ذلك إلا بصيرة، أو رجل يهوى عثمان فلن تزيده على ما هو عليه ، أو معتزل فلست بأوثق فى نفسه من على . . . »

غير أن معاوية لم يمل به هذا الاعتراض شعرة عن عزمه ، بل عساه ارتأى فى بعض أهل الحجاز تربة قد تثمر فيها بذوره ، امل هوى فى نفوسهم أن يجنح بهم إليه فيكونوا له النصير . . .

وتخير الرجل من فوره ألمع أسماء هناك يجاور أصحابها مقام محمد وبيت الله ، فما وجد خيرا من أولئك النفر الذين اعتزلوا الأمر ، ونأوا بجانبهم عن مظاهرة على وعن ثلبه على السواء ، ففى نفوسهم بقية من شك قد يزعزعها نفثه .

كتب إلى سعد بن أبى وقاص :

« . . . إن أحق الناس بنصر عثمان أهل الشورى من قريش ، الذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره ، وقد نصره طلحة والزبير — وهما شريكاك فى الأمر، ونظيراك فى الإسلام — وخفت لذلك أم المؤمنين . فلا تكرهن ما رضوا . ولا تردن ما قبلوا ؛ فإنا نردها شورى بين المسلمين . . . »

وكتب إلى عبد الله بن عمر ، وإلى محمد بن مسلمة .

فأما أولهما فليمنيه الإمرة ، وليسلس له من إغرائه ما عساه أن يستهوى به لبه ويحرك خياله الذى رانت عليه تقواه :

« . . . لم يكن أحد من قريش أحب إلى أن تجتمع عليه الأمة بعد قتل عثمان منك . . . إنى لست أريد الإمارة عليك ، ولكنى أريدها لك » .

وأما الثانى فليعذله إذ خذل قومه الأنصار عثمان ، وبات هو مثلهم خاذلا له بعد موته ، يدع واتريه ولا يرفع فى وجوههم سيفه ولا ملامته ، وإنما آثر السلامة فى الاعتزال .

وتلقت جيرة الحرمين تلك الحقبة الحازبة من عمر الإسلام على هوى تنطق به السطور قد حملته إليهم كتب عاهل الشام . لكن زيف الداهية لم ينلهم ، ولم تفتلهم عن الحجة أباطيله . كلهم أبى أن يكون متنه إلى أطماعه التى لم تعد تخفى عن البصائر وإن سربلها دونهم بألف ادعاء . . . حتى العامة فى البلدتين الحرام أجمعوا الرأى على رد دعواه ، فنضح كتابهم إليه بفشل حيلته .

بعث إليه ابن عمر :

« . . . ما أنا كعلى فى الإيمان ، والهجرة ، ومكانه من رسول الله ، ونكايته فى المشركين . . . فأغن عنا نفسك ! . . . »

ورد ابن مسلمة :

« . . . لعمرى ما طلبت إلا الدنيا ، ولا اتبعت إلا الهوى ، فإن تنصر عثمان ميتا فقد خذلته حيا ! . . »

وأجاب سعد بن أبى وقاص :

« . . . إن عمر لم يدخل فى الشورى إلا من يحل له الخلافة من قريش ، فلم يكن أحد منا أحق بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه . . غير أن عليا قد كان فيه ما فينا ولم يك فينا ما فيه . . . فأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما كان خيرا لهما . والله يغفر لأم المؤمنين ما أتت ! . . »

وكان رد المسور بن مخرمة بلسان أهل المدينة :

« . . أخطأت مواقع النصرة وتناولتها من مكان بعيد . . . ما أنت والخلافة يا معاوية ؟ . . أنت طليق ، وأبوك من الأحزاب ! فكف عنا ، فليس لك قبلنا ولى ولا نصير . . . »

وعندما حمل إليه البريد رجع الدسيسة التى ود لو أفرخت له فى الحجاز ، شمت عمرو وقال :

« كيف رأيت يا معاوية رأيى ورأيك ؟ . »

فأجابه وهو مكمود :

« رجوت ما خفت ! . . »

لكنه ، مع هذا ، لم ينم للقنوط ، فما زال الميدان وسيعا لدسه وادعائه . وإذا كان تأليبه على على لم يجد صدى فى نفوس فئة كهؤلاء يتحرجون أن تلعب بهم أساليبه ، فإن كثرة غيرهم حرية أن تنصرف إليه لأنها طرية فى يدى زيغة يستطيع أن يصبها فى قالبه : أولئك هم طوائف الأعراب من القبائل المنبثة فى صحارى الجزيرة وفى نجادها ، الذين زودتهم حياة البداوة والفطرة بسذاجة لا يفطنون معها إلى

ما يسوقه من أخاديع . وهل دعوته بينهم إلا صورة من صور النخوة التي تهز فيهم المشاعر ؟ . .

بات البدو إذن في الجزيرة مرتع تجاريبه ، يبثهم باطله في ثوب من النجدة براق ، ويحضهم أن يؤازروه على الانتصار للخليفة القتيل من واتريه فلا يحرك في قلوبهم إلا إيمانها بالمروءة وولعها القديم بالثأر لمظلوم ، ولم يكن ثمة حقل أخصب لدعوته من الموسم ، عند المسجد الحرام ، حينما يتوافد الحجيج . فهناك البدو الذين يقبلون محرمين من النجاد والفلوات . وهناك التجار تجمعهم الأسواق . وهناك أيضا وفود الأقاليم والأمصار ينتشر بينهم نفثه ويحملون منه بقية معهم حين العودة . هؤلاء رسله ، وإن جهلوا ، إلى أقوامهم ، ودعاته في بلادهم الدانية والبعيدة الذين يتطاير من أحاديثهم شرر النار !

ولم تغب عن علي هذه الدعوة السرية التي شنها غريمه بين الجميع ، يوقع بها في نفوسهم ما يريده ، ويخذل جموعهم عن صاحب الحق في ولاية الناس ، ويثير فيهم التمرد عليه ، فأرسل إلى ابن عمه : قثم بن عباس ، عامله على مكة ، يبصره :

« ... إن عيني بالمغرب كتب إلي يعلمني أنه وجه إلى الموسم أناس من أهل الشام الذين يلتبسون الحق بالباطل ، ويطيعون المخلوق في معصية الخالق .. »

لقد كان الصراع السلمي عنيفا بين الرجلين إلى غاية عنفه ، لم تخمد ناره طوال هذه الحقبة التي انطلقا فيها يتصاولان بالقلم واللسان . وإنه ليكشف لنا عن نواحي لم يكن فيها معاوية منفردا وحده في مجال الصيال ، بل لعله كان مسبوقا حين نستشف من خلال كلمة الإمام لابن عمه كيف تأهب علي لملاقاة خصمه في ميدانه ، وشحذ له من أساليبه ما يفل من سلاحه ؛ حتى لقد بث العيون في قلب إقليمه تأتيه بنواياه من قبل أن تذيع في الناس .

ونباعد الحق لو حسبنا معاوية لم تكن له بالكوفة رصدة تنقل له ، وتعمل لغاياته : فأدنى الدهاء ، أن يفعل ويستشف ما وسعه خطوات خصمه . وإن عليا ليوشك أن يكتب الناس ويمضي بهم جموعا ليجتاح الشام فتنجاب له السجف عن حقيقة بعض من ظنهم الناس أعوانه . . . ينادي القوم داعيا إلى الفصل :

« . . . سيروا إلى أعداء الله ! . . سيروا إلى أعداء السنن والقرآن ! . .

سيروا إلى بقية الأحزاب ، قتلة المهاجرين والأنصار ! . . »

فعندئذ ، حين لم يعد من الحرب مناص ، نرى امرأ مدسوسا عليه قد نهض يجادله جهرة لعله أن يرمى بالوقيعة بينه وبين أنصاره :

« أتريد أن تسيرنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلهم لك كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلناهم ؟ كلا . ها الله إذن لا نفعل ! . . »

فلعلها كادت تستشرى فتنة لولا أن عاجل الأشتر الأمر فصاح :

« من لهذا أيها الناس ؟ . . »

فإذا الصيحة تثير الجموع ، فتلاحق الرجل فى فراره أمام غضبتها ، ثم تتعاوره بالأكف ، ونصال السيوف ، والأرجل ، حتى يقضى ويعوت دمه فى لهاته !...

ويقبل الأشتر محاولا أن يطيح بما عساه قد علق من أثر بنفس على نتيجة لدعوة الجاسوس :

« . . . يا أمير المؤمنين ، لا يهدنك ما رأيت ، ولا يؤيسنك من نصرنا ما سمعت من مقالة هذا الشقى الخائن — »

ولكن أمير المؤمنين لا ينسيه التفاف رجاله عليه دم الخائن القتيل ، فيستقصى مصرعه :

« . . من قتله ؟ »

« قتلته همدان ، وفيهم شوبة من الناس »

فيأمر فى الحال بتوديته :

« قتيل عمية لا يدرى من قتله ديته من بيت مال المسلمين »

هذه الصورة من التجسس والدس لها أشباه ، فى الكوفة ، وفى طريق جيش الإمام طوال سيره إلى مرابضه فى صفين لملاقاة معاوية بعد فشل دعوة الوفاق . فى كل خطوة قدم كانت الأرض تطلع عليه عينا يرصد حركته ويكاد يعد أنفاسه ، أو منافقا يبدى له النصرة وهو يكتم الخداع والعداوة . . . دخل عليه ، ساعة تهيئه للرحيل بجنوده رجال من غطفان وتميم ما كادوا يلمسون عزمه ، حتى انبرى له منهم حنظلة بن الربيع :

« يا أمير المؤمنين . إنا قد مشينا إليك بنصيحة فاقبلها منا . . . أتم ، وكاتب

هذا الرجل ، ولا تعجل إلى قتال أهل الشام ، فإنى والله ما أدرى ولا تدرى لمن تكون إذا التقيتم الغلبة . وعلى من تكون الدبرة . . . »

وكأنما كانت الفرقة كلها على اتفاق ، ولقنت ما تقول ، وجاءت شوطها لتبثه وتدعو إليه ! . . فما لبث أن نهض منهم ابن المعتم يردد مثل ما قال صاحبه . ثم قام بعده غيره ، ثم غيره وغيره كثيرون ما مأرب لهم إلا تأخير السير ، كأن قد أرادوا بهذا الإرجاء إيقاع الوهن فى صفوف جيش على ، أو أفساح فسحة من الزمن لذلك القابع هناك فى الشمال . . .

وأصغى الإمام لحديث التردد الذى أتوه به فى أحرف نصيحة ، ثم قام فيهم وفى الناس ، يحدثهم بمنطق إيمانه :

« . . . إن الله وارث العباد والبلاد . . . يؤتى الملك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء . . . أما الدبرة فإنها على الضالين العاصين ، ظفروا أو ظفر بهم . وأيم الله إنى لأسمع كلام قوم ماأراهم يريدون أن يعرفوا معروفا ، ولا ينكروا منكرا . »

فهتف به أحد رجاله : معقل بن قيس :

« إن هؤلاء والله ما أتوك بنصح ، ولا دخلوا عليك إلا بغش . فاحذرهم فإنهم أدنى العدو » .

وصاح صاحب شرطته ، مالك بن حبيب :

« ياأمير المؤمنين إنه بلغنى أن حنظلة هذا يكاتب معاوية »

وقال عياش بن ربيعة :

« . . . إن صاحبنا عبد الله بن المعتم قد بلغنا أنه يكاتب معاوية ، فاحبسه أو أمكنا منه نحبسه حتى تنقضى غزاتك . . »

ولئن كان الإمام قد رأى الترفق بدعاة التردد المدسوسين فما كان هذا عن إحسان ظن بهم أوشك منه فى ترددهم عنه . ولكنه رفق القادر الكريم . وهل يغيره مثل هذا التقاعد من فرقة لم تكن يوما له ، وهو يعلم أن قومهم لابد ينكرون تقاعدهم ؟ . بل لعله أراد أن يريثهم عسى أن يأسرهم حلمه ، فلا يكونوا عليه إن لم يصبحوا له . . على أية حال ، لقد غدوا بقومهم سبة قبلهم عنده ، ومعرة يتنصل من وصمتها الكبير والصغير من ذويهم حتى ضاقت عليهم الكوفة

فبيتوا أمرهم بليل ، وخرجوا منها هاربين من الذل والمساءة ينتجعون ارض الدميسة فى جوار جند الشيطان ! . . .

ولئن كانت هذه الفئة المنحرفة قد وجدت أمنها فى الخروج ، فإنها لم تجد لها فى زيغ معاوية غاية مرضية يمكن أن تحمل فى سبيلها السلاح . إنما قعدت بمستقرها الجديد عن مؤازرة الأمير المتمرد ، وركنت إلى اعتزاله . ولم يسمع عنها إلا كلمة لحنظلة ، ما نراها ندت من بين شفتيه إلا حين مقامه بالكوفة فأخذت سليه فيما أخذت من وسائل اتصاله مع الشام وإن قيل نطقها من بعد فراره — لم نسمع إلا أبياتا يحرض بها ابن هند على خلاصة الناس هى أالفاظ لم تجاوز القول ، ولم يخرج منها إلى حيز التأييد العملى ولا بتحريك سيفه المغمود ! . . . يقول ذلك المحرض الفار :

« أبلغ معاوية بن حرب خطة   ولكل سائلة تسيل قــرار
لا تقبلن دنية تعطونها   فى الأمر حتى تقتل الأنصار ! . . »

فر إذن حنظلة ، وفر ابن المعتم وقلة من رجالهما معهما إلى الشام . فلم يخسر الإمام شيئا بهذا الفرار . ولم يكسب معاوية شيئا بالانضمام ، فلو كانوا خونة فقد حسبت عليا طهر من الخيانة صفوفه ، ولو كانوا مرتابين فهم كذلك منذ بدئهم . قد اعتزلوه من قبل ، ولم يلحقوا به حين دعاهم إليه إبان محنه عائشة وصاحبها فى البصرة ، بل آثروا القعود . وإنهم لأشبه عندى بمنافق المدينة ، أو بضعاف الإيمان فى فجر الإسلام الذين أبرم رسول الله عهد الحديبية فلم يحملهم بنصوصه على النكث بين أنصاره إذ لم يحمل قريشا على ردهم إليه بعد أن ارتدوا وخلفوه . أولئك كهؤلاء — سوسة فساد تنخر فى كيان جمع وفى سليم فما تنجح قضية نصيرها مرتاب . وما أجدى فرار فريق حنظلة وابن المعتم على معاوية مثل خردلة — إلا أن تكون الجدوى أن لحقوا به ثم اعتزلوه فكان أولى أن تشيع الريبة فى أهدافه بالاعتزال ! . .

غير أن ابن هند كان يكفيه أن يأتيه أمثالهم : مخلصين أو مرتابين ! . . فلن يطلع قومه من صور اللحاق به إلا على ما يرضيهم ويرضيه : إنما أشباه حنظلة أصحاب هجرة أنكروا منكرا من الإمام ! . . إنما قد عرفوا موطن الحق فجاءوا

إليه ليلتزموه ! . . إنما هم ، وغيرهم : نفر آخر من أصحاب الأسماء الضخمة الرنانة ، سيكونون كتابه الذى يتقدم به فى عينه لأهل إقليمه — كتابه الذى سيضم منهم مادة جوفاء فارغة يسرها لنفسه ! فلن يكشف قط عن صفحاته للعيون . . سيكتم عن الناس باطنه ، سيطوى أسطره ويبدى ظاهره . أفما يأمن إذن غدرة زمانه وهؤلاء أنصاره ومريدوه رجال عدموا الرؤية ، وجلاء البصيرة ، وعمق التفكير ، كل همهم غلاف أنيق ؟ . .

٥

هذا كتابه يتقدم به . . . له هيئة ، وفيه فتنة ظاهرة تدعو إليه العيون المسحورة . ذو منظر ولون ، قد لمع غلافه وتزخرف شفافه ! . إنما يعنيه أن يجذب الناس إلى راية ذات زبرق وإن رخص فيها النسيج . فالقوم عنده كمثل الثور الذى تجذبه الحمرة ! . .

الرجل حقا قد سبر طبيعة الجماهير ، وخبر مغاور العاطفة التى تنطلق بهم إلى الأقاصى البعيدة دون حاجز يقف بها من التعقل أو التدبر . ومتى كان العقل يحكم الثورة ؟ . . ومتى كان الثور يلقى بعينه إلى السيف الخبىء وراء القماشة الحمراء ؟ . . لو قد عرف أن قومه مناقشوه حين يتبدى لهم كتابه لفكر عشرا ولم يتقدم . لو قد عرفهم مستنبئة ما تضمه الصحائف لبات لياليه وهو مكروب وقطع حياته وهو مغلوب . ولكنه عرفهم « لا يقولون إذا قال ولا يسألون إذا أمر » . إنهم رجال تسليم . عطلوا الفكر إلا فكره ومضوا خلفه إلى حيث شاء كأنما يقودهم بلجم ! . . وهو قد ألهب فيهم الحمية فحق أن يزودها بين اليوم واليوم بالوقود . وكان الوقود إفكه وأكاذيبه وزخارف الخداع والتمويه . .

والآن إذ فاته أن يخلب إليه بقية أهل الشورى ، وجيرة الحرم ، ومنتجعى الأمان الروحى عند قبر الرسول ، لفق الصور فتانة ، تسحر الأنفس التى تستدلها المظاهر . . . الآن لكتابه أغلفة ، أكثر من غلاف ، براقة أنيقة . . . الآن له أكثر من عنوان ، كل منها يملأ الفم بحروفه الضخمة الرنانة ! . . سيستطيع

أن يطلع على قومه بين اللحظة وتاليتها بسفر كأنه جديد ما هو بجديد ، أصله واحد وأغلفته عديدة ، يلبسه منها ما يروقه ، اليوم هذا والغد ذاك ، كأنه غانية فى أسواق المتعة يتشكل حسنها فى عيون عشاقها بتغير الشفوف ! . .

وقال ذات يوم لعمرو بن العاص :

« إن الله قد أحيا لك عمر بن الخطاب بالشام بقدوم عبيد الله بن عمر ، وقد رأيت أن أقيمه خطيبا فيشهد على على بقتل عثمان وينال منه . . . »

فهذا إذن عنوانه الجديد ! . . أعياه عبد الله فالتمس عبيد الله ! . وهل من فارق فى نظر صحابه بين الأخوين وكلاهما من صلب الفاروق العادل الذى جرت الألسن بطيب ذكراه ؟ . .

وجىء بالفتى إليه يصغى لتحريضه :

« إن لك اسم أبيك . فانظر بملء عينيك ، وتكلم بكل فيك فأنت المأمون المصدق . . . فاصعد المنبر واشتم عليا ، واشهد عليه أنه قتل عثمان » .

قال عبيد الله وهو بين تردد واقتناع :

« . . . أما شتمه فإنه على بن أبى طالب ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، فما عسى أن أقول فى حسبه . . ؟ وأما بأسه فهو الشجاع المطرق . . . وأما أيامه فما قد عرفت . . . ولكنى ملزمه دم عثمان » .

فهتف عمرو :

« إذن والله قد نكأت القرحة ! »

وعندما برح الفتى . وخلا المكان بعده للداهل المخادع يجتر ذكرياته وآماله ، لم يطق معاوية كتمان رأيه الصريح فى ابن عمر — فى تفاهة عنوانه الجديد الذى سيخلب الناس ! . .

قال لابن العاص :

« أما والله لولا قتله الهرمزان . ومخافته عليا على نفسه ما أتانا أبدا . . . ألم تر إلى تقريظه عليا ؟ . . »

فطمأنه عمرو :

« يا معاوية ، إن لم تغلب فاخلب ! . . »

وكان هذا فى الواقع شعاره . فما يهمه إلا الوجه الذى سيتبدى للقوم فأما اللب فسيخفيه . إنه ليستنصر بابن عمر ، ويستعديه ، ويتلمس عنده الشهادة على على وإنها لمكذوبة أو تبطنت بالهوى والغرض ، ولكنه يرتضيها إذ هى الرقعة الحمراء التى تجتذب نظرات ثيرانه ! . . . وإنه ليتلهف عليها ، ويظل حالما باليوم القابل القريب الذى يتسنم فيه شاهده ذروة المنبر ليزور كلامه وينشر اتهامه ... حسبه أن « له اسم أبيه » . حسبه أن الآذان ستلقف حديثه والأذهان ستؤمن بما فيه . وهل يجرى بخاطر المفتونين أن يعين عبيد الله وإنه لمن عمر صاحب السيرة التى تؤرخ للحق والعدالة ؟ ...

لقد كان معاوية على بينة من دخيلة الفتى يوشك أن يدفعه إلى الطريق التى يرسمها له فلا يراه يحرن أو ينكص عن التزامها أو يحيد . عرفه كارها للإمام ، يجزع حين تلوح صورته له فى خياله فيلمح منها قسمات صلبة لاتلين ، ونظرة عين تحترم المجرم ، وحد سيف يتهيأ لإنفاذ شرعة القصاص . . . وكان عبيد الله هو المجرم الذى قهرت العدالة ذات يوم على إفلاته إبان عهد عثمان إذ هو امرؤ — فى عهد ذلك الخليفة القتيل — ليس كالناس ، يجل دونهم عن العقوبة !.. وكان على حينذاك يراه قد تلوثت كفه بإثمه فلا عفو له عن معصية أو تصبح الشريعة سلاحاً فى يد الحاكم له حدان ينال بحديدها المستضعفين والعامة ويربت هازلا بثلومهما على ظهور الخاصة من ذوى الأحساب ! . .

إن قصة ابن عمر هى صورة محنة من تلكم التى تذل العدالة فى كل عصر تمرض فيه الضمائر وتتهاوى قوائم الشعور بالمسئولية . قصة الهوى يحرك القانون . قصة طبقة تخصها الدولة بمغانمها وإن أساءت وطبقة غيرها ليس لها فى وفاضها سوى المغارم . . . قصة خيانة الناس الله ! . . .

أجل قد خانوا ربهم ، أحسبهم ، يوم أطلقوا الفتى حرا ولما يجف من كفه دم الهرمزان ! . . فبأى حجة أطلقوه ؟ . . وما هى المعاذير التى تلمسوها له لإبرائه وقد عجز هو عن تلمس المعاذير ؟.. وكيف يستطيع القانون ، بعد حكمهم ذاك ، أن يسير فى الناس إلا شائها مهيضا منضيا من معرة واستحياء ؟ . .

كان ذلك يوم أن طعن ابن الخطاب بيد أبى لؤلؤة فيروز غلام المغيرة وأخذت

روحه تنزف رويدا رويدا من جراحاته . . . وعلم عبيد الله بمصاب أبيه فانتضى سيفه ، ومضى فقتل الهرمزان وإنه لمسلم تشهد عند ذاك ودماؤه تسيل ، وقتل ابنة أبي لؤلؤة : فتاة صغيرة بلا جريرة ولا حول ، وقتل جفينة : رجلا من نصارى الحيرة كان يعلم الصبيان في المدينة — فلولا أن تكاثر عليه الصحابة ، وسارع بن أبي وقاص فأخذ بناصيته ، وخطف منه سيفه ، ومضى به فحبسه في داره لكان انطلق إبان غضبه المجنون فقتل كثيرا من السبي وفئة من الأنصار والمهاجرين صور وهمه له أنهم شركوا في دم أبيه . . .

وعلم عمر في وجعه بعدوة فتاه على الهرمزان فسأل الناس :

« ولم قتله ؟ . . »

قيل له :

« قال : قتل أبي »

فهز الخليفة الطعين رأسه منكراً وهو حائر مرتاب ثم قال :

« ما أدرى ما هذا . . . انظروا إذا أنا مت فاسألوا عبيد الله البينة على الهرمزان هو قتلني ، فإن أقام البينة فدمه بدمي ، وإن لم يقم فأقيدوا عبيد الله من الهرمزان . . . »

ولم تكن إقامة البينة هينة لأنه لم تكن ثمة بينة على الإطلاق ! . . . فما أشهر الهرمزان خنجرا في وجه ابن الخطاب ، ولا رآه أحد عند الطعنة يؤازر المجوسي القاتل ، وما عرف عنه أنه أكن للطعين موجدة . كل الذى حرك غضبة الفتى عليه رواية راو ترسم الهرمزان ذات يوم قبل الطعنة وقد أقبل يناجي أبا لؤلؤة فلما افترقا سقط بينهما نفس الخنجر الذى أصاب عمر بعد أيام . . .

وقال عثمان — وما كان بعد قد ولي الأمر — يعنف بعبيد الله :

« قاتلك الله ! . . قتلت رجلا يصلى ، وصبية صغيرة ، وآخر من ذمة رسول الله . ما في الحق تركك »

وسأله في استنكار :

« وما ذنب بنت أبي لؤلؤة حين قتلتها ؟ . . »

واشتد سعد على الجاني ، واشتد معه من صحابة محمد كثيرون رأوا أن ينفذوا

ـفيه عقوبة جرمه وفق ما تحتم الشريعة وإجازة لوصية أبيه . فلما قضى عمر ، وخلفه على الأمة عثمان تبدلت الحال بحال ! . .

أقبل ابن العاص على الخليفة الجديد — حين رأى أن ينظر فى الاقتصاص من عبيد الله — يزلزل فيه رأيه الحازم الذى جهر به منذ أيام :

« ياأمير المؤمنين ، إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان . إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك ! . . »

فهل وقوع الحدث فى غير عهده يبت العقوبة ؟ . .

لقد بدا كأنما الرقة أخذت عثمان حتى استحيى أن يتناول بالقصاص عبيد الله بعد مصرع أبيه : وبدا أن العامة وقد فقدت خليفتها الحبيب المرهوب جمحت بها العاطفة إلى العطف على ولده فألهاها عطفها عن وجوب التزام شرعة الله فيه كالتزامها فى سواه . . تهامست حينذاك طائفة :

« أبعد الله الهرمزان وجفينه ! . . يريدون يتبعون عبيد الله أباه ! . . »

وقال بضعة من المهاجرين :

« قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم ! »

ومال عثمان إلى الرقة الأصيلة فيه فأغفل تناول القضية بالحزم الواجب ، والعدالة المفروضة التى يستوى أمامها الكبير والصغير . . .

وكثر اللغط ، وزاد تحدث الناس عن هذا التهاون فى إنفاذ القانون فى مجرم وفى ممالأته على غير ما تنص أية شريعة : سماوية أو موضوعة ، حتى لامه الكثير :

« ألا تمضى وصية عمر فى عبيد الله ؟ . . »

فلم ير مناصا من حسم الأمر بالقطع ، فجلس بجانب المسجد فى الناس ، ودعا المهاجرين والأنصار ، وأمر بالفتى فأحضر بين يديه . . . ثم استشار :

« أشيروا على فى هذا الذى فتق فى الدين ما فتق »

فأجمعت كلمة الأكابر من أصحاب رسول الله وذوى الرأى على أخذه بظلمه . .

وقال على بن أبى طالب :

« أرى أن تقتله . . . »

وعاود ابن النابغة ما أسلف من حديث الإعفاء . . .

وتحدث العامة والأوشاب — كثرة وفيرة — بما لايحسنون غيره من منطق العاطفة . . .

وعندئذ اعتلى الخليفة المنبر يخطب الحاضرين :

« أيها الناس ... فقد كان من قضاء الله أن عبيد الله بن عمر أصاب الهرمزان وكان الهرمزان من المسلمين ، ولا وارث له إلا المسلمون عامة ، وأنا إمامكم ، وقد عفوت أفتعفون . . . ؟ »

فتهاتف من حوله جمهور العامة :

« نعم ... نعم .. »

وثار على وقد رأى حق الله يستلبه من ليس له حق فيه ، ومن إذا وكلت إلى عواطفهم الحدود لانقطع النظام وجبت الحدود التى تحفظ على المجتمع حياته سليمة وأوضاعه مستقيمة :

« أقد الفاسق فإنه أتى عظيما ، قتل مسلما بلا ذنب ... »

قال عثمان فى عناد :

« ألا إنى ولى دم الهرمزان ، وقد وهبته لله ولعمر ، وتركته لدم عمر »

فغضب المقداد بن عمر ، الصابى الجليل ، ورمى بصيحته فى وجه عثمان :

« إن الهرمزان مولى لله ولرسوله وليس لك أن تهب ما كان لله ولرسوله !.. »

وحينما استشعر على من الخليفة التخاذل ، والجنوح مع الرقة إلى تقويض قوائم العدالة ، ولى الشريعة للأهواء ، وتعطيل الحدود ، قال يتوعد عبد الله :

« يافاسق ، لئن ظفرت بك يوما لأقتلنك بالهرمزان ! »

وأمام هذه الثورة للحق الواضح من أعرف الناس به ، وأشدهم حرصا عليه لم ير عثمان غير أن يظهر النزول عن عناده ، فقال لهم فى ترفق ولين :

« فننظر وتنظرون . . . »

لكنه لم ينظر ولم يدع لأصحاب الرأى معاودة النظر فى القضية حسبما خط ناموس الله . فقد كان — كما بدا من بعد — أبرم قراره وبيت إصراره . فإذا هو يخرج عبيد الله من المدينة نأيا به عن المستمسكين باتهامه وتفسيقه ، وينزله داراً بالكوفة لا يطوله فيها حديث القصاص .

وتلك قصة عنوان ! . . .

٦

بنى وعلَّى فى بناء أحلامه التى عقدها واثقا على عبيد الله !.. جلا المنبر للأعين جلو العروس ! . . حشد له الزمر والجموع حوله كأنه وثق فى ليلة عيده ! . .

وسبق بذهنه الزمن . طفر خفيفا إلى لحظة نصره المرقوب الذى لن يلبث ذكره أن يشيع فى المجامع ، ويزحم المحافل ، ويعـــلأ الأفواه . . . هى ساعة ويظفر — كلمات يسوقها الفتى الخطيب . . .

وفى إبان ابتهاجه ، والأعناق تتطاول إلى المنبر ، والعيون على عبيد الله ، والآذان تعلقت بشفتيه ، ونأى معاوية عن قبلة السمع والبصر ومال يهمس لشيطانه :

« ما منع عبد الله أن يكون كعبيد الله ؟ . . »

فابتسم عمرو له وقال :

« شبهت غير شبيه ! . . »

أقذ سخر ؟ أم تخابث ؟ أم كان رده عفو الخاطر ؟ . . معاوية على أية حال لم يلق باله إلى الجواب ، ولم يأبه له ، النشوة شغلته عنه . . . وخطيبه بدأ ، والقوم أصغوا إليه . والمسجد الجامع الذى ملأته الزمر المحشودة لاح من سكون الحركة فى جنباته كمقبرة ! . . كأنهم أموات ! كأنهم صفوف لحود ! . . أليسوا جميعهم صرعى فتنة ؟ . .

ما تركت هيئة ابن عمر لهم سوى أنفاس ، ولم يجذب شيء انتباههم عنه . الأعين إليه شاخصة ، الأسماع محدودة والقلوب مصغية . . . فى الصدور رهبة ، وعلى الأوجه خشوع .

طوال مديد القامة ، فارع كالنخلة . . عريض مبسوط البنية بين منكبيه ، كأنه مارد يسد عليهم المكان . . . لولا هنة فى ثوبه ، وهنة فى جوارحه ، وهنة فى ملامحه لكان ذات العملاق الذى كانه ذات يوم أبوه . . . عليه مسحة من هيبة ، وفى صوته جلجلة ، ونظراته لها شعاع نافذ جسور يقتحم الأنفس على أصحابها بلا تخاذل . . . أدرة تلك فى يساره أم هو الوهم خدعهم عن حواسهم لتكمل لهم صورة ابن الخطاب ؟ . .

وارتاح معاوية لهذا التوفيق ، فقد سحر بصاحبه القوم . هم بين عارف بعمر يتوسمه الآن من خلال ذكرياته ، وسامع بصفته يتوهمه بأعين خيالاته ، كلهم أحسوا الرهبة من خطيبهم وأعنوه عنها الإجلال . . . الجو حولهم تغير ، ليس هو الذى اعتادوه ، فما هذه دمشق المألوفة . . والزمن أيضا تغير ، ليس حاضرهم المعروف ، فماهو بامتداد يومهم حين عموا الجامع الكبير . . . إن أنفاسا رقيقة من الماضى تهب عليهم ندية ، وقوة آسرة من ذكرياته المجيدة تلف خواطرهم ، ثم تثب بهم إلى الوراء ، عبر السنين والمسافات .

ها هى المدينة تلوح ، نقطة نضرة ، كقارب أخضر فى محيط الرمال . . . تلك آطام يهود على تخومها تحف بها خربة خواء . . هنا روضة البقيع : عالم الموت فالخلود ، ومجاز الإيمان إلى الآخرة دنيا السلام . . . هذه بقايا خندق سلمان ، والسور ، ومدخل البلدة الآمنة . والبساتين والزروع ومغارس النخيل ، والدروب التى طالما وطئتها قدما محمد أو أخفاف القصواء . . .

ثم الرحبة ، وقبر الرسول ، وحجرات الأزواج ، والصفة التى كانت منزل صفوة باعوا الدنيا ليقربوا من الله .. ثم المسجد كله فرشه حصباء وعمده جذوع . . ثم القبلة ، والمنبر الساذج الذى شهد ولادة الدولة ، فيفاعها ، فعزها الذى رفرفت فيه راية الإسلام على أركان العالم . . لكأن عمر الآن فوق أدنى درجاته يبايعه الناس فيصفق على أكفهم بكفه العريضة . . . لكأنه آب لتوه من تجواله بين الرعية فجلس يقضى أو يسمع أو يشاور الصحاب . . لكأنه فى مرقعته قام يحصى الأسلاب من كنوز كسرى أو نفائس الروم ، ثم يخر ساجدا شكرا لله على النصر الذى حازه جند الله . . .

إنها لصور تترى . صحائف من المجد جديرة بأن تداعب خواطر الجماهير المحشودة حول منبر دمشق تلقى سمعها مرهفا إلى فتاه . . أفليس هذا من ذاك ؟ أما هو شبله ؟ . . ألا تهيج فيها وقفته ، وهيئته ، ونبرات صوته سيرة الذى فات من عدالة أبيه فتراه مثله لسان حق يوشك ألا ينطق بهواه ؟ . .

وأصغى معاوية وعبيد الله ينطلق حديثه رقيقا هادئا كماء الجدول . . . وتلهف على اللحظة الحاسمة ، والكلمة المبطلة المنشودة . . . وسبق بسمعه لهاة الفتى ينصت

إلى ألفاظ الفرية المقررة وسبة الاتهام التى وضعها بنفسه فى فيه . . الآن سيذهب الهدوء . . سيخلى مكانه على ملامح الخطيب للثورة . . . الآن سيعنف خطابه ويبدو نابه ! . . الآن سيهدر هدر الشلال ، سيزأر كإعصار ، ستنطلق كلماته حامية مدمرة كمثل الحمم والصواعق !

فما هى إلا منى مخدوع ! . . كل هذا الذى انتظره معاوية من خطيبه ظل خافيا فى ضميره كأنما ابتلعه الفتى وواراه ! . . لقنه فأبطنه ! . . رعاه جنانه ولم يلفظه لسانه ! . . إنما تحدث بحاجته ساعة حديث الآمل ثم خلف المنبر وغادر المكان . .

وأسرع معاوية صوبه يمسكه بطرف ردائه ويفح له من بين أسنانه وهو مبهوت :

« ابن أخى ، إنك بين عى أو خيانة ! . . . »

فتفرسه برهة عبيد الله كانت ثقيلة مديدة كالدهر أجابه بعدها بغير إخفاء :

« كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان ، وعرفت أن الناس محتملوها عنى ، فتركتها . . . »

فلم يعقب الداهل . وهل يجديه التعقيب ؟ . . . ألا ليت عمرو بن العاص لا يتشبث برأيه فالفتى فى الحق ، لأخيه شبيه ، يفرقهما حرف وتجمعهما فكرة! ومع ذلك فمعاوية لا يفلته ، ولا ينبو بأمثاله ممن ألقت بهم أقدارهم فى مسالك طريقه . وإنه ليغضب فى البدء ، ويخيب أمله فيه ، ويوشك أن ينبذ عبيد الله أو يعاديه ، ولكنه لا يلبث يوما ثم ينفسح له صدره ، ويبعث فيرضيه ويدنيه إليه . . . حسبه أن يبقى بجانبه ، فإنه على أى حال عنوان ! . . .

ولم يقف بالرجل مكره ، ولا وسائله التى تفتن وتخدع وتجذب نحوه أنظار الناس ، فلئن فاته لف الكثرة من صحاب الرسول فقد لف فئة من أبنائهم حواليه وإنهم شباب لا تتحقق لهم مطامعهم إلا فى محيط أطماعه العريضة . ومن يدريه ؟ لعلهم يكونون يوما عونا له على الآباء المباعدين يفتلونهم كذلك إليه ! . . إنا لنراه قد استقام له حدسه . زاره ذات يوم بعد صفين فأوشك أن يكون ما ارتجاه لولا ما كان من عناد ابن أبى وقاص ، وشدة مراسه ، ورأيه الثابت الذى لا يلين . . .

فى ذلك اليوم دفع سعدا فضوله فمضى يتنسم أخبار الحكمين : أبى موسى وابن العاص وهما بدومة يتبادلان ويسران مداولتهما عن الناس ؛ ونزل سعد بأرض البادية على ماء النبى سليم فى مكان قريب ، فلما أن علم عمر ابنه بأمره ، أطمعه فيه مجيئه ، فأقبل عليه يحاول أن يميل به عن اعتزاله إلى مناصرة قضية معاوية . . .

حدث الفتى أباه :

« يا أبى ، التقى الناس بصفين فكان بينهم ما قد بلغك حتى تفانوا ، ثم حكموا الحكمين : عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص . . . »

فلقيه الرجل بنظرة مستريبة لكنه لم يقطع عليه الحديث .

ومضى الشاب :

« . . . وقد حضر ناس من قريش عندهما ، وأنت من أصحاب رسول الله ، ومن أهل الشورى ، ومن قال فيه رسول الله : « اتقوا دعواته » . . ولم تدخل فى شىء مما تكره هذه الأمة . . »

قال صاحب الرسول :

« ثم مه ؟ »

« فاحضر دومة الجندل فإنك صاحبها غدا . . »

عندئذ هتف الوالد بولده :

« مهلا يا عمر ! . . إنى سمعت رسول الله يقول : (يكون من بعدى فتنة خير الناس فيها الخفى التقى) . وهذا أمر لم أشهد أوله فلا أشهد آخره . . »

وطال بينهما جدل طمع الفتى إبانه فى استمالة الشيخ عسى أن ترجح به كفة ولى أطماعه فتنفتح أمامه وفى رجائه وسيعة حسبما تأمل خيالات شبابه ، ولكن سعدا كان أعصى على إغرائه ، وأشد شكيمة فإذا هو جبهه بالرأى الفصل الذى لا سبيل بعده إلى مراجعة . قال له :

« يا بنى : لو كنت غامسا يدى فى هذا الأمر لغمستها مع على ! . . »

رضى معاوية بعبيد الله يقيم عنده على ما يشتهيه : إن شاء اتهم الإمام أو شاء كتم الاتهام ، فحسبه أن له اسم ابن الخطاب ! . . وتصيد عمر بن سعد بن أبى وقاص

ليكون شركا — إن استطاع — لأبيه . . . واجتذب عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد بجمله على رايته يوم صفين لعله أن يعيد إلى الأذهان ذكرى القائد العبقرى : سيف الله الذى نشر ألوية الدين عالية ، وقهر الشرك ، وقاد جند الإسلام إلى النصر أينما حمل السيف وهز الحسام . . . كلهم فتية لهم مطامع وآراب يهيجها الشباب ، كلهم ذوو أسماء ، كلهم عناوين ! . . هم أغلفة أنيقة براقة تستهوى الأعين المفتونة باللمعان والأسماع التى تستعذب الرنين ! . . .

بل القدر أيضا أمده بغيرهم : طائفة أثيرة على عواطف الناس ، ذات غابر ساطع له إشراقه . فعندما تعبس الدنيا ، وتمتد سياطها إلى الظهور لاذعة . وتبدى المخلب والناب ، تهزم البشر إلا صابراً ذا حصانة . . .

وقد عبست ، ودارت رحاها عنيفة تطحن النفوس . . . لو لقيها ضحاياها بمثل صبر الإمام ما كرثتهم شيئا ، ولا نالت من عزتهم وعزمهم إلا بقدر ما تناله بعوضة من قرن الثور ! . . هى أهون على القلوب الركينة والدخائل الحصينة . محنها موقوتة ونعمها مبتوتة . المتعلق بها آمل فى غير أمل . وصاحبها راحل إلى معاد بلا زاد . . . ولقد خبرها على فكشف ما تبطن ، وحذر منها من يغرهم بها الغرور :

« . . . أخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم . ففيها اختبرتم ، ولغيرها خلقتم . . . إن المرء إذا هلك قال الناس : ما ترك ؟ وقالت الملائكة : ما قدم ؟ . . »

وهى أيضا كقوله :

« دار شخوص ، ومحلة تنغيص ، ساكنها ظاعن ، وقاطنها بائن ، تميد بأهلها ميدان السفينة تقصفها العواصف فى لجج البحار . . . فما غرق منها فليس بمستدرك . وما نجا منها فإلى مهلك . . . »

فيم إذن — وهذا صدق حالها ، ومآل آلها — يرجوها الناس فيتداركون عليها تدارك الإبل الهيم على المورد العذب بعد طول إصحار ، ويتهافتون عليها فى اضطراب ولهفة تهافت الفراش على شعلة النور ؟ .

إن فيهم لطائفة لم تحصنهم القناعة . وهنت منهم العزائم فأسلسوا لها القياد

وهي الجلد وخار الصبر . حابتهم بعرضها الزائل وسخرها الحائل ، وكانوا مع ذلك ذوى غابر ساطع له إشراق ! . .

ولم يكن الإمام بالذى يمذل العافى المحروم ولا يستقبل هناته بالعذر والرحمة . فالفقر وقر وقهر ، والعيلة مذلة . . . وعند ما تلمس الفاقة المرء توشك ألا تدعه إلا وقد جرحت عزته وأدمت قلبه وكبرياءه . كم حزن لفقير ، وعطف على ذى حاجة أسيف محرور ، فحاول وسعه أن يرأب فيهم الصدوع ويلأم الكلوم والثلوم ، فى شبابه وهو حينذاك فرد من الرعية ، وفى كهولته وهو من بعد راع مسئول كان يسخو لهم بما تملك يمينه — وإن كان طعام يومه وآله — ويبيت راضيا على جوع . . وكان يسر عطاياه ، ويأسى الأسى كله إن بذلها علانية . ففى العلن من ، والمن مفسدة لبذل الباذل ، ومذهبة لحياء السائل . لذلك طالما كان يقول :

« من كانت له إلى منكم حاجة فليرفعها فى كتاب لأصون وجوهكم عن المسألة . . . »

غير أن دخله المحدود كان يقف به كثيرا على حد العجز حين تهول الطلبة فتعيى قصاراه . فما عطاؤه ؟ . . وما أفياؤه وإنه ليعين الشظف فلا يكاد يحس مثل حرمانه أفقر رجل بين رعاياه ؟ . . كان المال ينساب فى كفيه انسياب المياه ، والفضة والذهب فى خزائنه كثرة وفيرة كأنها الحصى والحجارة . فما لحظها يوما برغبة ، ولا انحدر إليها هواه وإن رمقها غيره رنوة شهوة ، وتطاولوا نحوها بأعناق الاشتياق ! . .

وقد رنت الأعين ، وهفت الأنفس ، وصغت القلوب لفتنة الحياة . . . طمع فى مسكة من المال نفر من أصحابه ألحت الدنيا عليهم بإغرائها ، فاشتهوا السعة وعافوا القناعة . . . حين جاءوه حسبهم يشكون إليه حاجة قاصمة فهم يردها عنهم بما فى وفاضه — بملك يمينه وإنه لراض قرير . لكنهم — لعجبه — أبهظوه الطلب ، وأعضلوا به فى السؤال . وهل من حيلة ويده قصيرة ؟ .. والمال قليل؟.. والمورد ضحضاح ؟ . .

وثار ضيقا وقد تبين أن صاحبه : عبد الله بن زمعة جاء يراوده عن منحة تصلح شأنه من بيت المال ، وضج يقول :

« . . . هذا المال ليس لى ، ولا لك ! . . إنما هو فىء المسلمين وجلب

أسيافهم . . . فإن شركتهم فى حربهم كان لك مثل حظهم ، وإلا فجناة أيديهم لا تكون لغير أفواههم . . . »

* * *

إن الذى جبه على به ابن زمعة كان ناموسه الذى التزم دائما سننه على الأيام . فلم يظلم الرجل ، ولم يتنكر له . بل هو رعى حق الأمة كافة ووثق أمانة الراعى المسئول . . . كانت تستوى عنده الحظوظ . فالمال وأصله ، والمال وأهله ، والمال ووجوه إنفاقه ... لا رضيخة ولا منحة ولا قطيعة ، بل امرؤ وما فرض الله ...

السوية شعاره . فالقوم سواء ، وأعطيتهم سواء . لايتميز فلا يعز. إنه ليأخذ نفسه بما يشق على غيره من خشونة المأكل وخشونة الملبس ، ولا يرضى أن يرزأ المسلمين شيئا من مال الدولة ، وفاق قدره عندهم وتقدمه عليهم ، وإن دعوه أن يفعل راضين مختارين . بل نراه وقد رفقوا به يرد رفقهم ويأباه . . يقول أحدهم له وقد وجده ، ذات يوم قارس البرودة ، يرعد فى خلق قطيفة عليه :

« يا أمير المؤمنين . إن الله قد جعل لك ولأهلك فى هذا المال نصيبا ، ثم أنت تفعل هذا بنفسك ؟ . . »

فيكون جوابه :

« ما أرزأكم شيئا . وما هى إلا قطيفتى التى أخرجتها من المدينة . . . »

ويلوم آخر تأثر به فى عزوفه عن الدنيا فانحرفت به سبيله — غير جانح لإثم ولا مبطن لمعصية — إلى التخلى عن ماله ، وهجرة عياله . . . ينهاه عن التزام أسوته :

« ويحك ياعاصم ! . . لست كأنت . إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره . . . »

وإنه ليؤدب عماله بأدبه ، فيحملهم على انتهاج نفس نهجه فى أموال الناس ، لا يكرهونهم على أداء صدقة ، ولا يستأدونهم به غير ما فرض الله ، ويؤثرونهم بخراج أرضهم يصلحونها ويصلحون شأنهم به ، ثم يرسلون إليه ما فضل منه . . ويحذرهم أن يعيثوا بأماناتهم فيأكلوا ما تحت أيديهم . . . يكتب لأحد عماله على الصدقات :

« . . لاتروعن مسلما ، ولا تجتازن عليه كارها ، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله فى ماله . . فإن قدمت على الحى فانزل بمائهم ، من غير أن تخالط أبياتهم ، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فسلم عليهم . . ثم تقول : عباد الله أرسلنى إليكم ولى الله وخليفته لآخذ منكم حق الله فى أموالكم ، فهل لله فى أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه ؟ . . فإن قال قائل : لا ، فلا تراجعه . وإن أنعم منعم فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه ، فإن أكثرها له . فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه . . ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها ، ولا تسوءن صاحبها فيها . . . واصدع المال صدعين ثم خيره ، فإن اختار فلا تعرض لما اختاره . ثم اصدع الباقى صدعين ثم خيره . . . فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله فى ماله . . »

ويكتب إلى الأشتر حين بعثه على مصر :

« . . وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم ، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد . . فإن شكوا ثقلا ، أو علة ، أو انقطاع شرب أو بالة ، أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ولا يثقلن عليك شىء به المؤونة عنهم ، فإنه ذخر يعودون به عليك فى عمارة بلادك وتزيين ولايتك . . وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء ، وقلة انتفاعهم بالعبر . . »

ويكتب إلى الأشعث بن قيس ، بعد بعثه إياه واليا على أذربيجان ، يبصره بحقيقة عمله :

« . . إن عملك ليس لك بطعمة ، ولكنه فى عنقك أمانة ، وأنت مسترعى لمن فوقك ، ليس لك أن تفتات فى رعية ، ولا تخاطر إلا بوثيقة . وفى يديك مال من مال الله عز وجل ، وأنت خزانه حتى تسلمه إلى . . »

وإنه ليراقب ولاته ، ويحاسبهم على ما تحت أيديهم ، ويرسل إليهم رقباء يفحصون أعمالهم ثم يرفعون إليه سيرتهم بين الناس فى الأنفس وفى المال ليرى إن

كانوا يلتزمون سنته ويحتذون منهاجه . . أرسل مرة لكعب بن مالك يقول له :

« أما بعد ، فاستخلف على عملك ، واخرج فى طائفة من أصحابك حتى تمر بأرض كورة السوداء فتسأل عن عمالى ، وتنظر فى سيرتهم فيما بين دجلة والعذيب . . . »

وبعث بكتاب إلى عامل — جعل مال المسلمين وسيلة لصيته بين أهل إقليمه — قال فيه :

« بلغنى عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك ، وأغضبت إمامك : إنك تقسم فىء المسلمين الذى حازته رماحهم وخيولهم ، وأريقت عليه دماؤهم ، فيمن اعتامك من أعراب قومك . . . فوالذى فلق الحبة وبرأ النسمة لئن كان ذلك حقا لتجدن بك على هوانا ، ولتخفن ميزانا ! . . فلا تستهن بحق ربك ، ولا تصلح دنياك بمحق دينك فتكون من الأخسرين أعمالا .

ألا وإن حق من قبلك وقبلنا من المسلمين فى قسمة هذا الفىء سواء ، يردون عندى عليه ويصدرون عنه . . »

وعلم يوما أن شريح بن الحارث قاضيه اشترى لنفسه دارا ، فدعاه إليه يعظه ويحذره ، ثم يبكته أشد تبكيت وآلمه وإن لم يشك فيه . . . بدأ يسأله :

« بلغنى أنك ابتعت دارا بثمانين دينارا ، وكتبت كتابا وأشهدت فيه شهودا . . . »

أجاب شريح :

« لقد كان ذلك يا أمير المؤمنين »

فرمقه الإمام رمق عاتب زار ، وقال وهو كالأسيف :

« يا شريح : أما إنه سيأتيك من لا ينظر فى كتابك ، ولا يسألك عن بينتك حتى يخرجك منها شاخصا ، ويسلمك إلى قبرك خالصا ! .. فانظر يا شريح لاتكون ابتعت هذه الديار من غير مالك ، أو نقدت الثمن من غير حلالك ، فإذا أنت قد خسرت دار الدنيا ودار الآخرة . . »

ثم استأنى برهة أتم بعدها حديثا خلط فيه الجد الأجهم بالدعابة الساخرة :

« . . . أما إنك لو أتيتنى عند شرائك ما اشتريت ، لكتبت لك كتابا على هذه النسخة ، فلم ترغب فى شراء هذه الدار بدرهم فما فوق . . »

وكان كتاب الشراء الذى اقترحه الإمام :

« هذا ما اشترى عبد ذليل من عبد قد أزعج للرحيل : اشترى منه دارا من دار الغرور ، ومن جانب الفانين وخطة الهالكين ، ويجمع هذه الدار حدود أربعة : الحد الأول ينتهى إلى دواعى الآفات . . . والحد الثانى ينتهى إلى دواعى المصيبات . . . والحد الثالث ينتهى إلى الهوى المردى . . . والحد الرابع ينتهى إلى الشيطان المغوى وفيه يشرع باب هذه الدار . . . اشترى هذا المغتر بالأمل من هذا المزعج بالأجل هـــذه الدار بالخروج من عز القناعة ، والدخول فى ذل الطلب والضراعة . . . »

أفمن كان هذا حاله ، وتلك أمثاله ، يدع مال المسلمين لكى تستبيحه طائفة تقدمت بقربها منه وإخلاصها له ؟ . . أما هو فلا يفعل وإن نفسه لمحصنة ، وإن قلبه لفى جنة مانعته عن الجور والتحيز . . . حتى حينما تنوس المغويات أهله لا يفعل ، بل يستمسك معهم بعبدئه ، ويشتد أعنف الشدة عليهم وإن أ كلتهم الحاجة . . .

يقبل عليه بالكوفة أخوه عقيل ، علت السن فثقل ، وغلت السلمة فأملق ، لعله أن يجد لديه ما يعينه على الشدة . . .

ويتلقاه الإمام بالاحتفال والتجلة وإن عينه لتكاد تدمع على ما نال منه زمنه ، وقلبه يئن لصبيانه هؤلاء وهم أمامه شعث غبر ، ملكهم الفقر ومسهم الضر .

ولكنه يكتم فى نفسه رثاءه ، ويسأل أخاه فى ترفق ورحمة :

« مرحبا بك وأهلا . . ما أقدمك يا أخى ؟ »

يجيب عقيل :

« ركبنى وهن عظيم ، فجئت لتصلنى . »

فيربت له الإمام ظهره مواسيا ، ويقول :

« إذا خرج عطائى فهو لك . . . »

غير أن الرجل الذى خلف بلده وراءه ، وخرج فى ضباب ناظريه يقوده صبيته فقطعوا به المراحل الطويلة ، لم يكن كل همه أن يطوى الفيار والقفار ليتبلغ بسكة من المال كهذه لا تكافىء مشاقه ولا ترد إملاقه !! . . إنما كان ظنه أن

صاحب كل هذه الدولة العريضة لايؤوده أن يفتح له بيت المال ثم يدعه وما شاء فيه يغترف ويحمل حتى يكل وينوء ! . .

ويلح عقيل . ويعاود بعد معاودة ، وهو يعنف فى الطلب ويشتد فى السؤال :

« وما يبلغ منى عطاؤك ! »

ويحلم الإمام ويصابره :

« وهل تعلم لى مالا غيره ؟ . . »

ثم يتهاوى صبره ذات ليلة بلغ فيها أخوه من إلحافه ومن تعنيفه أقصى جهده وغاية قصاراه . . . فى البدء يقبل بسمعه عليه ، ويبدى له من الرقة ما يطمعه فيه . حتى إذا حسب الشيخ أنه بالغ أربه ونائل طلبه ، مد له الإمام حديدة حمراء محماة فأدناها منه فانبعث من حرها يصيح ! . .

عندئذ يعصف على به يزجره :

« ثكلتك الثواكل ياعقيل ! . . أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه ، وتجرنى إلى نار سجرها جبارها لغضبه ؟ . . »

ليس الإمام إذن بالذى يخون أمانة الله فى يده فيهتبل نفوذه ليرضخ الرضائخ ويقطع القطائع ويجعل مال المسلمين دولة فى طائفة منهم وإن تزلفت إليه بصحبة أو صلة رحم . لايفعل ، وغيره يفعل — معاوية ! . . فما يعني عاهل الشام أن يمنح من شاء أو يمنع من شاء ، فإنما المال — فى اعتباره — قنية له خالصة ، شهواته وحدها ترسم حدود إنفاقه ثم لا رقيب ولا تثريب ! . . .

* * *

برق الذهب ثم قال : « هيت ! » . . فأما ابن زمعة فقد عمه . وأما عقيل فقد خرج إليه . وأما معاوية فقد استغرقت البسمة ما بين أذنيه ! . .

ويتفكر العاهل الوصولى والفرحة تفيض به وتريق لونها على محياه ، كما يسيل لعاب معتوه ! . . فهذان جلب الخير ، أول القطر ، والغيث بعد مدرار ! . . وعبيد الدينار والدرهم كثر ، وما أقل القنع الأحرار فى هذه الدار ! . . حالفه قدره ، والطمع والفاقة . وها هو ذا وقد أقبل زمانه يقوم فينثر ادعاء جديدا له على الملأ من رجاله المفتونين . . يعتلى منبره ثم يخطب وهو يلوح باسم عقيل :

« يا أهل الشام . . . هذا سيد قريش وابن سيدها عرف الذى فيه أخوه من الغواية والضلالة فأناب إلى أهل الدعاء إلى الحق ! . . . »

ويسمع عقيل فيشتعل غضبه لهذه الفرية الكافرة ، ويأبى لنفسه أن يبتلع ما احتوته من تنقص وجور ، فإذا هو يثور :

« . . . قد عرفت من فى عسكر أخى لم أفقد والله رجــلا من المهاجرين والأنصار . ولا والله ما رأيت فى عسكر معاوية رجلا من صحاب رسول الله ... »

ثم يغرق احتجاجة فى تهاتف الجماهير .

وعندما يجلس العاهل مجلسه ، ويرى ما ناله ادعاؤه من كرامة ضيفه ، ينثنى فيلين له الحديث عسى أن يهدأ غضبه ، ثم يدفع إليه بثلثمائة ألف دينار ، عطية سخية يشترى بها رضاءه . . . ويهمس له بخبث تبطن بنفاقه :

« أنا خير لك من أخيك . »

فلا تلوى الشيخ الضرير المنحة الثمينة عن الحق وطريقه ، بل يسرع بجوابه ساخرا كأنه لسعة السوط :

« صدقت . . إن أخى آثر دينه على دنياه ، وأنت قد آثرت دنياك على دينك ! . . »

ثم يمد عينه التى غلفها الضباب كأنما يحاول أن يستشف أثر رده فى ملامح مضيفه ، ويرهف سمعه . ويشحذ لسانه يهيئه للسعة جديدة ! . .

لـكن معاوية لا يجيب . وما جواب يجد الجدال والملاحاة ؟ ... إنه لمشغول . . . خواطره تهيم فى آفاق آماله . تطوف به أرض الإسلام ورقاعها الفسيحة بين قرنى الزمن . تطوى دياره وتقطع أقطاره .. فى الحجاز دارت ، عند الحرمين . وفى مفاوز الفلاة التى تنبسط كالتبه عبر الجزيرة . وفى العراق بمصريه البصرة والـكوفة ، وخلال سواده الذى جرى ماؤه فلانت حصباؤه وملأه الحين والظلال . . . أينما انطلقت عينه فى هذه الأقاليم التى جاورته انثنت نفسه راضية . قد تصيد من رجالها حفنة طيبة ، هم بين أهلهم أعلام . وما دامت الدنيا حسبه ، والزيف وسيلته ، والذهب حيلته ، فإنه لآمن لا يضع قدمه على مزلق ... فليمل إذن ميله ، وليخط خطوة جديدة لأرض جديدة ، عسى أن يجد فيها أناسا من

نفس ذلك الطراز الذى وقع شراكه . . . ليبسط جده ولعبه ، ولينثر مكره وذهبه ، وليقر على طمأنينة ، فلسوف يؤتينه النهم ، والأنفس التى أعياها الصبر ، والضمائر الجريحة طائفة أخرى تتعلق بأسبابه ، وتسير فى ركابه ، ذات غابر فى الغوابر ، ساطع الطلعة ، له إشراق ! . .

٧

الذى أحبه فى البلاد إقليم : جنة يانعة ، بطلع منضود وظل ممدود . تأتيها نعمها وفرة ، على فترة ، كلما طما النهر فسال به واديه الأصفر ، وفاضت قنيه كالعيون ومس بكفه الساحرة صفافه الجرد فجرت بهجة ونضرة . . . وكانت بعيدة عنه بالقلب ، دانية بالقرب ، كأنها من إقليمه الساكن دثار لشعار ! . .

والذى أعياه فى الرجال مارد : جنى من الإنس أو إنسى من الجنة ! . . يهوله طوله ، ويعجزه دهاؤه ، وتكمده خيلاؤه .. . فما كانت قامته بالتى يجزيها أن يقال عنها مديدة ، بل كأنها من نسيج أسطورة ! . . إذا وقف فبرج . وإذا مشى فى الناس تذاءبت رءوسهم بين صدره وخاصرته . وإذا امتطى الفرس الأشرف كان راكباً راجلا تخطط فى الأرض رجلاه ! . . أما دهاؤه فمكر شيطان . وأما خيلاؤه فإدلال بقدرة . وليس مع ذلك بمغرور .

والذى أسأمه فأسقمه ، وأجرى غيظه كالحمى الكاوية فى دمائه : اجتماع الجنة اليانعة إلى المارد الماكر ، وانضواؤها تحته ، يوليها الدهاء فتوليه الولاء . . . منذ دخلها سكنت له ، وخفضت جناحها مختارة غير مقهورة . فما اغتصبها عنوة . ولا نالها بسيف أو ركبها بخوف ، وإنما جاءها — حين جاء — فى سبعة من رفاقه ، قطعوا إليها الفلاة فى ركابه كأنهم ندماه صحبهم لتهون عليه وحشة الطريق . ودخلوها معه بغير اقتحام دخول الأضياف فاستقبلتهم بالقرى والتجلة . .

ولم يكن فى الحق نائما عن مصر ، وعاملها المارد ، وخراجها الضخم الذى لو أحيل عدة لفتح العالم بشرقه وغربه . . أينما سرح فكره بدت له هذه الجنة سعيرا تحترق فيه أحلامه ! .. وقد حسب فى الماضى أنه أمن شررها وشرها حين

بعث بجند اختلب ابن أبي حذيفة من ربوعها إلى حتفه . لـكنها ظلت حصينة دون هواه بعد وقعة العريش التي انتصر فيها جنوده ، وباتت على عهدها إلى اليوم للإمام لا ترد كلمته ، ولا تخلع طاعته ، وإن عاشت فيها فرقة عثمانية انطوت على نفسها بقرية صغيرة كانطواء ثعلب جبان بجحره ! .

وأسف معاوية . فلولا أن عمل عليها قيس بن سعد بن عبادة من لدن على على الأثر لـكان قد وسعه أن يجيش لها كرة أخرى من غاراته ومكر عمرو مايردها فوضى بلا صاحب حتى تنضج بها فتنته فتسقط فى حجره وهو رخى سقوط الرطبة الطرية !.. لـكن الإمام لم يعل له فى رسم خططه ، وتنظيم تدبيره ، ونسج أحابيله ، بل رماه فيها بمن تصغر فى عينيه خدعه فلا يراها سوى عبث غلمة ! ..

لقد كانت العرب تعد دهاتها فتقدم منهم خمسة لا يسبقهم إلى الدهاء سباق . فيهم عمرو ، وفيهم معاوية ، وعلى رأسهم قيس وإن أنف دهاؤه أن يقوده إلى مأثم . . . كان يقظا كذبابة ، ماكرا كشيطان ، ناعما كحية ! . . وكان حبه الإمام يتوثب به إلى الفداء والتضحية ، وإخلاصه له تفانيا فيه ، وإجلاله إياه أدنى درجة إلى التسبيح ! . . وعندما اختاره على عاملا من قبله على الجنة التى اشتاقها معاوية وتاقت روحه إلى امتلاك برها وبحرها ، لم يكن مسيره إليها مسير آمل فى منصب ، أو متوفز إلى جاه ، بل رجاها قناة حادة تخز بسنها عدو إمامه حتى تستلبه حياته . . .

قال له الإمام فيما أوصاه يوم ولاه :

« سر إلى مصر فقد وليتـكها ، واخرج إلى ظاهر المدينة ، واجمع إليك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتى مصر ومعك جند ، فإن ذلك أرهب لعدوك ، وأعز لوليك . . . فإذا أنت قدمتها إن شاء الله فأحسن على المحسن ، واشدد على المريب ، وارفق بالعامة والخاصة فإن الرفق يمن . . . »

فأبى عليه إشارة وليه على نفسه أن يستبطن جندا قد يكونون عدة تمين الإمام فى ذلك الوقت الذى تنادت البصرة فيه للثأر ، وتشرعت للحرب ، وطاف رجالها بهودج عائشة طواف المجوس بالنار ! . . قال يجيب مولاه :

« رحمك الله يا أمير المؤمنين ، قد فهمت ما ذكرت . . . فأما الجند فإنى

أدعه لك فإذا احتجت إليهم كانوا قريبا منك ، وإن أردت بعثتهم إلى وجه من وجوهك كان لك عدة . . ولـكنى أسير إلى مصر بنفسى وأهل بيتى . . . »

فإن هى إلا أيام حتى كان قد دخلها ، وما فى ركابه إلا سبعة ، وما فى عينه سوى دعوة بيعة . ثم شهدته الفسطاط يقف على منبر جامعها يخطب الناس فى طمأنينة وثقة :

« الحمد لله الذى جاء بالحق وأمات الباطل ، وكبت الظالمين ... أيها الناس ، إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله . فإن نحن لم نعمل لـكم بذلك فلا بيعة لنا عليـكم . . »

ومع ذلك فلم يقنط معاوية ، إن مصر بايعت لـكن دعاته بواديها الأخضر فى جنة ومعقل — تلك الفرقة العثمانية المعادية التى ترنو إلى دمشق بنظرة الولاء لم يمسسها من الأمير الجديد عنت ، ولم يلحقها عسر أو ضر . . . لان لها قيس وإن أبت الطاعة ، وأفسح لها فى رحابة صدره ما بدت به عزيزة الجانب فى أعين من يرونها تأبى وتخالف فلا يصيبها جزاء المخالف ! . . إنها ، على تمردها ، لموفورة السلامة ، آمنة السرب كحمام الحرم ! .. لـكأنها من وجارها ذاك لصيقة بصاحب الشام دونها حصونه ! . . لـكأن « خربتا » دمشق صغيرة فى أرض النيل ! . . لـكأن أهلها — كالأولى تحدثنا بسيرتهم الأساطير — قد أحصنوا جلودهم بالرقى المعيذة تعصمهم الحتوف فترهبهم السيوف ! . .

وكتب إليهم قيس :

« إنى لا أكرهكم على البيعة ، فأنا أدعكم وأكف عنـكم . . . »

فـكان حقا لمعاوية أن يستمسك بأمله فلا ييأس اليأس كله . بل يتربص مع الأيام عسى الأحداث تعينه على الإفادة يوما من حزبه الرابض بالقرية الصغيرة .

فلعلها السياسة . أو لعله الدهاء قد زين للعامل المارد هذه الخطة الناعمة يتناول بها فرقة المعارضين العصاة أو لعلها ظروفه التى لم تدع له إلا طاقة محدودة قد قهرته على الصبر والموادعة . فما دخل إقليمه بقوة حربية كالتى حضه على اتخاذها الإمام تشد من أزره فترهب أعداءه ، وتعز أولياءه ، وهل كان حوله سوى نفير من أصحابه لا تـكاد دماؤهم حين البأس تروى حديدة حسام ! . .

رفق بهم إذن وقد كانوا جديرين منه بغير الرفق والهوادة . وداورهم جهده وإنه — فيما نحسب — لمقهور على أداء دوره ، مغلوب أمامهم على أمره ، وهل كانت ظروف أحواله : فقره فى السلاح ، وقلة النصير ، وترقبه البيعة تأتيه من أطراف إقليمه إلا مملية عليه أن يبدى من الحية جلدها الناعم ويخفى نابها السام ؟ .

أما هم فلعلهم كانوا أشد قوة بتوحد كلمتهم ، واجتماعهم فى رقعة صغيرة من الأرض هى بهم كالحصن وإن كانوا ذوى عديد قليل . فما طاقته ؟ وما قصارى جهوده إن هو بادأهم بالعنف وإنه لـكالأعزل ؟ . . أولى به إذن أن يستشف عقبى إقدامه قبل أن يقدم ليتخير خاتمة آمن وأسلم ، وأن يعمل بحذر فيعالج الداء العصى بالدواء الأيسر وإن لم يكن الأنجع الأحسم ! . .

فياترى قد تجنب الخطر أم تجنب الحزم حين استباح لنفسه أن يتحرر من وصية الإمام فلم يشدد منهم على مريب ؟ . ما تركته الفرقة المتأبية لحظة من زمان — منذ دخل الفسطاط — فى أدنى شبهة مما يبيتون . . . إن بلدتهم لدار فتنة : وإن نهجهم لعصيان . وإن عزمهم لتشرع لاعتداء مسلح عليه وعلى وليه وعلى السواء حين تلوح فى أفقهم بارقة ظفر . . . لم يكن قيس فى شك من هذا كله أو يكون دهاؤه اختلاق راوية ! . . ولـكنه مع هذا يلزم الروية والريث ، ويبدى لهم من اللين ما يوشك أن ينتقص من هيبته — حتى حينما تنادوا فيما بينهم بالتمرد ، وتهاتفوا جهرة بالانتقاض ، ودعوا إلى خلع الطاعة بألفاظ الثأر لعثمان، لا تراه يهز فى وجوههم قناة أو يلوح بوعيد ، إنما يتلقاهم بما هو دون اللوم وأدنى إلى العتاب الرقيق فيبعث إلى داعيتهم : مسلمة بن مخلد الأنصارى ، يقول :

« ويحك ! . . أعلى تثب ؟ . . فوالله ما أحب أن لى ملك الشام إلى مصر وأنى قتلتك . . . »

ويبعث كذلك إلى القوم كلهم يؤمنهم :

« إنى لا أكرهكم على بيعة . . . »

فإن هى إلا هدنة عقدها ، وعهد قطعه على نفسه حتى كان الخبر قد جاءه من البصرة بمصارع الخارجين على إمامة الإمام . . . الرحى الحاصدة التى خافها

معاوية على شامه وأحلامه قد عملت . دارت شقها هناك بالعراق . مشى على على عدوه بالمنايا المغيرة . عصف بجندهم عصف الأهوية الثائرة بالهشيم . أكلت ناره « الجمل » ثم ذرت عظامه رماداً مع الريح ! ..

ويصبح صباح ، ويمسى مساء ، وصاحب الشام بين يد قلقه مضيع ، يوشك من خوفه أن يرى الجحافل الغازية تفيض عليه كطوفان ، من مجرى دجلة ، من مفازة الجزيرة الجرداء ، من شاطيء الفرات الأدكن ، من ضفة النيل عبر رمل سيناء . . . أمس وحده كان عمر راحته ، وهدوء خاطره ، وطمأنينة باله ثم دفنه الليل فى سواده ! . . وعندما فاز حزبه المصرى بتلك الهدنة العارضة ود بقلبه لو طال عهدها فترة من زمان يمد فيها إعداده . أما اليوم فهى فى الغابر — حبل أمنه قصير ! . .

ويتلفت العاهل القلق وهو ريشة فى لجة اضطرابه فلا يسعفه ذهنه بغير الحدس والظنون والرجم بالمغيب المجهول من كل مرتجى ومأمول ! . . فلو قر على . . . فلو أقره على أرضه كما ولاه قبله عمر وعثمان . . . فلو نسأه الحرب إلى حين . . . إنها منى اثن كذبته من بعد لقد ظلت زمنا مفتاح السياسة التى انتهجها طويلا قبيل وقعة الجمل وفى أعقابها وكان بها يداور ويحاور عسى أن يفوز ببعض أربه . ولكن عينه كانت دائما على قيس ، فى إبان شدته ورخاء حاله على السواء . وهو اليوم لا يميل بوجهه عنه ، ولا يغفل لحظة عن أية حركة تند منه بالوادى الأخضر ! فكل همه أن يدرأ عن نفسه دهاء المارد وطاقة عصر مكتنزة لو خلى بينها وبين الانتشار لهزت الدنيا ، وفتحت العالم بشرقه وغربه ! . .

لكن شق الرحى الثانى لم يدر دورته ! . . همد حركة . جنح صاحبه به إلى الركود . . . فما تحركت بمصر قدم أخذت طريقها إلى الشرق نحو فلسطين ، فدمشق ، فأعمالها الكثيرة المتاخمة للروم . ولا انعقد بها لواء . ولا تكتبت كتيبة لحرب متمرد الشام . . . فلولا أن يقال مخدوع اقال معاوية إن صاحب النيل قد آثر القعدة بضفتيه يتفيأ نعيمه ويستروح نسيمه ! : لكنه عرفه أخا بصر وبصيرة ، فلأمر ما قد تثاقل إذن عن اهتبال فرصة النصر ، الذى حازه الإمام بالبصرة ، وسار ذكره فى الأمصار فكبت أعداءه وأعز خلصاءه وأولياءه . . .

لأمر ما يدع قيس الآن عليا فى عرقه ، وفى النقع الغامر الذى انجاب عنه القتال. وفى هم حازب غالب من الإعداد لملاقاة خصمه العنيد فى دمشق ثم قبع ينظر ساكناً من مغانى جنانه !..

ففيم كان سكونه وكان انتظاره وقد عز جانبه وعلت كفه وكف الإمام بعد نصره ذلك المؤزر ؟ . . إنه ليس عن فتور همة ، ولا عن غفلة ، ولا عن قلة حيلة أو قصور فى عتاد وأجناد . فلقد دانت له البلاد فى واديه إلا بلدة ، وخضع الناس من رعاياه إلا فرقة ، وجاءه خراج أرضه وفرا خالصا بغير عنت ولامنازعة فى الأيام القلائل التى تلت دخوله الفسطاط أعزل ، استطاع العامل الداهية المملاق أن يسوس فيحسن حتى غدت أمور إقليمه خيوطا معقودة بإبهامه ، ففاض المال ، وانحنى الرجال ... فلو قد أراد أن يعد لأعد ، وأن يحشد لحشد . ولو قد مد إصبعاً بحركة وعيد إلى خربتا لأقبلت إليه تهطع وهى تخفض له رأسها ذليلة . . ولو قد تأبى عليه أهلها ساعة لما شهدتهم بعدها ساعة إلا صرعى على غبارها ، لفظهم الحاضر وحضنهم الغابر ! . .

غير أنه رآها ، كأنما شاء أن ينسئها أجلها إلى حين ! . . وبقى على عهده لها ، محاجزا بينها وبين نابه ، حاويا بأسها فى إهابه ، كحية وعصفور ! . . فيما أحسب كان قيس مؤمنا يقدر نفسه أقوم إيمان ، واثقا بجدوى تدبيره أعظم ثقة ، فلم يرده شىء عن احتذاء خطة له رسمها فى حيطة وراح ينفذها فى تحرز وكتمان . . . إنه ليسر نواياه ، ويلفها من الغموض بأبراد ثقيلة كثيفة حتى لتختلط حقيقة أمره على نصيره اختلاطها على غريمه . . من البدء كان هكذا ، ومن بعد امتثل نفس المنوال . . أو ما أقدم حين كان يجب الإحجام فدخل على أمة ديارها وهو أعزل بغير عدة ولا أعوان ؟ . . أو ما أحجم حين كان يجب الإقدام فأغمض عينه عن خربتا وأهلها المخالفين وقد هاض حزب عائشة واستطار من أنباء ظفر الإمام ما دفع أعتى عدوه إليه يتكفف الأمان ؟ . .

إنها خطة ، لا مراء ، عصية على الفهم ، ليس لها من المنطق عماد . . . حتى معاوية ضل فيها دهاؤه . يوم استقبلت مصر قيساً بالصمت ترقب العاهل الأمور فى صبر ، فلما رآها يهادن فيها ثعالبه تطلع نحوه بحذر . . . كان الموقف حينذاك

لا يكاد ينضح بعقباه . كانت فوقه غمامة ناشرة حجبت من الأفق صفاءه وشابت رواءه حتى لقد حار الداهل التائه فى مجاهل ظنونه أتلكم الخطوط الداكنة فى سمائه عبسة الغروب يتبعها ليل أم ظلة سحر يعقبها فجر ! . .

وفى ثنايا توجسه الحائر جاءه الزمن بالجواب .. صاحب الشام لم يطل قلقه ، ولم يضرب به خياله أشواطاً وسيعة فى غمرات الحدس والوساوس . فلقد أقامت نشوة النصر إقلاع سحابة صائفة ، وسكنت الأنفس التى كان يزلزلها الخوف ، وقرت القلوب الفزعة من بعد وجيب . . . ومع ذلك فقيس هناك بمكانه على النيل ، ما زال على لخربتا فى الأمان واللين ، لا يشحذ سيفا ، ولا يهز إصبعاً بوعيد ، كأنما كل همه قعدة ناعمة على الضفاف الخضر فى مغانى جناته ! . .

٨

الزمن له ! . . هذه فسحة منه طال بها عمر أحلامه . كانت بلسما لحيرته . شعاعا هاديا فى ظلام حاضره يبدو كسفة من ضباب غده المجهول . دعامة جديدة فى مجازه إلى مجده . . .

وطاب نفسا معاوية . وحق له . فحين يستنبئ الآن رجاءه يرى دنياه فى عينه ، كأنما أقبلت عليه مجلوة ، على وجهها سلام وعلى ثغرها ابتسام . . . وحين يحاول أن ينشر الحيلة لا تتعثر به الوسيلة ، فالجبهة وسيعة ، والخدع حاضرة ، والباع طويل ، والخطر قليل . . .

ذات يوم ضل حدسه فى سياسة المارد الداهية الذى يحكم النيل . كانت عميقة كهاوية ، مشوبة كصفحة البحر الثائر فى يدى عاصفة ، خافية السكنه كالفضاء المغيب . . . أمس ظنها هدأة الطبيعة الخادعة تتهيأ لإعصار ، فأورثته القلق والتوجس . كان غموضها يملأ الجو عليه بالوساوس ، وكان خرس صاحبها عنه ينضح بالريبة . . . لكأن غفوته تلك بالوادى الأخضر تربص ذئب ينام بعين ويرقب بعين ! . . وقعدته إقعاءة الوحش يتهيأ للانقضاض . وهل كان قيس إلا حية مخاتلة ؟ . . .

ثم مضى الأمس هادئا كسابقه، وانقضى اليوم ناعما كأمسه . وغاب الغد على أثرها فى رمسه . . ليالى ونهر ما كان أطول سويعاتها الحائرة وما أشقها وأثقلها على نفس عاهل الشام ، إنها صهرت عزمه ، وأوهت صبره . . . شدت قبضتها العاتية على نحره ، وجثم شيطانها على صدره . . . ألصقت أهداب عينيه أمسيات طويلة بالنجوم الماحة ! . . ولكنه تحصن أثناءها بأمن اليائس الذى لا يملك سوى انتظاره إشماعة الفجر وبوارق إصباحه . وراح يتلمس جهده ثغرة ان كانت كسم الإبرة فى سور همه فمساه أن يتنفس من خلالها نسيم الخلاص ! . .

وها قد أملت الهدنة له ، وجاءته بليالى من هدوء جأشه استطاع فيها أن ينقب بظفره الجدار ! . . ولم تكن فى الحق هدنة قد عقدت له ، بل هى عهد بالمسالمة بين قيس وخربتا الناوئة . ولم تكن سلاما ساد بين مصر والشام ، بل هى غفوة عارضة شاءها النيل الزاحف فى مهاده الرملى كالأفعوان ! . . ومع ذلك فما كان معاوية ليأمن مغبة ذلك الهدوء الثقيل الذى التزمه حارسه العملاق القابع له خلف الأسوار ، أيما رجل غيره كان حريا به كشفه أن يحار ذهنه فى الخطة المسربلة بالغموض . المسترة من الإسرار بألف ستار وستار . إنه ليؤوده أنها مختلطة الخطوط ، مطموسة المعالم كعبث الأهوية الهوج فى نقا الرمل أو بصفحة الماء . لا ترتكز على منطق معلوم فلا يتبدى من نتائجها ما قد توحى به المقدمات ولا تسير فى اطراد وموكب الحوادث السيار . . ليست سلماً يعلن فيؤمن جنابه ، وليست حربا يشهر فيتسع رحابه وتشرع أسبابه . إنما كقارب ضال ، كسير الشراع ، فى يدى نوء مجنون ، يجذبه ثم يرخى له ، ثم يرخى له ويجذبه فلا يلوح لذهن ثاقب أين مرساه .

على أية حال استطاع عاهل الشام أن يتنفس الرجاء فى أعقاب الهدنة التى امتد بها الأجل بعد انقضاء آجال « عسكر » وأجناده ، الذين شهدتهم البصرة صرعى على ثراها المبلل . وسعه من تلك اللحظة أن يتبين فى الأفق ظلة فرصة مولية شابت سماء مصر بالدكنة ، ولمعة فرصة مواتية أشرقت فى سماء شامه وأحلامه . لكنه فى ذروة بشره لم يكن يحلم بأن يهد على العامل الداهية عرينه أو يشوش سكونه . حسبه أن يرقب سنته ، وأن يقابل وناه بوناه ، وأن يقبض

كفه أن تقطع عليه رقدته فتوقظ فى صميمه غضبة جبار تعقب الويل وتورث الدمار ! . .

لكن كر الليالى ، وتوالى الساعات عليه وهو فى مرقبه ، وذلك الشلل الذى ضربه على أصابعه المتحفزة للنضال ، لم تكن كافية أن تتقدم به إلى الأمام خطوة نحو أربه . ذلك الجهد السلبي الذى بذله تجاه خطة غريمه الخافية عن تقصيه كان مضيعة لعمره ، مثقلا لقلبه ، موهنا لأعصابه . وإن غده لمجهول . وإن أجنة الزمن التى لن يلبث أن يدفعها ولائد إلى الحياة لمغلفة من الغيوب بما يحجبها عن وعيه ، وعن استقرائه ، وعن استيقان ملامحها أهى سليمة أم هى شوهاء ؟ . . فما يدرى على أية هيئة ستكون ظروفه ، ولا فى أى قالب يسويها قدره . وما يسعه لحظة من هنيهة أن يثق باليوم القابل وإن اطمأن إلى اليوم الراحل بعض اطمئنان . وهل فى مقدوره أن يقيس غده بحاضره وقد حذرته خطة قيس المغشاة ألا يركن آمنا إلى القياس ؟ . .

كلا بل يعمل . ويعمل فى عجلة لا تنسيه حذره . ويعمل ليومه فى يومه دون ترقب لما يحتمل أن يطلع به غد غائم لما تتضح له تباشيره . الآن إذا غفت مصر ليس بعينه من خطة أميرها شىء إلا أنه فى غفوة ، تخلبه قد انكمش فى إهابه ، وخطره نام إلى حين . والإمام أيضا مشغول عنه ، ينفض عن نفسه غبرة الحرب ويلعق كالليث جراحه ! . . وتلك الوفادة التى ما ونت تحثه على الطاعة دواؤها لديه حاضر . وهل أنجع لها من مطل يردها عنه خدرة كليلة ؟ .

فى هذه السويعات الحاسمة من تاريخه بدا معاوية كمن قد أوتى حاسة هادية توجه خطاه ، وتسدد نظرته ، وتوفى به رويدا رويدا على غايته المرتجاة بغير عسر ولا مشقة . لكننا ، فى الواقع ، نسلبه نصيبه من الحزم إن وكلنا تصرفه كله إلى جده السعيد ، ونجنى على الحقيقة السافرة بما يحجب وجهها عن العيون . فما كان صدفة ما هداه . ولا صوتا هاتفا من السماء تنزل بالخطة المثلى إلى هذه الأرض فانحرف سراه إلى سمع شيطان ! .

لم يكن غيبا انهتك ستره وتكشف سره فوضحت لأهل الشام من خلاله المعالم ، إنما نفسه دليله . هى هاديته . كانت مشعلا له أنار السبيل الذى اعترضته

الحيرة ، وسدته ظلمة الغد المجهول ، مضت به إلى مراميه وهى تحترق من جزع ، وتتوهج ، ويسيل ذماؤها فى كل خطوة كقطر الشموع ! . . إنه لم يكن غرا ، ولا مخدوعا عن هدفه ، ولا جبانا يرده النكوص وإن أبدى ريثا كان يلبسه أحايين كثيرة ثياب متوا كل قليل المبالاة أو متردد مفلول الحيلة . . وحين رأى مصر تعنو لخصمه ، راحت الحيرة تعبث به عبثة الكأس بنشوان لكنه لم وعيه المبعثر ، ونفض عن رأسه النشوة المغيرة . وما زال ذهنه يسير به حتى التقى همه برمل سيناء فجمل بإزاء أرضها ثلاثة رهط من أعوانه أشدة ، أقامهم على فلسطين ليدرأوا عنه ثعبان النيل لو شاء زحفا على تخومه . . ولم ينم لياليه أيضا حتى كاتب الثعالب المحتجرة بالقرية الصغيرة ، فرقته بخربتا ، عسى أن تكون له فى الوادى عدة حين يأزف الصراع . . .

تستر الرجل بالخفية فى ضلته بعمّزلة مصر ، مناهم عونه ، فرشهم عروضه ودنياه . سارهم وناجوه سرهم ونجواه . . . ولم يكن يخشى عليهم غائلة من أميرهم الجائع إلى سنته ، فقد علمه ذا وفاء ، لا يتنكر لعهد ، ولا يمثل لغدرة . . ومع ذلك فما أعجب أن تكون الخطة التى رسمها معاوية فى كفاحه قيسا ، تدور رحاها كلها على اختبار العهود المقطوعة : أهى عارض أملته الحاجة ، أم سليقة أنجبتها الخلائق النقية المطبوعة على كل خلة كريمة وسجية أبية مستقيمة . . . وكانت نفسه هاديته ، كما أبنا ، فى هذا الميدان . ففى مرآتها يرى غيره ، فيحسب له الوفاء عجزا ، أو حيلة ، أو وسيلة ! . وقد انتهى به تفكيره فى حال غريمه ، القابع هناك فى مغانيه ، إلى العلم بما فى يديه من قدرة وحول اجتمعت بهما له أفياض المال وسواعد الرجال . . . وأيقن أيضا أن الحيلة فى جعبة قيس إن كانت معدة حاضرة فهى عدة الظلام لا يطولها حدسه وقد تطيش فى استنباء كنهها ظنونه . . . كلا الفرضين لم يكن مسعفه على التقدم إلى هدفه ؛ فلم يبق سوى « الوسيلة » علة يفترضها لصمت داهية النيل ! . .

ولم يضيع وقته ، فالعمل وحده قد يكشف له عن مسالك يشقها كيده ! . . وكانت الفكرة التى لا ريب سيطرت على ذهنه تتفق ونهجه فى الحياة ، وتسير وطبعه فى سبيلها . إنها سليقة التاجر النهوم للربح يلتمسه من أدنى طرقه

وإن خاض إليه على أنقاض الذمة ! . . إنها شيمة المساوم النهاز ، يمد الصاع ليغنم الأصوع ! . . وهل يجول له بخاطر أن صمت قيس عنه وعن أضرابه المخاتلين من معتزلة النيل كان ابتغاء مثل سامية ، ونبت نفس كريمة تنفض الأثرة وتدنى الإيثار ! . .

وفى عجلة وأمل غمس قلمه فى مداد المنى الخداعة ، وزيف الأباطيل ، وبرق العروض السخية التى تغوى ، وتفتن ، وتميل بالقلوب النهمة الوصولية إلى كل مميل . . وكتب بيد المساوم المضلل رقعة سوداء ، كلها رياء ، وافتراء ، ومراودة ملحة عن الخيانة :

« من معاوية بن أبى سفيان إلى قيس بن سعد :

سلام عليك . أما بعد . . .

إنكم إن كنتم نقمتم على عثمان فى أثرة رأيتموها ، أو ضربة سوط ضربها ، أو فى شتمه رجلا ، أو تسييره أحداً ، أو فى استعماله الفتى من أهله ، فقد علمتم أن دمه لم يحل لكم بذلك . . وقد ركبتم عظيما من الأمر ، وجئتم شيئا إداً . »

فتب ياقيس إلى ربك إن كنت من المجلبين على عثمان . . فأما صاحبك فإنا استيقنا أنه الذى أغرى به الناس ، وحملهم على قتله حتى قتلوه ، وأنه لم يسلم من دمه عظيم قومك .

فإن استطعت أن تكون ممن يطالب بدم عثمان فافعل . تابعنا على أمرنا ولك سلطان العراقين إن أنا ظفرت ما بقيت . . ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لى سلطان ، وسلنى غير هذا ما تحب ، فإنك لا تسألنى عن شىء إلا أوتيته . . .

والسلام » .

وختم كتابه وإن بنفسه لجزعة من مغبته أن يوقظ غضبه الثعبان النائم . وإن بها كذلك للهفة أن تصادف عنده ضميرا يكون خيالا لضميره ! . .

ولتنبئنه الأحداث . . .

٩

أما الافتراء فهو ديدنه . ما انثغرت أمامه قط ثغرة إليه إلا اقتحمها بلا ونى أو تلبث . . كان عماد سياسته المناهضة للإمام والمحور الذى يدور حوله تدبيره . وحتى عندما قضى الخليفة الشريف أيامه الدنيوية ، ووسعته رحمة السماء ، ولم يدع على هذا الكوكب الدنس إلا تراثا روحيا له نقاوة الندى فى البكرة ، وطهارة قلب المولود ، وعطر الزهرة الريانة حين تتفتق عنها الأكمام — حتى بعد أن غدا الإمام ذكرى للذاكر ، ونورا من الغابر يهدى فى الحاضر ، وزادا طيبا للعقول والخواطر ، لم ينم معاوية يوما واحداً عن رميه بأباطيله المفتراة . . وإنك لتراه وقد غدت الدنيا بكفه ، وجثا الإسلام عند قدميه ، لا ينى يأمر الناس أن يسبوا عليا ، ويهيضوا من قدره ، ويركبوه بكل مذمة ومنقصة . فإذا قيل له ليكف اندلاع لسانه الكذوب العياب : « إنك يا أمير المؤمنين ، قد بلغت ما أملت ، فلو كففت عن الرجل » — أبى وقال : « لا والله ! . . حتى يربو عليه الصغير ويهرم عليه الكبير ، ولا يذكر له ذاكر فضلا ! . . . »

وأما الجزعة على مصيره أن يرسمه قيس فنبأها مع الليالى الطويلة التى حالفته فيها اليقظة ! . ما كان ليقر جنبه أو يلين فراشه وذلك العملاق يتراءى له فى خيالاته كأنما يوشك أن يعبر سيناء ، ويقتحم فلسطين ، ويدق عليه أبواب قصره فى دمشق الفيحاء . . فلو فعل لجاءت النهاية ، وجاءته من جانبين ، شطرها من العراق والآخر من النيل . وهو بهما حينذاك كمن شدت أوصاله جميعا إلى فرسين ثم ضربا ليجمحا : هذا إلى يمين وذلك إلى يسار ! . .

وأما الرجاء الذى احتوته لهفته فقد طلع عليه ذات ليلة صافية الأنجم فى حساب أوهامه وإن كانت حقا غائرة الأعين كثيفة الظلال . . . إنما ضل فيها حسبانه . بدت له كظنه من خلال الطبيعة الحادثة التى أخذت حينذاك تنفض عن نفسها رهق الصيف ، وتخلع ثياب الهجير ، وتتعرى من أبرادها الخضر تبترد فى نسمة الخريف البليلة ! . . ولاحت كذلك من خلال أمله الشهى الحلو ، الذى حمله

كتاب وولده كتاب ! . لكأنها جاءته بحلم عمره ، وغاية المرجو من قدره المترفق وحظه المواتى السعيد .

فليكن له إذن وهمه . وليكن له بشره ساعة أو سويعات من ليلته تلك « الصافية — الدكناء » وهو يرتل جواب قيس له كأغنية ! . . ففيه متعة . وأطياف رجاء . ومزلق يؤدى عاجلا إلى الخيانة كظنه السارح الضليل ؟ . . قرأ معاوداً وهو نشوان :

« . . بلغنى كتابك . وفهمت ما ذكرت فيه من قتل عثمان ، وذلك أمر لم أقارفه ، ولم أطف به .

وذكرت أن صاحبي هو الذى أغرى الناس بعثمان ودسهم إليه حتى قتلوه ، وهذا ما لم أطلع عليه .

وذكرت أن عظم عشيرتى لم تسلم من دم عثمان ، فأول الناس كان فيه قياما عشيرتى . .

وأما ما سألتنى عن مبايعتك على الطلب بدم عثمان ، وما عرضت على من الجزاء به ، فقد فهمته . وهذا أمر لى فيه نظر وفكر ، وليس مما يعجل إلى مثله . . . وأنا كاف عنك ، وليس يأتيك من قبلى شىء تكرهه ، حتى ترى ونرى . . . والسلام » .

وبطيه الكتاب الذى أقبل عليه من مصر إقبالة النسمة المعطرة ، طوى معاوية إحدى صفحات قلقه . إن سفر متاعبه ضخم،والسطور التى خطها الزمن فيه تكل فى تبينها وفى استيعاب ألفاظها المتداثبة عيناه . ولكنه مع هذا قانع قرير ، قانع أيما قناعة ، وقرير إلى غير قرار . أم قد خدعه حينذاك تقديره فماش صدر ليلته تلك وهذا الكتاب عيش طفلة ودمية ؟ . على أية حال غمرته الفرحة المفاجئة — لاريب — من هامة لساق . ظفر خياله السارح فطوف به كالنحلة فى مغانى أحلامه ، انتشر أمله الجامح انتشارة الضوء بين وضحة الفجر وحمرة الغروب . . . فهلا أمن ؟ . . بل يوقن . بل يطمح . بل يبنى البواذخ الشم على دعائم التصور ، وطيدة رفيعة كأنها الصروح ذات الأبراج ، فالمارد الجبار خلع جبروته : استأنس الوحش الذى تهيأ طويلا للانقضاض ، غدا وادعا كحمامة، أليفا كهرة ، حيياً كعذراء !

ما كان أبهاه بدء ليله ؟ . . فما يريبه الآن ، وما يشغله فى مصر ، من جيرة النيل ومفازة سيناء ؟ . . . هذا عهد من الداهية فى كتاب ، مصانعة ، كتابة كبايعة ! أم لا فأين الساعة ولاء قيس لعلى وإنه للمليم حق العلم أنه شهيد فرية ؟ .. فيم صمته إذن عن هذه التهمة التى ألصقوها بسيده ، الموغلة فى الحيف ، الغالية فى الباطل ، المنسوجة من خيوط الحقد بإبرة المطامع ؟ . . كيف لم يدفع بجد قلمه ، لا حسامه ، عن إمامه فجاءت سطوره لينة على استحياء كأن قد أنفت الإنكار ورضيت الإقرار ؟ . .

فى خاطر الماهل ، الذى استخفه فرحه ، كانت « الوسيلة » وحدها هى التى سطرت حروف الجواب ... ذاك حسبانه صدر ليلته . وإنه ليفكر ساعة بشره هذه فى أمر قيس ، وموقفه اليوم وموقفه أمس ، فلا يرى علة تفسر له نعومة غريمه المارد إلا إضماره فى دخيلته العميقة كالبئر هدفا خالصا محببا لنفسه ، راح يعد له ، ويصابر فى حذر ، ويستأنى بزمنه عسى أن يبلغه إياه ذات يوم قابل وهو رابض هناك بجانب النيل . وما هو بردود أبدا عن وطره الخفى المأمول . وما هو بثمنه إلا هذا السكوت عن غريم صاحبه مرة ، وعن ثمالب خربتا مرة ، حتى تأزف آزفة يستطيع خلالها أن يساوم من شاء على ما شاء . ولعله ، إذ ينادى النفير للحرب ، وتدوى الطبول فتنفلق الهام وتتناثر على الثرى فتات الأجسام ، عامد إلى الفرصة السانحة المرقوبة ، فناهض فيها لأمره ، يساوم أو على وهو حينذاك القوى الأغلب الذى لم تصبه بعد قارعة ، ولم ترهق سيفه الحادثات الجسام ! . .

ويقلق معاوية . دون هذا ويسود ليله ! . . تلك الأمسية التى تبدت لعينه صافية الأنجم أخذ ينقب وجهها ضباب . كلما انطلق به الفكر ، والزمن ، فى ساعاتها الوئيدة : من جبينها ، إلى النحر ، إلى الصدر ، إلى الخصر ، إلى الأطراف التى همت توفى به على النهار ، وجدها ذات وحشة وظلمة ، غارت نجما — فى باله — كليلة فى الشتاء عابسة وإن عرفها من بواكير فصل الخريف . . ! كتسى هيكلها كله بمثل القار ! ..

وكان اضطراب ذهنه ، لا غيوم السماء ، هو ما حجب صفاءها الرائق عنه ، وعبث بأمنه ، وطرد طلائع الطمأنينة التى غزت خياله الفسيح ساعة الغروب !..

فما وراء هذه المصانعة ؟ . . ما غاية قيس من الليونة التي خطها جوابا على الإغواء والنعومة التي استقبل بها الافتراء ؟ . . أحقا التوى ومال ؟ . . أعن حب نفع ، وصدق نية على تبادل المغانم واقتسام الأسلاب المتخلفة بعد من أنقاض دولة الإمام أم هو لين الرمال الرخوة ما تلمسها قدم حتى تميد تحتها وتنهال ؟ . . أم نعومة الحية المخاتلة ؟ . . أو تلألؤ السراب ؟ .

ذات غد غير بعيد ، حين فشل إغواؤه ، وضلت وسائله عن ضم قيس إلى صفوفه ، وتسعرت بينهما المناجزة والجفوة ، كتب إليه معاوية يذمه ويعرض به :

« إنك يهودى ابن يهودى . . . . . »

فجاء نعتا إن يكن لا يطابق فى حقيقته صفة المنعوت فقد صور لنا رأى ناعته فيه ، ولم يكن معاوية — إذ نعت — ملهاة غضبة جارفة ، ولا أسير خيال أحمق مريض ، وإنما استملى ظروف ماضى المارد ، وعيشه الشباب بالمدينة ، وعشرته فيها قبائل اليهود جيران قومه الخزرج وأحلافهم قبيل الدعوة . . . فإن كان هكذا رآه ، فقد وفر له من طبيعتهم النهازة ، وأثرة تأسره ، وتلوى خطواته وتدفعه أمامها ريشة خفيفة فى رياح أطماعه .

لتوشك إذن هذه الصفة أن تجمع الغريمين فى سبيل ، يلتقيان على نفع . . . ومع ذلك فمن يدريه أنه لم يقبس من اليهود غير هذه من خبائث ؟ . . بل يؤوده أن يطمئن له ، غداً كأمس ، وإن غدا بعد رقيق فضله وبذله مما تسعه تلك الأمانى والعروض . فهو يومه — إن مال — خائن وليه الأول : الإمام ، وهو فى غد — إن وفى لطبعه — للجديد أخون ، وتلك شيمة كل غادر خؤون ! .

ويصابر معاوية هذه الفروض المثيرة التي أمطرتها سماء أمسيته ! . . لود لو انطوى فى فراشه وهو نشوان بنصره صدر الليل ، والرجاء حينذاك يهدهد خياله ، لكنه الآن لقى فى أيدى قلقه ، وخضم أفكاره ، والوساوس التى تترى عليه أمواجا وراء أمواج . . . فذاك « اليهودى » قد حيره ، وما يحسبه ، هذه اللحظة ، إلا انطوى مثله فى أمسيته ، يفكر ويعاود التفكير وقد أمسك كتابه بكف يهودية ، وراح يطالع سطوره الملتوية المرة الثانية ، للثالثة ، للعشرين بعد المائة على عادة إسرائيل الحذرة ! . . أفتقتله يا ترى الوعود ؟ . . بل كلا . إنما رجل غيره ولو كان غرا لا تجوز عليه هذه الحيلة ، التى لبست

بالعروض السخية وبطنت بالأمانى المعسولة ! . . وما كان قيس بالغر الذى يفتنه الزخرف البادى على اللب الزائف المموه . . ليس غرا فيرتمى فى لهفة على قبس الضوء الذى شبه مساومه ارتماء فراشة فى لسان اللهيب . ليس غافلا فيهطع إلى خيال الرضيخة السمينة المشتهاة ، المنعكس من خلال كتاب الإغواء ، كأنه محروم منهوم . . ليس أحمق — قبل هذا وذاك — فيؤمن بصدق النية التى لوحت له بنصف ذلك الملك المؤمل الفسيح . .

وعندئذ حق لمعاوية أن يلوم نفسه أعنف اللوم ، ويغرق فى عذلها كل الإغراق ، فلو اقتصد فى عروضه لكان خيرا له ، وأجدى عليه ، وأحرى بها أن تبدو للعيون صادقة فتميل إليه نفس قيس لو شاء أن يميل . ولكنه أباحها بقلمه مالا يبيحه بقلبه ، ومط أمامها رقعة السخاء مطا شديدا حتى رقت وكشفت من خلال شفافتيها خدعته ! . . أم لا ، فما الذى بقى خالصا له ، هو الخليفة المرجى ، من الدولة التى وسعتها أطماعه وسلبها خداعه ؟ . ما الذى تحتويه كفه وقد أهدى مصر لابن العاص ، وأقطع العراقين قيسا وله غيرها ما أحب لو شاء وفرض لأهله أيضا الحجاز ؟ .

كان فلك أمسيته إذ ذاك قد أقلع لغايته ، عند شاطىء السحر . والنجوم فى الأفق وسنانة . ونسمة الخريف الندية تطل وجهه المحموم . كل شىء حوله احتوته الظلمة التى أراقها سواد أفكاره ، حتى البواذخ الشم من خيالاته التى تبدت له صدر الليل كأنها الصروح ذات الأبراج ! . . ومع ذلك فما زال يصابر جزعه ، ويتشبث بأوهامه . وإنه ليجد عينه من خلال ستر الظلام فيتبدى له شعاع كالخيط ، يسرى خافتا من ناحية النيل — من عامل مصر — من نفسه اليهودية النهازة ! . . ألا لو يصدق حدسه فإن المارد إذن لمطواع ، حريص على ما سحا به حرصا ينميه خوفه أن تفلته الفرصة ، وجشعه الذى ماله مثيل إلا فى إسرائيل !. ولسوف يلوح له ثانية بوعوده ، وبوعيده ، فتستجيب فيه طبيعة اليهود ، وينقاد ! . .

وكتب إليه :

« . . قرأت كتابك فلم أرك تدنو فأعدك سلما ، ولم أرك تباعد فأعدك حربا . . وليس مثلى يصانع بالخداع . . فإن قبلت الذى عرضت عليك فلك ما أعطيتك ، وإن أنت لم تفعل ملأتها عليك خيلا ورجلا . . والسلام »

١٠

كان كالبادى المصحر ، أليف ظعن وترحال . أكل قدمه الرمل ، وهقق القيظ إهابه ، وتحلب العطش ريقه . . . لـكنه سائر شوطه ، لقدر مقدور . فى النهار والليل ، تحت وقدة الشمس ، وفى قرة الظلمة — حتى فى كوابيس حلمه التى تطالعه كل لحظة إعياء تقسر رأسه على التهويم وجوارحه على الارتخاء . . . إنه لا يأمن التوقف . بحسبانه — لو فعل — أن حرارة الحياة فى أعضائه ستخمد ، وأن قبره سينشق عند منتهى أثر قدميه . الموت يرصده فى كل مكان فلا أمان بمكان . إنما سير ، ومعاودة سير ، وسرى يسلم إلى سرى . ففناء وحياة خير من قرار وموت ! . .

ومن خيالات وهمه كانت النجاة تنبثق له ، كشعاع النور فى ليلة ضريرة ، كالنبع فى الصخر ، كالظل فى الفلاة الجرداء . . . فإن يكن سرابا فإنه أمل ، ومهرب من يومه وما احتوى من كروب ، ونظرة إلى غد باسم ذى ضياء ، ومسرب ذى زروع . . .

وكان لا يثق بالسراب ، ولا يؤمن ؛ ولـكنه انطلق نحوه ، بلا فتور ، ففيه راحة إلى حين . راحة لنفسه الحائرة ، وقلبه الخافق المقلقل . فمن ذا يدريه مايضمه أفقه عند التقاءة الأرض بالسماء : خيال ماء أم هو ماء ! . . وشبح دارة أم دارة ؟ . . والأمل دائما يسبق الرؤية . والرجاء شطاح ، بجناح وبغير جناح ! فلعله — إذا انخدع ساعة لوهمه — أن ينخدع بعدها وهمه ، فتبدو النجاة من قريب ! .

لـكن الليالى حدثته غير شجوه ! . فالماء خيال ، والدارة طيف ، والرجاء هباء وقبض الريح . . . المغانى الخضر منعته جناها : ظلها تقلص ، ونبعها غاض . لا ثمرة ولا قطرة وإن ثقلت الغصون ، والتف الشجر ، وجرى الـكوثر بفيضه على الأيام بجرى الشمس والقمر ! . . كلا فما انحرف النيل ، وأنى له أن يميل وصاحب أمره ومالك عنانه قائم دونه صلبا كقناة ؟ .

هو كالرمح — ذاك الرابض هناك فى مصر — قد يشدخ ولـكنه لا يلوى ،

أو يكسر ولايبصر . ولقد ظن معاوية . إبان خياله وتمنيه أنه لابد يوما لاويه . فها هو اليوم ، وهاهو قيس ، كما لم يعهده ، ثابت ، شديد . عنيد . . . لكأنما الإغواء قوى عزمه ، والوعد وثق مراسه ، والوعيد زاده صلابة كالماء للحديدة المحماة .

« . . . العجب من اغترارك بى ، والطمع فى ! . .

أتسومنى الخروج من طاعة أولى الناس بالإمرة ، وأقولهم للحق ، وأهداهم سبيلا ، وأقربهم من رسول الله وسيلة ، وتأمرنى بالدخول فى طاعتك — طاعة أبعد الناس من هذا الأمر ، وأقولهم للزور ، وأضلهم سبيلا ، وأبعدهم من الله ورسوله وسيلة : طاغوت من طواغيت إبليس ؟ ! . . »

إنها إذن سراب خادع تلك اللمعة التى تبدت لعينة ذات مساء من أماسى الخريف وقد بعث النظر إلى أفقه البعيد عند التقاءة سماء حلمه بجنة النيل . وضح عبث التمنى ، بغير جدوى انتظاره ، وتربصه ، ورفقه المموه المزعوم . . وكان يعلم من البدء أنه مخدوع عن الحقيقة ، كالبادى المصحر الذى ضل سبيله فلم يكفه المحير عن المسير . لكن هذا كان بالأمس ، اليوم أيضا ، اللحظة التى سلفت ورود هذا الكتاب العنيف . فإن يبق له الآن شىء من راحة البال فهو يأسه من غريمه ، واليأس على أية حال إحدى الراحات ! . .

والقلق أيضا قد عاده ، أشد وأمض . . فما نسى قط من بعد ، خلال حياته الطويلة — وحتى فى ثنايا انتصاره ، ذلك الوعيد الذى لطمه به قيس ، ورماه فى وجهه كقبضة تراب . كان خطرا يرصده ، سيفا مصلتا فوق رأسه قد عاق بمثل نسيج عنكبوت ! . فإن خشيه فقد خشى قبله اللحظة المجهولة التى ينقطع فيها خيطه الواهى فيفقد رقبته أو يفلق هامته .

ويعاود مطالعة ذلك التهديد وهو مشغول :

« . تملأ على مصر خيلا ورجلا ؟ .

والله ، إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم إليك إنك لذو جد ! . . »

وإنه لذو جد ! طالعه سعيد ، وقدره الآن فى عينه وإن ركبه غريمه بالتهديد . فالآن قد انكشف الستر ، وبرح الخفاء ، ولم يعد ثمة مجال لمطمع فيه ، وهل فى سراب جنى وظل ؟ فما وعد حتى أخلف ، كطبع اليهود !

وكتب لقيس :

« . . . إنك يهودى ابن يهودى ! . . إن ظفر أحب الفريقين إليك عزلك واستبدل بك ، وإن ظفر أبغضهما إليك قتلك ونكل بك . . . »

غير أن غصته لم يطفئها التعريض . وغضبته لم يخمدها ذمه وتهديده . . وكان ثائرا كأعصار وخائفا كعصفور فى براثن حدأة جارحة ، حائرا كوحش أطبقت عليه الشراك ، لكنه استقبل نفسه بوجه واستقبل قومه بآخر . فإن هو إلا الصباح حتى طوى همومه ، ولبس قناعا كثيفا على كربه الثقيل ، واغتصب بسمة الرضا والارتياح وهو يخطب الناس :

« . . . يا أهل الشام . . .

إن قيسا قد تابعكم ، فادعوا الله ولا تسبوه . . . لا تدعوا إلى غزوه فإنه لنا شيعة ، تأتينا كتبه ونصيحته سراً . ألا ترون ما يفعل بإخوانكم الذين عنده من أهل خربتا ، يجرى عليهم عطاياهم وأرزاقهم ، ويحسن إليهم ؟ . . »

وما يضيره إن كذب ، فتلك شيمة فيه ! . . فالكذب مركب هين يبلغه هدفه ، على نفسه أهون من صدق يقعده ، ويكبح طمعه ، ويتخلف به فى سباق الحياة للمجد . . . وما يكرثه الساعة من الناس حوله ولن يتبين أحدهم أنه مخاتل كذوب ، فأيما أمرىء منهم جاءه النبأ من مصر بتخلف قيس عن معالجة الشام بالهجوم ومبادرة خربتا بالشدة ، حرى بأن يظن به أبعد الظنون . . .

بل أولئك الذين لم يدوروا فى فلك معاوية ، كانوا عدوا له عنيدين ، يتربصون به ، ويرصدونه كل مرصد ، ظنوا به كظن أولياء الماهل المخاتل ، وتبدت أمامهم — لجزعهم — قدما قيس على هاوية . . . ليس فحسب عامة الناس بالحاضرة الجديدة ظنوا به ظن السوء ، بل الخاصة فيها ، الخيرة ، الصفوة الخالصة من رجال الإمام الأمناء الذين يؤلفون من أعوانه طليعة الصفوف . . .

وجاءت منهم الإمام طائفة ، تدفعها الريبة ، فحدثته فى الأمر وإنه ليوشك حينذاك على الخروج للنخيلة بأجناده ليتشرع منها لحرب الشام ، فلا يكاد يلقف من شكوكهم همسة مخافتة حتى ينبرى يذود عن خدينه .

« والله ما أصدق بهذا على قيس ! »

فيبادره منهم ابن أخيه : عبد الله بن جعفر ، لا يداجى ولا يمهل ، ملقيا بظنه وشوراه .

« يا أمير المؤمنين ، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك . . . »

أجل فثمة شبهة غير منكورة وإن غشاها على إيمانه الوطيد فى وفاء قيس - وليست بالأولى . لا ولا الثانية ، توالت النذر عليه جديرة بأن تزلزل يقينه كلما حملت له عيونه المبثوثه هناك بالشمال ، مع كل إشراقة ، وفى كل إمساء ، خلال هذه الفترة الأخيرة من الكفاح ، أنباء وفاق سرى تهامس الناس بانعقاده بين رجله وبين صاحب الشام ، فلو صدقته فصحبه الذين يحاورونه الآن قد صدقوه أيضا النصيحة . .

ويفكر وإنه لنهب بين يقينه وبين الظنون . ويتدبر الخطوة اللازمة فى أناة وروية . . . لقد يسعه أن يجنح إلى قولة السوء ، ثم يخذل نصيره ، ثم يقطع الثقة الممدودة نحوه إلى غير رجعة وما هو إن فعل بالجائر . قد يسعه اللحظة أن يعده حربا وكان من قبل يعده اضائقة . قد يجيزه الحذر بعد الأمان أو يسعه كوسمه الغدرة ! . . ولكنه ليس بظنين — ذلك العامل الطوال الأجرد ليس عنده بمتهم ، بل ولى وفى شكور مشكور سما بنفسه عن الخيانة . وما هى إلا فرية صبها صنائع ابن هند فى أسماع العيون ، قد عقها لسان كذوب ، ونسج وشيها الخبيث قلب دءوب على الدسيسة ، فمضت بدونها وراء الحدود . . .

ويثنى عبد الله :

« اعزله يا أمير المؤمنين . فوالله لئن كان هذا حقا لا يعتزل لك إن عزلته — اعزله ! » .

ويعلو جرس نصحه إلى صيحة ، فغضبة ، فثورة تهز قلبه وفرعه . فإذا رجعه فى الآذان دوى ، وفى الأذهان نذير ، يضطرب ويفور فيدفع هتافا تلفظته الشفاه كالزئير :

« اعزله يا أمير المؤمنين ! . . »

غير أن الإمام ينطلق عنهم بعينه إلى بعيد . . . إلى غبرة فى الأفق تعلو أمامه كالسحابة ، وتطير صوبه كالدخان . وإلى ضجة تخرج من الغيمة الزاحفة ، فى بدئها خافتة كخطوة النسمة ، ثم تدنو فتعلو . ثم تبدو نواتها وتتسق خطواتها حتى تميل نحوها العيون الرقيبة . . .

وعندما ينجلى الغبار ، ويترجل الفارس ، وتأخذه الأبصار . يصمت القوم من توجس ، وتحتبس صيحاتهم المتمردة وراء الأفواه . فعلى الرجل وعثاء راحل أبلى السرى وأعيي الرواحل . فى عينيه سهوم حائر ، وفى وجهه وجمة محاذر ...

وفى سكون ثقيل مريب ، يميل على أذن على يسر إسراره ، كأنما لسانه قلم يرسم فى صماخها حديثه . . . فإذا فرغ ، دفع إليه بكتاب فى رقعة ، وتمهل على أهبة ينتظر . . .

فلولا أن أودع الإمام وجهه الكتاب ، يكتب على سطوره ببصره وخاطره ، لبدت لهم خلجات نفسه بلا حجاب عميقة الأثر فى جبينه . لكنه لا يبيحهم مشاعره . ويمضى معاودا يتلو من الصحيفة كلاما ، بناظريه دون ثغره ، له فى فؤاده مثل وخز الرماح :

« الأمير معاوية بن أبى سفيان من قيس بن سعد :

سلام عليك . . .

أما بعد . . . إنى لما نظرت لنفسى ودينى ، لم أر يسعنى مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلما محرما . برا تقيا . فنستغفر الله لذنوبنا ، ونسأله العصمة لديننا .

ألا وإنى قد ألقيت إليكم بالسلم ، وأجبتك إلى قتال قتلة عثمان إمام الهدى مظلوما . . . فعول على فيما أحببت من الأموال والرجال .

والسلام . . . »

ويعاود أيضا . يتلو بعينه ولا يعقب . . . إنهم حوله كبنيان عليه مراقب من عيونهم تربصت بأفكاره . كأسوار قلعة . . . كطوق النجاة . . . لكنه لا يبدى لهم إلا عينا جوفاء تحيد سريعا عن نظراتهم اللاحة المخالسة لتبدو بنجوة كالحصاة الصلدة إذ يطلها ندى الصباح ! . . إنما شغلته صورة تشعبت خطوطها من سطور الكتاب ، ثم تقاربت ، ثم تجمعت فى أضواء وظلال رسمت الحياة الدنيا فتنة تستذل الرجال ، بها هوى ختال ، وعابد ضال ! . . أفكذلك يريق الحاضر من سوأته ظلمة تكفن فى سوادها الغابر المجيد ، وسيرة كانت أمس كالشمس وضاءة ، ونفساً منيعة على الغواية منعة أحد على عواصف الريح ؟ .

أما الجمع فقد نقلتهم الرقعة التى مدها إليهم الإمام ، من حدسهم وحيرتهم ،

إلى مثل نوء عنيف من العواطف ، يضطرب بهم ، ويدوم ، ويدور . فى وجوههم دكنة الحزن ، وشحوب الأسف ، وحمرة الثورة . فما هذا بقيس الذى عرفوه . ليس هكذا تستطيع أن تجمع الأخيلة فتخلط الخبيث بالطيب ، وتجمع النقيض للنقيض . أسيد الخزرج ، علم الإسلام ، ابن النقيب سعد بن عبادة الذى احتضن الدعوة وإنها لطفل هزيل مهيض ، والدعاة وإنهم لحفنة يتخطفهم الخوف ، هو الذى يخط مثل هذا الوفاق ؟ . . لقد يوشكون أن يحسبوه تمهل ، أو قعد ، أو أهمل ، ولكن ظنهم ، قبل يومهم هذا ، ما كان قط مستطيعا أن يقرنه وخيانة . . .

كلهم غاضب ، وكلهم أسيف . على ملامحهم مثل غبرة . وفى حلوقهم شجى ، وفى عيونهم وميض نار ... حتى الحسن الذى تشرق من جبينه سجاحة الطباع ، وترف الطيبة والسماحة فى محياه . . . وحتى الحسين الذى كان ذكرى حية لجده رسول الله تعيش فيها قسماته . . . وعمار أيضا الآدم الرقيق الذى لم يترك تقدم العمر فيه بقية لوجدة . . .

كان لحنهم : « اعزله ! » . . وصوتهم « اعزله ! » . . وأنفاسهم المتذائبة بين الصدور والمناشق : « اعزله ! » . ثورة وحنق . صخب وغضب . عواء وزئير . لتهتز الأرض من هتافهم ميادة كمن زفير بجوفها انشق عنه قلب بركان ! .

اعزله ؟ . . بل لو كان حضرهم معاوية لهتف مثلهم : « اعزله ! . . » فإنها هدفه . سعيه وقصاراه . . . إنه ليبدو الآن للإمام ، تحت شعاع البصيرة الكاشفة ، بقصره هناك ، كشيطان راح ينفث فى روعهم من بعيد أحرف اللفظة المؤلبة . . . أم يدع قيساً وجنته ؟ . . أم يتركه شوكة تخزه ؟ . . أم يسلمه أطماعه المريضة ملهاة فى كفه يعبث بها ثم يحطمها حينما يشاء ؟ .

ورفع على يده إلى صحبه يكفهم عن اللغط ، فالأمر إن خفى عن إدراكهم إبان السخط ، إنه لشاخص تحت عين الروية ، عار بلا دثار ، ظاهر بلا ستار . . . وما هو قط فى قيس بمستريب . ولا بمنكر وفاء . ولا بعازله اليوم وإن تجيشت عليه مواجد رفاقه . ولقد ينثر الآن جعبة الفعال التى أنجزها بمصر عامله فيرى فيها تمهلا يبدو كتقاعد ، وأناة كتردد ، وسكوناً كغفلة . ولكنه مع ذلك لا يبدو بذلك العذر الذى ساقه إليه قيس عن التمهل والسكون والأناة :

« ... إن قبلي رجالا معتزلين قد سألوني أن أكف عنهم حتى يستقيم أمر الناس ، فنرى ويروا رأيهم ... وقد رأيت أن أكف عنهم . ولا أتعجل حربهم ، وأن أتألفهم فيما بين ذلك لعل الله أن يقبل قلوبهم ، ويفرقهم عن ضلالتهم »

ولقد فعل ما كتب ، وأمن الخائف ، وأمهل المريب ، وكان بذلك هدفا سهلا لخصومه وأصدقائه على السواء . فلعله الآن أن يقطع صمته ، ويجمع حزمه ، وينفذ ما أبلغه إياه إمامه ساعة خروجه إلى قاعدته فيبدأ ضربته قبل أن يستطير شر أولئك المعتزلة بمصر ، ويقوى بهم حزب الشيطان .

وعندئذ بعث إليه الإمام :

« ... سر إلى القوم الذين ذكرت ، فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون وإلا فناجزهم ! . »

ومع ذلك فقد أبي قيس ... أية خطة تلك سوغت له أن يدع عدوه وشأنهم ، وإن اليوم ، بل الساعة ، بل اللحظة تزيدهم جميعها منعة وعدة بعد إذ كانوا قلة ضعيفة تهاب اللقاء ؟ ... بذهنه خسب ما أضمر ؛ فلم يطلع أبدآ على تدبيره صباح ؟ .

١

حم القتال ! ... لا فرجة اليوم لطاعة ، أو موادعة ، أو وفاق ... العيون تلتهب . تزلزلت بفيحها الصدور . باتت العقول فى مشافر السيوف وفى رءوس الأسنة . وأينما تحرك البصر أو تربص السمع كان نخيج ووسوسة ، وألوية وبنود ، وصليل وقمقمة فى كلا دمشق والكوفة — فى القصر والرحبة . ها هنا جموع تلتها جموع ، وزمر محشودة ، وصيحة للدم . وهنا نداء ودعوة ، ولفظة جهاد ، وحركة إعداد . والقلوب التى حلمت بالوحدة المرتجاة قشع حلمها تردد الضجيج ! ...

لكن قلبه كان قد أشرب الرحمة ، ونفسه صفاء ، وروحة تملأها اللوعة . فما كان أشقه من سفر على فؤاده تحفه من كلا جانبيه الجماجم ! ... وما أبغضها محنة ، هذه الحرب ، تختبر فيها النيات ، يقتل الرجل فيها أخاه ، والوالد ولده ، والابن أباه ! ... أرض محراثها سيف ، وبذرها مهج ، وريها دم ، وطلعها المجتنى بعد هذا كله قبور وأحزان

ولم يكن — مع ذلك — ليقعده أسفة ، ولا الحسرة الحبيسة بقلبه توشك أن تسبق الزمن فتفيض كالدمع قبل أن تتبدى أمام أعين الحياة تلك الكوارث المرقوبة ... وهل كان بيده أن يغير الأنفس ؟ .. إنه كافح فى هذه الناحية كفاحه ، بمنطقه ، وسن قلمه ، حتى تهاوى لسانه وكل بنانه . ولكنه ، والوفود تترى عليه ، وصيحة الحرب تلوكها الحناجر ، أتبع محاولاته بأخرى جديدة لعلها أن تبقى على السلام

وكانت قدمه لم تسر بعد شوطها فى طريقه إلى النخيلة عندما جاءه الجواب . هذه المرة لم يحدث معاوية ، ولم يلتمس من لدنه الفصل أو الفيء للصواب . فبحسبه ما كتب له ، وما لو كان قد أتيح إسماعه الجلاميد لخرت صعقة تستجيب للهداية ! ... إنما كتب دونه لصاحبه ، مستقر سره ونجواه ، عمرو بن العاص :

« ... إن الدنيا مشغلة عن غيرها ، وصاحبها مقهور فيها ، لم يصب منها شيئاً قط ، إلا فتحت له حرصا ، وأدخلت عليه مؤونة تزيده رغبة فيها . ولن

يستغنى صاحبها بما نال عما لم يبلغه ، ومن وراء ذلك فراق ما جمع ! ... فلا تحبط أجرك أبا عبد الله ... »

وأحبط عمرو أجره ! ... سخا بآخرته وبخل بدنياه . فثمرة فى عينه اليوم خير عنده من جنات وظلال ، وخمر وعيون ، وحور عين !

لم يجد جهده ، هذا الآخر ، على السلم مثل خردلة ، ولم يدع ثغرة للرجاء إلا فى ويل ، وحرب مجلية تسوق لدمار ، وفتنة حصادها خلاف وفرقة ، طويلة الأجل إلى أجيال ، فقد أبت نفس ابن العاص إلا أن تعيدها جزعة :

« الذى فيه صلاحنا ، وألفه ذات بيننا ، أن تنيب إلى الحق ، وأن تجيب إلى ما تدعون إليه من شورى ... »

فكان بجوابه العجيب أشد غلوا من رفيقه ، وأبعد فى العنت والعناد . فتح باباً فى القضية لم يفتحه قبله سواه ...

وزم الإمام شفتيه فى عزم ، على غضبة ثائرة ، وهو يطوى الكتاب الذى نقل إليه صورة أخرى من صور الأثرة . ابن النابغة ووليه سيان ، مرئى ومرآة ! ... ولولا أنه على ، بخلقه على المناقص ، عف اللسان والفكر ، لجال تلك اللحظة بذهنه ما جال حينذاك بخواطر الناس ، فرد كلتاهم بنوة الشبيهين جميعا إلى أبى سفيان ! . .

بل قد عصمته أيضا سجاياه أن يبيح أصحابه الخوض فى أنساب أعدائه ، وإطلاق الألسن تتناولهم من أساليب الذم والمعابة بما قد يباح وإنه ليعلم أن حجر بن عدى ، وعمرو بن الحمق ، جهرا مرة بالبراءة واللعن من أهل الشام ، فلا يمهلهما أن يسايرا المواجد ، ويقول :

« كفا ! . . »

فيحاوره الرجلان :

« يا أمير المؤمنين ، ألسنا محقين ؟ »

« بلى . »

« أو ليسوا مبطلين ؟ »

« بلى . »

« فلم منعتنا من شتمهم ؟ »

قال :

« كرهت لكم أن تكونوا لعانين شتامين . ولكن . . . لو قلتم مكان لعنكم إياهم ، وبراءتكم منهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم من ضلالتهم . . . كان هذا أحب إلى وخيرا لكم . . . »

وتوالت عليه الوفود والزمر ، كلهم قادم كأن لهجرة فى الله ، قد خلف أهله وراءه ابتغاء الجهاد . فما كان عمرو فى اعتقادهم بعاص ، ولا معاوية بمتمرد ، ولا من تابعهما على الغى بظنين . . . إنما قوم عدوا حق الله ، وأدبروا عن سبيله أن صدعوا الأمة بظلمهم فصدعوا الدين . وإنهم لينسون ربهم فى غمرة انكبابهم على الحياة فيدعهم فى النهاية أذلة لإبليس ! . . يصف غاياتهم المضلة الضالة ، وحوافزهم الخاسرة ، عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعى ، فيقول للإمام :

« لو كانوا الله يريدون ، أو لله يعملون ما خالفونا . لكن القوم إنما يقاتلون فرارا من الأسوة ، وحبا للأثرة ، وضنا بسلطانهم ، وكرها لفراق دنياهم التى فى أيديهم . . . »

ويقول عنهم المرقال : هاشم بن عتبة بن أبى وقاص :

« . . . نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وعملوا فى عباد الله بغير رضا الله ، فأحلوا حرامه ، وحرموا حلاله ، واستولاهم الشيطان ووعدهم الأباطيل . . . »

وكان قدر آجالهم فى نظرة عمار :

« إن سفك دمائهم ، والجد فى جهادهم لقربة عند الله ! . . »

كذلك كان أصحاب على ، وكذلك صحت منهم العزائم عندما تشرعت فى أكفهم البواتر المصقولة ، وتهيأت لهم ضوامر المطى تهم جميعها أن تجوز بهم البادية من سواد العراق إلى غوطة الشام . وما كان سفرهم إلا كحجة غدت عليهم فريضة ، وشعيرة من شعائر دينهم مستحقة الأداء ! . . وليس بينهم سوى قارئ وناسك وعابد ، الليل والنهار فى التهجد لديهم سواء . الأرض لهم مسجد ، والزمن صلاة ، والعمر عارية ، والآخرة وحدها الحياة . . .

ونادى بينهم مناديه :

« أيها الناس . اخرجوا إلى معسكركم بالنخيلة . . .

تمضوا إليها على الظهر والقدم . إن يكن لخطوهم حسيس على الثرى الندى ، وفى برودهم حفيف ، وفى سلاحهم رنين ، ففى حلوقهم دعاء وذكر وتسبيح لها فى الفضاء الفسيح جلجلة . . . نهر من الرجال دافق ، منبعه الكوفة ، ومجراه ذلك الطريق المنساب بحذاء الفرات نحو البلدة الصغيرة انسياب ثعبان ، ومن دون ذلك له روافد وجداول من مجيشة البصرة وأصبهان والمدائن وغيرها من بلاد أقبلت تغذى ذلك النهر المتلاطم الطويل ! . .

وأصبحت النخيلة وهى محشر لكل صاحب جبهة سوداء ، يبس جبينه من كثرة السجود ، وأصبح معاوية وإنه لعلى جزع يأتيه نبأ هذه الحركات منجما ، ساعة ساعة ، كأنه حلق سلسلة . فلا يكاد يتبين فيه الجد الأجهم ، والنهاية المخوفة المقدرة ، حتى يفزع إلى رجال إقليمه :

« يا أهل الشام ! . . قد كنتم تكذبونى فى على ، وقد استبان لكم أمره . والله ما قتل خليفتكم غيره ! . . أمر بقتله ، وألب الناس عليه ، وآوى قتلته ، وهم جنده وأنصاره وأعوانه ، وقد خرج بهم قاصدا بلادكم ودياركم لإبادتكم . . . »

أما الحق ، فالإمام لم يرحل إلا وقد تعاقبت زمر الناس على معسكره ، من حواضر ملكه وبواديه ، على وفودهم أعلام من رجالهم لهم بلاء ، فى سيوفهم ردى وفى قلوبهم أمن ، وفى حلوقهم شهادة ! . . فالحرب قد دوى بها النفير ، والجهاد نشر راياته ، والجنة قريب . . . وما فى البلاد رجل مست روحه نفحة إيمان إلا تشرع لها بإيمانه ، وتهيأ بصبره ، وتعجل من خلال لفحها ونقعها ودمها سبيله إلى موعود ربه الذى وعده التقاة الأبرار . . .

وفى مسيرهم من الكوفة إلى النخيلة ، كانت خواطرهم ما تزال نشوانة بحديث الرجل الذى تألفتهم كرائم سجاياه ، وازدراؤه بدنياه ، وفناؤه — من يفاعه ، إلى شبابه ، إلى كهولته حتى يومه ذاك — فى الله :

« إن الله قد أكرمكم بدينه ، وخلقكم لعبادته . . فانصبوا أنفسكم فى أداء حقه ، وتنجزوا موعوده . . . »

وعلى رنين السلاح ، ومطيهم تخب ، وأقدامهم تدرج بهم على الرمال ، راح يتردد كالصدى فى آذانهم مع الصليل ، قول الحسن الذى تزودوه قبل خرجهم إلى النخيلة :

« . . . لم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم ، واستحكمت عقدتهم . فاحتشدوا فى قتال عدوكم : معاوية وجنوده . ولا تخاذلوا ! . إن الإقدام على الأسنة نجدة وعصمة ، لأنه لم يمتنع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة ، وكفاهم جوائح الذلة . . . »

وبين إيمانهم الذى يحلهم الثقة ، وعزيمتهم التى وهبتهم الإقدام ، ظلت صيحة الحسين تقرع سمعهم كالنذير ، لتجنبهم مهاوى الغرور والهلكة .

« . . . ألا وإن الحرب شرها ذريع ، وطعمها فظيع ، وهى جرع متحساة فمن أخذ لها أهبتها ، واستعد لها عدتها ، ولم يألم كلومها عند حلولها ، فذاك صاحبها . ومن عاجلها قبل أوان فرصتها واستبصار سعيه فيها ، فذاك قمن ألا ينفع قومه ، وأن يهلك نفسه . . . »

وقد أعدوا ، ولم يشدوا إليها رحالهم بغير زاد ! . . عديد وعتاد ، وعزيمة واعتداد ، بين يدى حنكة ويقظة ، ولئن قاربوا حلبة الصراع وإن عدوهم حينذاك ضعفان ، فكذلك دائماً أصحاب الدنيا أوفر نفراً ممن نذروا حياتهم للشهادة ، وآثروا ما عند الله . . .

وتواثبت بهم خواطرهم ، وظفر الخيال قبل الخيل ، وسبقت العقول المقاتل إلى ساعة فى الزمن تطلع النصر فى تاريخهم شمسا قانية ذات دفء ، بعد زمهرير هذا الشتاء ، حرها كفاح ، وأشعتها دم . . أما الآن فهم على أهبة ، ينتظرون منه أمره لينطلقوا . فى أثناء الفرات ، أو محاذاة دجلة ، أو مع البادية الجرداء التى يضمها الرافدان وهى كبعير السقاية يحمل الماء وهو ظمآن . . إنهم لن يمضوا كأطيار ضالة وإن ودت جموعهم لو كانت من ذوات الجناح ، ولن يقطعوا الشقة كوحش الفلاة تتخبطه الوهاد والروابى وإن ماثلوا الوحش فى الظفر والناب . . . إنهم من هدفهم على بينة ، ومن خطوهم الوشيك كهذا النهر الذى ينطلق فلا يجاوز مجراه ... وها قد مضت قبلهم طلائع ، ترودالطريق ، إلى حيث وجار الثعلب الختال فى الشمال ، غدت لهم كمشعل لسوف يسيرون فى ضيائه . . .

ثم حانت لهم لحظتهم المرقوبة ، عندما وقف منهم الإمام يأمر جحافلهم المكتلة بالتقدم وهو يرنو بعينه صوب ماء الفرات :

« . . . إنى بعثت مقدماتى ، وأمرتهم بلزوم هـــذا الملطاط حتى يأتيهم أمرى . . . . . . »

ورد طرفه إلى بعيد ، نحو دجلة الذى لا تلمحه من مقامه فى معسكرهم الأبصار وإن يسر أن تراه عين التصور ، وأتم يقول :

« . . . وقد أردت أن أقطع هذه النقطة إلى شرذمة منكم موطنين بأكناف دجلة فأنهضهم معكم إلى أعداء الله . وقد أمرت على المصر عقبة بن عمرو الأنصارى ، ولم آلكم ولا نفسى . . فإياكم والتخلف والتربص، فإنى قد خلفت مالك بن حبيب اليربوعى ، وأمرته ألا يترك متخلفا إلا ألحقه بكم عاجلا إن شاء الله » .

فتهاتفت كتائبهم بتهليل ، وخفقت الرايات ، وغمر النفوس غامر الشوق للجهاد ، والرضا بالمسير ، والفرحة بالمصير الذى دنا وإن كان رحلة بلا معاد ، وهجرة آمدة تمنحهم القبر وتسلبهم العمر . كلهم قرير أما مالك بن حبيب فمحزون. وإنه ليأخذ بعنان دابة الإمام فيلويه بين أصابعه فى اضطراب ولهفة . ويغضى بعينه فيأبى دمعه أن ينطبق جفناه . قلبه يضطرم ، وثغره يختلج ، وكيانه يهتز بمثل رجعة محموم . ولكنه يغلب أساه ، ويقول هامسا بصوت كله ضراعة :

« يا أمير المؤمنين . . . أتخرج بالمسلمين ، فيصيبوا أجر الجهاد والقتال وتخلفنى فى حشر الرجال ! »

فيرق له القلب الكبير ، وتربت كتفه اليد الحانية ، وتداوى حزنه النبرات الرحيمة :

« يا مالك . . . إنهم لن يصيبوا من الأجر شيئا إلا كنت شريكهم فيه .

وأنت ها هنا أعظم غناء عنهم منك لو كنت معهم . . . »

وتحركت دابته فتحرك الناس .

ورجز حينذاك راجز :

« يا فرسى سيرى ، وأمى الشاما وقطعى الحزون والأعـــلاما
ونابذى من خالف الإماما
إنى لأرجو إن لقينا العاما جمع بنى أميـــة الطغاما
أن نقتل العاصى والهماما »

وعندما توالت الكتائب ، وأدبرت عن الديار ، شاعت البسمة فى ملامح نفير ثلاثة ، تملأ منهم العيون والثغور . فلقد خرجوا الآن مخرجهم هذا عن بلادهم وهم أعزة ، طوعا لا كرها ، لبلاء لا بإجلاء . . .

وأولئك فريق ممن كان قد نقام عثمان ، وأخرجهم من ديارهم بالكوفة إذ عاتبوه فى عامله عليهم سعيد بن العاص ، نبوا بصلفه ، فدفع بهم إلى ابن هند يسومهم من تجبره ، ويسقيهم الهوان . . .

وتلا منهم جندب بن زهير والرواحل تسير :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . . . »

وهز فى يمينه قناته وإن عينه لتومض بعزمه وغضبته وهى تتجه كالشهاب إلى ناحية الشام . . .

وهتف صاحباه :

« صدق الله العظيم » .

ثم تبعاه . . .

٢

مضت إلى وجهها مقدماته : اثنا عشر ألفاً مكتبة ، كأنها السيل وهى تلازم الفرات فى زحفها السريع الثابت ، مغربة بثقلها إلى الشمال ، نحو غاية لها مرومة لن ينالها اليوم إلا السلاح . . . كل راكب فيها وراجل يعرف قصده ، ويعى واجبه ، ويسير على جادة من أوامر مولاه كالصراط . جمعهم خرج فى الله ، ينصر حقه ، ولا يلتوى قيد شعرة عن الشرعة القويمة . الكفاح الذى يطلبونه ليس وسيلة لدولة ، بل جهادا فى دين . والأطراف والجماجم المتحفزة للتناثر إن هى إلا دعائم فى بناء « الإمامة » نذروها اختيارا ، لا لبنات تقيم معقل « الإمام » . . . فإنما الله يريدون .

السلطان الزمنى لم يكن لهم فتنة ، ولا هدفا يرمقونه أثناء زحفهم بالقلوب

المشوقة والعيون النفاذة إلى مستقره البعيد كالشعاع . ولا جنة يفيئون إلى جناها الشهى وظلها المديد بعد كد الصراع . . لا مرمى ، ولا قصد من متاع هذه الحياة وعناصر الناس والجاه — بل الإسلام الغاية . . .

وكانت كل حركة محددة ، وكل خطوة مسددة الطريق مرسوم . والخطة مرسومة بما احتوت من دفاع ومن هجوم . بل شؤون الأجناد ساعة السير ، وإبان الرقبة والانتظار ، قد أعدت أوفى إعداد وأحكمت بأدق مقدار . . . بل سيرة الجيش ، فرادى ومجموعة ، فيما يجتاز من بلاد ويلقى من ناس ، مقدورة كأنها صورة يحدها إطار ! . . لم يدع على أمرا إلا دبره ، ولا شيئا إلا أحاط به وأحصاه . لا هنة . لا شاردة ولا واردة وعندما انطلق قائداه : زياد وشريح ، على مقدماته بجانب الفرات ، سبقته إليهما نشرة منه ترسم الخطة المثلى لسياسة الزحف والرصد والاستطلاع .

« . . . إن مقدمة القوم عيونهم وعيون المقدمة طلائعهم . فإذا أنتما خرجتما من بلادكما فلا تسأما من توجيه الطلائع فى كل جانب ، كى لا يغتركما عدو أو يكون لكم كمين . . .

لا تسيرن الكتائب إلا على تعبية . . .

فليكن معسكركم فى قبل الأشراف ، أو سفاح الجبال ، أو أثناء الأنهار كى ما يكون ذلك لكم ردءا ، وتكون مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين . . .

اجعلوا رقباءكم فى صياصى الجبال ، وبأعالى الأشراف ، ومناكب المضاب ، لئلا يأتيكم عدو من مكان مخافة أو أمن . . .

حفوا عسكركم بالرماح والأترسة . ورماتكم يلون ترستكم ورماحكم ، فما قوم حفوا عسكرهم برماحهم وترستهم من ليل أو نهار إلا كانوا كأنهم فى حصون . . .

احرسا عسكركما بأنفسكما ، وإياكما أن تذوقا نوما حتى تصبحا إلا غرارا أو مضمضة . . .

وليكن عندى كل يوم خبركما ورسول من قبلكما . . . »

وكان نهجه فى سياسة جنده التسوية ، وبر الكبير بصغيره ، عليهم له واجب الطاعة . ولهم منه حق الوفاء :

« . . . إن الله جعلكم فى الحق جميعا سواء ، أسودكم وأحمركم ، وجعلكم من الوالى وجعل الوالى منكم بمنزلة الوالد من الولد ، وبمنزلة الولد من الوالد الذى لا يكفيهم منعه إياهم طلب عدوه والتهمة ؛ ما سمعتم وأطعتم وقضيتم الذى عليكم . وإن حقكم أيضا لكم ، والتعديل بينكم ، والكف عن فيئكم . فإذا فعل ذلك معكم ، وجبت عليكم طاعته بما وافق الحق ... ونصرته على سيرته ، والدفع عن سلطان الله . فإنكم وزعة الله فى الأرض . . . »

وحذر أمراء جيشه أن تبيحهم ضرورة الحرب ما لا تبيحه قوامة الخلق وشرعة السجايا الكريمة إبان السلم والطمأنينة ، من السلب أو العدوان :

« .. أبرأ إليكم وإلى أهل الذمة من معرة الجيش ، إلا من جوعة إلى شبعة ومن فقر إلى غنى ، أو عمى إلى هدى فإن ذلك عليهم .. فاعزلوا الناس عن الظلم والعدوان ، وخذوا على أيدى سفهائكم ، واحترسوا أن تعملوا أعمالا لا يرضى بها الله . . .

لا تألوا أنفسكم خيرا ، ولا الجند حسن سيرة ، ولا الرعية معونة ، ولا دين الله قوة ، وأبلوا فى سبيله ما استوجب عليكم . . .

مضت هكذ أوامره ترسم السيرة ، وتنظم الصلة بين كل قائد وفرقته ، وكل جندى وزميله . وكل جيشه وغيره من رعاياه ممن سيخرق الجند عليهم بلادهم وأراضيهم . فأما أمره للمقدمة فالسير والفرات صوب الشمال ، عيونا وطليعة ، لا تعجل بقتال إلا أن تحمل عليه ، ولا تنتهج خطة إلا أن يزودها ببيان ، وهى فيما بين هذه وذاك تكون ملتزمة جانب الحذر واليقظة والاتئاد . . .

أما القوة الرئيسية فقد استأخر بها بعض زمان لا يبرح مقامها ولا تبرح حتى تكاملت له القبائل واجتمعت المقاتلة ممن حشد عماله وولاته من الأقاليم . ولم يطل بعد هذا إعداد . فتكتب الناس ، وانتظمت الأخماس . ثم عقد الألوية ونادى مناديه بالرحيل . . .

حينذاك كان العام فى ربعه الأخير . وكان الشتاء يلفظ من أنفاسه بقية كالذماء إن تكن توحى بمقدم الربيع ، فقد خلفت السكون بعدها مالوج النسمة ، والورق النابت مبكرا على غصونه يرتجف بمثل اختلاجة مقرور . . .

وكان النهار فى إبان مولده باسم الطلعة أبلج الجبين . والشمس المطلة من سماء صفا أديمها صفاء مرآة ؛ قد أسفرت عن وجهها المتألق الصبوح ، وانسدل شعاعها على جوانب الأفق كشعر غانية : خيوطا دقيقة من نحاس كلون اللهيب ، رفافة رقيقة ، ليس فيها وقدة من حرارة النار وفيها رحمة من رخاوة النور ! . .

الأربعاء اليوم . وشوال الشهر . والزمان مستهل الربيع . . . النخيلة تعج بحجيجها عن حملت ، ومنافذ الكوفة ، والدروب الطويلة المؤدية إلى الفضاء الفسيح الذى انساب فى أديمه الناعم الفرات انسياب ثعبان . . . للنجائب رغاء ، وللخيل صهيل ، وللأسنة صليل . والصدور التى تتوق للقاء شهيقها دعاء وزفيرها تكبير ! . . .

الإمام قائم على رأس قواته ، يشق أمامها الطريق فى وقار وتؤدة . لا يعضل بالناس فى سير ، ولا يؤودهم حين اعتلاء شرف أو اجتياز غور . . بقلبه طمأنينة ، بعينه دعة ، على ملامح وجهه سلام . يحسبه الرائى — وهذه حاله — أخا سفرة إلى مراح آمن وادع وليس بنازح إلى غمرة تحفها المصارع . . .

ما ادرع ، ولا اكتسى الزرد والحديد . كل ما عليه ثوب مرقوع ، قصير إلى ركبتيه ، إن يكن ستره فليس بكاف أن يقيه عادية البرد فى ساعات البكرة أو ليالى البوادى المثلوجة . . . لا ملحفة إلا هذا القميص من الصوف والجلد والليف ، ولا درع إلا شعر صدره الكثيف ، يطل من ثقوب ثوبه كأنه الشوك !.

وكانت عينه طوال الطريق وانية ، أدنى إلى الوسن منها إلى الانتباه ، كأنما يؤثر النظر بالبصيرة ، فلروحه اليقظان طرف لماح يرى المكان بدا أو غاب ويرصد الزمان من خلف حجاب .

وكانت رحلة تنشد الدم . ولكن الحرب لم تستغرق كل همه ، وفكرة الموت الجائمة من ورائها لم تشغله عن مقومات الحياة . . . ففى الطريق دائما عظة لمن ألقى السمع وأدار البصر أينما مضت قدم . وفى العظة تقويم خلق ، وإصلاح معاش . وما هو بالذى تجمد خواطره وإن أحاطت به عدة الحرب كالسياج . . .

لم تلهه الحومة المقبلة عن دوره الذى احتذاه عمره من تثقيف الأنفس ، وتهذيب الطباع ، وتأديب الناس بأدب الشريعة الهادية ليصلوا بعده مشاعل النور . . .

وإنه ليضع رجله فى الركاب قبل المسير فلا يكاد يستوى على ظهر دابته حتى يذكر ربه : « باسم الله » ... ثم يرفع وجهه يناجيه : « اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل . . . » ويمضى ، فيتبعه الجيش كله على يقين . . .

... وينزل منزلا بجمعه الحاشد فيتقدم يصلى ركعتين . فالأرض كلها مسجد ، والصلاة قربان . حتى إذا فرغ قام فقال ، ليعلم الجاهل ، ويبصر الغافل :

« أيها الناس . . . من كان مشيما أو مقيما فليتم الصلاة فإنا قوم على سفر . ومن صحبنا فلا يصم المفروض . والصلاة المفروضة ركعتان . . . »

ويمر فى سيره بآثار كسرى ، فيسمع صاحبا له يتمثل :

« جرت الرياح على مكان ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد »

فينهـــاه :

أفلا قلت : « كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » .

ثم يستقبل بعد هذه التلاوة الجمع بالتحذير :

« إن هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا موروثين . إن هؤلاء لم يشكروا النعمة فسلبوا دنياهم بالمعصية ... » .

... ويلقاه بعض الدهاقين قد أتوه بدواب وطعام هدية له ولرجاله ، فيأبى ويقول :

« أما دوابكم هذه فإن أحببتم أن نأخذها منكم فنحسبها من خراجكم أخذناها منكم . وأما طعامكم الذى صنعتم لنا فإنا نكره أن نأكل من أموالكم شيئا إلا بثمن ... »

عندئذ يحاولون أن يحملوه بكياسة على القبول :

« يا أمير المؤمنين ، نحن نقومه ثم نقبل ثمنه ... »

فيضحك وقد فهم حيلتهم :

« إذن لا تقومونه قيمته ! . نحن نكتفى بما دونه »

فإذا ألحوا عليه عبس وقال :

« ويحكم ! . . نحن أغنى منكم . . »
ويتركهم وهديتهم الفخمة على الطريق . .

* * *

ويمضى .
المطايا تخب والركب يسير . . .
دورة اليوم تنطلق بساعاته إلى حافة الأصيل . . .
الرايات تعتنق ثم تفترق فى النسمة البليلة . . .
كل امرئ فى الحشد الزاخر ذلك النهار بأمره مشغول : برحله ، بدابته ، بسلاحه ، بالشقة الطويلة التى ما يفى الأفق يطلع عليه من مراحلها طولا من وراء طول . . .
وهو أمامهم يقظان كغافل إلا حينما تند منه خاطرة فى شأن دنيا أو شأن دين . متوثب كخامل إلا على الظهر تحتـــه الذى لا يحس ثقله وإن حسبه القوم كلا على الراحلة . .
وعند ثنية فى الطريق يمتلئ جسمه البدين بالحياة فتنطلق الأعين إليه ترمقه، من كل جانب بعيد وقريب ، وقد شهدته يثب إلى بقعة من الأرض يرنو إليها بنظرة واجمة . . .
وتلقف الآذان صوته الهامس الحزين :
« ها هنا ، ها هنا ! . .
ها هنا موضع رحالهم ، ومناخ ركابهم . . .
ها هنا مهراق دمائهم . . . »
فتأخذ الناس من حديثه رجفة ، ويسألون فى توجس وإشفاق :
« وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ . . »
ويتمهل بهم ، حتى إذا دارت عينه فرأت الحسين ، توقف نظرها على محياه فى رنوة حانية ، ندية غائمة ، وهتف يجيب :
« ثقل لآل محمد ينزل ها هنا . فويل لهم منكم ، وويل لكم منهم . . .
ويل لهم : منكم تقتلونهم ، وويل لكم منهم : يدخلكم الله بقتلهم إلى النار . . . »

ويسير ناكس الرأس إلى مطيته . . .

إن لروحه لطرفا لماحا ، يرى المكان بدا أو غاب ، ويرصد الزمان من خلف حجاب . . .

فتلك البقعة « كربلاء » الشقية ! . .

٣

منها إلى المغانى الخضر بين النهرين ، سوداء التربة ، زهراء الماضى ، التى سمت قبل بأمجادها إلى مدار الشموس ... من كربلاء الحزينة مشى على الماء ، مخلفا وراء ظهره بقية من قلبه الأسيف الأسيان ، رفت يومه كالغمامة على الثرى المغبر ، ثم مضت دمعة تندبه ، ثم غدت مع الليالى السود التى تكشفت عنها بعد عهده الأحداث جدولا من الدم جرى سلساله من فؤاد الحسين الشهيد ! . .

فلتمل به عينه الآن عن مصارع بنيه ، ومحنة حازبة يدخرها القدر ، وغدر فاجع بعده العتاة لعترة الرسول . فإنما الغد القابل رهين بساعاته ، والغل القاتل خبىء فى غلالاته لا تدركه اللحظة فراسة العيون . . وإن عينه الندية ليخفيها جفناه ، وإن قلبه العانى لتمسكه عينه أن يترنح بين جنبيه أو يميد ، وإن الرعدة من محبة وإشفاق لتمشى فى أوصاله فإذا هو فى هنيهة قد نفضها فثبت كيانه كالبنيان فى الله ما يلاقيه . وفى الله أيضا محنة بنيه ، ونكبات قاصمة تحيق بذراريه ، فالدعاة أبدا هدف الطغيان . . .

وخطت به الدابة تخوض يتبعها جنده الأباة من كل فارس وراجل ، فرقة وراء فرقة ، وقبيلا فى إثر قبيل . قرابة خمسين ألف تأثروا خطاه فى مسيره ، يسلمهم الفرات إلى دجلة ، ويدوى وقع أقدامهم على الأرض السوداء النضرة ذوى الطبل . ولم تكن بابل برقعة مجهولة المسالك على الكثيرين ممن يطأون ظهرها الآن ، ففيهم ثلة من الألى فتحوها ونشروا فى ربوعها دعوة الإسلام ، ولكنه لم ينخ فيها الدواب ، ولم يتمهل بالركب . لقد كان حسبه أن يمر عليها كالطيف ، ويدعها ورقعة منها كانت يوما ملاذ الشيطان . . .

وقال حينذاك لمن استنبأه هذه العجلة :

« إن يبابل أرضا خسف بها ، فحرك دابتـــك لعلنا أن نصلى العصر خارجا منها . . . »

كانت الشمس خمرية الشعاع ، ذرت ضوءها على الأفق كأنه حبات التبر تلتمع فى الأصيل وهاجة . وكانت أنفاس الشتاء رطيبة رتيبة ، تتردد على مهل فلا خفقة للنسيم هوجاء ، ولا نفحة صقيع ، ولا سحابة تنشر الظلال قاتمة اللون فوق المروج . . . الطبيعة رائقة ، والسكون هادئ تلفه السكينة كأنما ألقى السمع بعد الخطا التى تواتر جرسها المنتظم على الثرى الناعم . والشمس كذلك بدت وانية ، كأنما ثقلت حركة فى مجراها وهى تنساب للغروب . وقطر الذهب فى وشاحها الوضىء راحت تصبغه الحمرة رويدا رويدا ، بيد خافية ، خطا قانيا وراء خط ، وطيفا داميا بعد طيف . ثم احتضنها الشفق . ثم حفها الغسق . ثم آن حين وسنها فالتحفت المساء . . .

وأصبح اليوم وهم بساباط تتبدى لهم فى مجال النظرة بشاطئ دجلة البعيد قصبة كسرى ، التى تمثل فيها عمر دولة عتت زمانا على الناس ، واستذل عواهلها زهو دنياهم فحسبوا لأنفسهم الخلود . . . بدت للدانى من وراء ، بين الزروع ، على التربة العنبرية تأتلق فى الضياء الذى يسكبه المشرق . وكان قصرها الأبيض الكبير ، وإن عدت عليه العوادى ، لا يزال يلتمع كالغرة فى جبين الصبح الأدهم ساعة البكور . . . إنه البقية من عزة قديمة . وهى معه كذكرى حلم نسخته اليقظة . وشطرها الدانى من كتائب الإمام إذ تغادر إليه ساباط حلقة من سلسلة النصر التى طرقتها سواعد قوم ضعفة ، على الفطرة ، كادوا لولا نفحة سماوية أن يسيروا فى ركاب البشرية هملا ضائعا بغير تاريخ ! . .

غير أن الإسلام بدلهم بحالهم حالا ، فأورثهم الأرض ، ومنحهم العزة ، وملكهم بعد ضعف مصاير الشعوب . وهذه الطائفة التى انطلقت تزحف الآن إلى الأمام ، صفوة منهم على بصيرة ، النور ينبثق من حيث تسير . إنها لتملأ الأعين بما ورثت فتخشع وتمتلئ منها بالثناء القلوب ، لتوشك أن تخر ساجدة ، هذه اللحظة التى طالعتها خلالها أمجاد فارس القديمة ، تهجدا وحمدا لملهم الصبر ،

واهب النصر ، قاهر الطغاة . فلقد صدقها وعده ، فلا كسرى اليوم ، ولا عبدة نار ، ولا إدلال بقدرة لا يغلبها غالب طالما ثرثر بها في هذه البلاد حزب الشيطان . . . ذهب الكل وبقى الله . وها هي الآن بهرسير ، الشطر الداني من قصبة الأكاسرة على الشاطئ القريب للنهر ، قد غاب غابرها الصلف في حاضرها الخاضع ، وغابت معه دولة عاتية ، وملك تمرد كما تبدد مع المواصف دخان . .

ويتلفت هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى البلدة الخافضة الجناح بعد إدلال ، فينتبه خاطره ، ويلتمع ناظره ، وتهز نفسه المطمئنة الذكريات . . . على خده الآن دمعة ، ظهرها بكاء ، وليها ثناء . وفي قلبه فرحة وإيمان ، وعلى أهدابه رنوة تتوثب ، فيها ثقة يحفها خشوع ، وفخر يخالطه شكر ، ورضاء يزينه دعاء ... وعندما دنت معالم بهرسير والجيش يسير ، خفقت شفتاه تهمسان نفس الهمس الذي ردده بنفس الموطن منذ أعوام :

« . . . وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا : ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل . . . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ؟ . . »

بلى أقسموا أسمهم ليخلدن — أولئك الأكاسرة وكتائبهم المغرورة بوران — ثم صبحهم العذاب . وكأن ملكهم حلم ليلة نسخته اليقظة . وكأن عزهم ظل أمسية ذاب في النور . وكأن عرشهم بيت عنكبوت ! . . هم الآن ذكرى للخواطر المستعيدة ، وعبرة للعقول الرشيدة ، والعيون الشواخص الشهيدة ، وكم بجند الإمام اليوم من راشد وشاهد ومستعيد . وكم من بينهم له على هذه الربوع دم ، وتحت ثراها الصامت شهيد . . كلما تحركت به راحلة ، أو مشت قدم ، ثار من وقعها مشهد من ذلك النصر الزاهر الذي احتازه سعد منذ سنين ولم تغير الليالي نضاره . كرة الزمن لا تبليه ، وتواتر الفتوح في أعقابه بين جناحي الشمس لم يطو عنهم لواءه الرفيع ، فقد جثت له القادسية ، وتمزق رستم ، وفنيت بوران ، وظفرت الكتائب الإسلامية وهي نشاوى بريح الدماء تجتاح السهل والحزن ، الجامد والماء ، نحو القصر الأبيض وفي أقدامها اجتياح إعصار ! . .

والتوت أجياد . فهنا الآن مظلم ساباط . وهذه خلفه الدائن مطلة على النهر كالشرف العالى تزاحمت عليها أطياف الشفق . وبهرسير بينهما على الضفة الدانية لدجلة كأنها درع تمنطقت به حاضرة فارس — ذاك منذ أعوام ! . . أما الآن فالماضى يثور من وقع الخطا الرتيبة . الغبار لوحة الغابر ، الوقائع البائدة تترى خلاله للعقول الذواكر ، الأعين الراصدة يلتقى لحها ولمح التصور على الأمس واليوم فى مكان . ها هنا اللقاء . فى ذات البقعة . بأرض المظلم اجتمعت الذكرى إلى العيان .

وعندما التقت العيون بمحيا هاشم تحييه كانت الأذهان قد استحيت ساعة من سويعات ماضيه . هو إن وسعه لأغلق على الذكرى التى يكبرونها واعيته من استحياء ، فلا من لديه ، ولا زهو ، ولا إدلال . لكن الذين حضروه حين الفتح — من جنود الإمام — يرونه اليوم بنفس مقامه حينذاك . النقع الذى يثور من أخفاف مطيته على ذات البقعة قد أعاد أمامهم صورته ، وسيرته ، على رأس حفنة صغيرة من الرجال ، بعثها سعد بن أبى وقاص طليعة له إلى بهرسير . . وكانت غبرة القتال ما تزال عالقة بالأردان ، والأبدان فترتها المشقة . والإعياء الزاحف على الأطراف والجوارح يتحول لوسن . وكانت أشعة الشمس واهنة ، يذيبها الغسق ، وينشر منها على المكان ظلالا عريضة . والفرقة الكليلة تلمس المأمن لتنام .

لكن آهة محاذرة أبلغتهم جميعا شف التوجس . . ثم صيحة مخافته . . . ثم صرخة فزعة أطاحت من العيون خفق النعاس .

ودوى على الأثر زئير تجاوبته أركان الليل كأنه قصف صاعقة زجرت فى الفضاء . فى رنينه ثورة ، وفى إرعاده هلاك .

كانت هدأة الطمأنينة هى وحدها ما يسيطر على قلب هاشم إبان الجزع الذى ملك رجاله ودفع بأفئدتهم إلى الحلوق ! . . ومن خلال العتمة التى نقطتها أضواء الأنجم ، مد عينه الثابتة إلى موئل الهدير ، تقتحم الوحش الذى أبطره عنفه وعنفوانه . . .

وتقدم الرجل على سكينة ، وأقبل الليث على اهتياج ، قد شحذ نابه ، ونفخ إهابه ، ونشر لبدته الكثة على جيده كأنه الشوك .

فإن هى إلا وثبة حتى بدا هاشم لأصحابه على باب قبره . . . احتوته أحضان الوحش كأنما غاص فى جلده . والتمعت الأنياب فى الليل . وانفغر الفم الهادر بزئيره . . . اعتنقا برهة كالدهر سكنت خلالها أنفاس الناس . فلما افترقا برق فى الظلمة الثقيلة وميض غدا الوحش بعده لقى على الأديم ، صبغه دمه ، هامد الحركة كالدمية إلا خوارا أطلقته الجراح ! . .

ومسح هاشم شفرة سلاحه ثم أودعه غمده . بغير زهو فعل . على استحياء كهذا الحياء الذى يجلل اليوم محياه ولمح العيون الشهيدة والخواطر المستعيدة يحييه ! . .

وكما همس من قبل ، يهمس اللحظة وهو يجوز مظلم ساباط صوب بهرسير ، فى هدوء وإيمان ، وعينه تدور بالمكان :

« . . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ؟ . . . »
ثم ينطلق خلف الإمام .

٤

كان مسيره والرافدين . مرة إلى هذا ، وأخرى إلى ذاك حتى بلغ مختنق الأرض بينهما فمال يسرة إلى الفرات ، تاركا دجلة ، مغربا نحو الأنبار ، فمصعدا من بعد فى الجزيرة إلى أقاصيها كأنما رام أن يتخذها مرقبا يطل من عليائه على سهل الشام.

العراق كله مراده . سواده الخصيب الذى حفه الماء عن يمين وعن شمال ، وباديته التى هى مهاد نهريه ، وأشرافه التى تحدرت منها الحياة فى روافده سيالة تحدر الدماء فى الشرايين . . لم يدع على فيه ركنا إلا نفضه ، ولا شعبا إلا اعتلاه ولا قاعا إلا انطلقت عيونه وطلائعه فى ثناياه . داس جنده السهول والوديان ، المحل واليانع ، والربا واليفاع . بجانب الفرات مشت مقدماته والضفة اليمنى ، على حافة البادية ، تذرع الرمل المنبسط نحو الغرب كالتيه ، وتشق سبيلها مغاذرة إلى الشمال على هدى الماء . وفى جوار دجلة خرجت فرقة له من المدائن ، تعلو مع الأرض إلى مكان الموصل ، ثم تنفى إلى نصيبين ، ثم تنكفئ فى حذاء نهير

الخابور مخترقة جبال سنجار وقد أوشكت أن تبلغ السور الضخم الذى تؤلفه الهضبة الأرمينية الذاهبة فى السماء . أما مجازه بجيشه الكبير فوسط الجزيرة ، مع انحرافه عن الشرق ، حتى الرقة الواقعة على مصب رافد للفرات ، والمطلة على حوض حلب حيث ينفتح منها الطريق لينا إلى وجار أعدائه .

وكانت الخطة أن تلتقى بهذه البلدة الجيوش الثلاثة : الأصل والمقدمات والطليعة ، وقد هبطت الشام من أعاليه فأمنت أن تجد عنتا أو تصادف مقاومة إلا متى وأينما اختار . فالمشرق الآن له : فارس وما وراءها إلى غاية ما بلغته أقدام جند الإسلام . والجنوب له : ما امتدت الصحارى الفسيحة إلى بحر الهند مجاوزة النفود ونجدا والحجاز . والشمال أيضا له ، حتى حدود أرض الصقالبة ، ولاياته موالية ، وحافته البعيدة هى الحائط الأرمينى العالى الذى تضرب قنته فى الفضاء إلى خطوط الجليد .

أينما خطا كانت قدمه ثابتة ، لها موقعها الأمين المعلوم فمجارى المياه ردء له ، والجبال فوقه ردء ، والصحارى إلى يساره ردء ، وقد جنب نفسه أن يخترقها من الكوفة ليبلغ بين قيظها ومحلها حاضرة الشام ، أما وكر خصمه فركن منبوذ ، من تحته رمال ، ومن فوقه تلال ، وعن يمينه عدة وأعداء ، وعن يساره اصطخاب الأنواء . فليس البحر إذن بواقيه إلا أن يتخذه مسربا للفرار . وليس الرمل إذن بعاصمه إلا أن يتسلل من خلال دروبه إلى فلسطين فتتلقفه على تخومها تماسيح النيل . ولئن كانت دولة الروم اليوم فى عهده ، مهادنة له ، قد سكنها عنه ذهبه وهداياه ، فإنها حين الوقعة حرية أن ترقب حركة الصراع شامتة ، لعل القدر أن يقذف بصاعقة تدك خصميها القريب والبعيد ! . .

لكن معاوية إن يكن آده انطلاق الكتائب الزاهدة إليه ، التى باعت الدنيا بكفن ، تروم أن تدق عليه أبوابه ، وتشق عن قلبه إهابه ، فقد راحت نفسه تتسرب فى الظلام ، تتلمس الهنة هنا والثغرة هناك فى صفوف الإمام عسى أن ينفذ من ثناياها بالدسيسة ! . . فما يعييه الكيد ، ولا إثارة الحسد وإشعال حريق البغضاء ما وسعه وما أمكنه مكره أن يفوز بفرقة مدمرة تقوض دعائم الوحدة التى يرتكز فوقها سلطان غريمه . وإن هى إلا ساعة جاءه فيها نبأ إقامة أمير المؤمنين

حسان بن مخدوج على رياسة ربيعة وكندة دون الأشعث بن قيس حتى نفخ حليف الظلام والمكيدة فى شرر عصبية القبيلة الذى كان الإسلام قد وأده فى رماد التسامح، ونفث فى روع صاحب له من كندة كنفث الشيطان :

« اقذفوا إلى الأشعث شيئا تهيجونه على على ّ . . »

ففعل شاعره .

فلولا أن الفتنة لم تكن نضجت على غصنها حينذاك ، وأن الزمن قد تلكأ قليلا فى سيره لأغر الشعر غره المر ! . . فلم يكن الأشعث للإمام بالولى الأمين وإن تبعه كظله إلى قبره ... وإن خاض معه الدم ... وإن اكتسى فترة فى العيون كسوة الفيصل يسير قدما بلا حيدة عن الحق أو تحرف ! . إنما كان امرأ أعجبته نفسه فرفعها للأبصار ، واقتحم بها الصفوف حتى غدا فى المقدمة يدفعها إليها أصل ونخوة وكبرياء . ولولا أن فاضل بين الخصمين فرجح على ابن عم الرسول لكان آثر ابن هند ودنياه فلحق بركابه وتعلق بأسبابه . ولكنه تدبر فأيقن أنه هنا ذيل ، وأنه هناك ذيل ، فاختار أن يكون خير الذيول ! . .

لم يكن الرجل ، فيما رأيت ، وفيا بقلبه وجارحته ، بسره ونجواه على السواء وهو يتبع الإمام شبرا من الأرض بعد شبر إلى غاية سراه ، وحتى انقضاء حياته وانتهاء دنياه . . . على كان من بدء الأمر لا يكاد يأمنه ، ثم يغلبه فيه أمله على شكوكه ، ثم يرى من حاضره صحائف تحي أمامه أخرى مشوبة من ماضيه فتوشك الريبة أن تملك على قلبه الكبير مسالك الرجاء فيه . عندما انتهت إليه بيعة الناس بعد مصرع عثمان ، كتب له وهو إذ ذاك عامل على أذربيجان يدعوه للولاء والطاعة فكان من كتابه :

« . . . لولا هنات كن فيك كنت المقدم فى هذا الأمر قبل الناس . ولعل أمرك يحمل بعضه بعضا إن اتقيت الله ... ... »

فما صح فيه من بعد أمله وإن صح حينذاك حدسه إذ أتاه منه الولاء . فلقد بايع وإن قدمه لعلى حافة المعصية والتمرد ثم لم يكن له قدر ذرة من الفضل حينما أطاع . . . إنما حثه على الطاعة خلصاؤه ، ودفعته كبرياؤه أن يلحق بعلى ليكبر فى الأعين بشرف هذا اللحاق . . . يقول لأصحابه قبل أن يبايع وهو لا يكتم عن أحدهم نواياه :

« إن كتاب على قد أوحشنى . . وهو آخذى بمال أذربيجان — أنا لاحق بمعاوية ! . . »

وقد حق له أن يميل بفكره إلى هذا النهج فصاحب الشام ليس آخذه — إن اتبعه — بتبعة أو بمال . . !

لكن صحبه يعيرونه :

« الموت خير لك ! . . أتدع مصرك وجماعة قومك وتكون ذنباً لأهل الشام ؟ »

فاستحيا . خجل أن يخون ثقة أناس أودعوها عنده أمانة وهو سيد لهم فيعيد ثانية إلى الحياة قصة خيانة سلفت أوشك الزمن أن يدفنها فى طواياه . . هو الآن شاخ . انفلت به الأجل إلى شفا الهوى . غفلت العيون والعقول عن كبيرة قارفها إبان شبابه فوضعته زمانا فى مهب الهوان . لكن الذاكرات جعبة تختزن كل هنة وموبقة ، فإن هزها فاضت بحديث ارتداده عن الإسلام غب موت الرسول ، رغبة منه عن الله ، وصدا عن دينه الحنيف إلى الملك والعرش والتاج ! . .

حينذاك والشباب مورق ، والمنى تسحر ، وأحلام النفوذ والجاه تترائص فى خياله كتلك الظلال التى تنثرها شمعة تذاءب نورها مع الريح ، كانت الجزيرة العربية مهد فتنة ضالة مضلة ، أثارها الشيطان فعصفت بها عصف الإعصار وجدث محمد ما زال فى فراشه ، مسجى ، تندبه من الأفئدة جراح وصدوع ، ومن الأعين شئون ودموع . كانت دعوة إلى الغواية . استذلت القلوب المريضة والضمائر المدخولة المهيضة . فمنعت طائفة الزكاة . وتنبأ فريق كأنما الوحى همل مباح . وارتدت فئة كبيرة عن ضياء الإسلام إلى ظلمة الجهالة العمياء . . . وكان أبو بكر هو الربان الذى أمسك بدفة السفينة التى اعتورتها كل هذه الخروق فأوشكت بها أن تبلغ القاع . . .

فإن هى إلا أشهر قليلة حتى رتق الخليفة الشيخ ما انفتق ، وعبر سفينه العاصفة رافع الشراع ! . . لقد بعث فى فجاج البادية بموته ، كتائب مجندة عتادها الإيمان ، أقوى من الموت فلا تخشاه ، وأعتى من الطوفان فاجتاحت الصحارى تبل محلها بفيض العقيدة . فإذا الأرض سلام ، وإذا الكفر هباء ، وإذا الأنفس

صفاء . دان مانعو الزكاة . وتردى الأنبياء الكذبة . وبهتت الردة وانكمش ظل دعاتها وأوليائها إلا فلا هنا أو فلا هناك ضاقت به الفلاة الفسيحة فراح يستخفى ويحتجر كالهوام !.. وكان من هذه الفلول شرذمة من بنى وليعة فرت ببقية عمر من أسياف زياد بن لبيد ، قائد الصديق ، الذى ألقمهم الخوف والحتف ، وأشفى بهم على الفناء . أولئك استأخرت آجالهم ، وأمهلتهم المنايا فسحة من زمان شدوا خلالها مطاياهم إلى ديار كندة ، يستنصرون سيدها الأشعث ، ويحتمون فى رحابه ، ويستمدونه على حماة الإسلام .

ولم يردهم الأشعث ، ولم يعجب لهم عندما استعانوه فقلبه فى عشاء ! . . .

كان إيمانه كبعض أبراده ، إن شاء خلعه أو شاء وضعه ! . . فنسى الهدى الذى اعتنقه ، والعهد لله أن يصونه أو يقضى دونه . إنه ليغضى العين عن لؤم وليعة فينسى شماتتها حين جاءها نبأ موت الرسول . وينسى كذلك كيف غنت بغاياها وخضبن البنان ، وقرعن القداح مترعة بالراح ، فرحا بوفاة الذى أعزهن دينه عن الفحش والفسوق . وينسى أيضاً سوى هذه وتلك آصرة صهر ربطته بمحمد إذ تزوج أخته قتيلة وإن لقى ربه ولما تجمعه بها دار . . .

إنما ذكر الرجل الفتون ظمأ نفسه إلى المجد والسيادة فقال لمن استنصروه :

« لا أنصركم حتى تملكونى ! »

فملكوه . وتوجوه كما يتوج الملك من قحطان ، ولو عدوا لرضوا مؤثرين أسياف زياد تتخطف نواصيهم فى حومة الجلاد . . . ولكنهم وضعوا حياتهم أمانة رخيصة فى كف من خان أمانة الله فكان لهم أخون ، وكانوا عليه أهون من حفنة من تراب ! . . .

ويستعز الرجل حينا بتاجه . ويتخبطه صلفه فيحشد الحشود تناوىء جند الإسلام . ويحلم زمنا بملك عرد يأكل اليمن وحضرموت وعمان . ثم تصبحه بعد ذلك الهزيعة فيلجأ إلى النجير : حصن ضخم ، عساه يعصمه . لكن الموت ينصب عليه من خلفه ومن قدامه ، تصبه جنود المهاجر وزياد ، فليس له ولا لأعوانه كاشفة اليوم من قدر الله ، فإن بدت له بعد فرجة إلى نجاة فإنها الخيانة ! . .

ولا تلومه نفسه ، فبعده الطوفان ! . . وإن الليل ليشهده قد تدثر بظلمائه ، يخرج مخالسا كالخفاش إلى « عكرمة » أحد قادة الجيوش التى أتت تقاتل الردة فحصرت أهل الكفر من حصنهم فى وجار . فإذا لقيه ولقى المهاجر وزيادا باعهم نواصى رجاله ، وحرية النساء والأطفال ، ببقية عمره ! . .

قال لهم :

« استأمنكم »

فسألوه :

« علام ؟ »

« أهلى ، ومالى ، وعشرة ممن أحب ، ثم أفتح لكم الباب . . . »

وفتح الباب .

ووقع ملكه المزعوم كله طعمة فى يد جند الإيمان .

وجىء له بكتابه الذى ضمنوه الأمان للعشرة الذين اختار ، فما تبينه حتى أخذ قلبه يتسرب قطرات بين حبات الرمل ! . .

إنه فى ساعة حرصه على الحياة نسى أن يكتب لنفسه الحياة وكتبها بعهد أمانة لعشرة سواه . .

وهتف المهاجر ساخرا ، وقد فرغ جنده من حصد أهل النجير وهم ثمانمائة فارس وراجل صريع وقتيل :

« الحمد لله الذى خطأك نوءك ، ياعدو الله ! . »

فسجد يستجير ، والسيف يبرق على عنقه .

وعندئذ حدث عكرمة رفيقه المهاجر :

« ألا تؤخره ؟ . . أبلغه أبا بكر فهو أعلم بالحكم فى هذا ، وإن كان رجل نسى اسمه أن يكتبه وهو ولى المخاطبة أفذاك يبطل ذاك . . . »

فأخذوه إلى المدينة ، مع بنى قومه وأسراهم من نساء وأطفال ، مصفدا بالحديد ، لا تكاد تلمحه عين امرأة منهم حتى تنحرف عن شؤمه أن دك بيتها وأخربه إذ أثابها الثكل والترمل ، ولا عين غلام غر دق عنقه عن حديدة الحسام ، فلم يصده الحمام ، إلا تأورت عليه من حقد إذ أثابه اليتم والذلة . فبصدره

هاض ملكه ، وعرف السيف طريقه إلى قومه ، وأذاق فلهم غصة الهوان ، وهان ! . . .

ويتردد فى أذنيه ، والأصفاد ترن فى معاصمه ، والدرب أمامه المدينة طويل ، ولولة الأيامى والثكالى والأيتام ، مختلطة بذلك النعت الذى ألصقوه به ناطقا بغدر :

« يا عرف النار ! . »

إنما الذاكرات جعبة ، تختزن الحسنات والسيئات فإن هزها اليوم فاضت بحديثه بعد أن كادت العقول تنساه ! .. فهل يجسر ؟ . . لكأنه ، هذه اللحظة وتحريض الشاعر يحرك منه مكامن الخيانة قد سد أذنه ، وكن قلبه المفتون بغطاء من الخجل والتحرز أن ينفلت ثانية إلى ماضيه . . وما هو بغرير ، وما هو إن أصغى إلى نظيم الوقيمة بآمن أن تتبعه كندة كما تبعته قبلها وليمة . فالخير إذن فى الخضوع لأمر على ، والسلامة فى الاستسلام . . .

ويقبل عليه حسان بن مخدوج ، وقد حزر حقده وغيرته يريد أن يخفف عنه :

« لك راية كندة ، ولى راية ربيعة . . . »

فتأخذه النخوة أن يتفضل عليه منافسه :

« معاذ الله ! .. ما كان لك فهو لى ، وما كان لى فهو لك ... »

لكن ابن مخدوج كان أعلم به فلم يرد فرقة تدب فى صفوف أعوان على . لإمرة على طائفة يتولاها هو أو يتولاها غيره . فإذا افترقا ، أخذ راية القيادة فلحق به فركزها له فى مقامه .. وعندئذ يسارع الأشعث إلى الإمام لينفى الشبهة عن نفسه :

« يا أمير المؤمنين . إن يكن أولها شرفا فإنه ليس آخرها بعار ... »

فيرمقه على هيبة ، ثم يرضيه :

« أنا أشركك فيه . »

وتخمد شعلة الوقيمة ، وتتوارى الخيانة إلى حين ...

٥

الأيام التى أعقبت المحنة النفسية التى عاناها الأشعث بعد رسالة الدسيسة ، شهدته وفيا غاليا فى وفائه . . . بدا كأنما الماضى الأسود الذى كتبه فى سجله غدره القديم لا يفى يطل عليه من خلال ساعات يومه ، وآناء ليله ، كمثل السوأة المكشوفة تؤذى الأبصار ولا تحتجب عنها بدثار ! . . فوفى لخير وفى ، وأخلص كأدنى ولى ، ومضى الزمان كله — حتى اللحظة التى غلبته نفسه فيها على احتراسه — يضرب بظفره ونابه ، ويثير من رهج البذل والشجاعة لغاية الإمام ما يشغل العيون عن زلته ، ويمسك الألسن أن تردد حين تلقاه : « يا عرف النار ! . . »

وقنع بدوره الذى أملى عليه : لبنة فى البناء الكبير المؤلفة منه أداة الدولة الإسلامية فى تلك الحقبة الصاخبة بالحوادث الجسام . إن يكن فاته أن يكون من عمدها فالعماد حينذاك الخليفة والكل عصبة وأوتاد . أو يكن فاته أن يجبل من مصيرها ما قد شاء فإنه الزمن الذى لم يسعفه ، والوعى العام كان فى انتباهه ، كإقعاءة الأسد عند الخطر ، قد تهيأ وتحفز فليس يؤتى من غرة ولا يغمز ! . . فما عدا الجمع الضارب الآن بالقدم والظهر إلى جار الروم أن يكون فرقا من كتائب الإيمان ، خرجت فى الله ، لتعز دينه ، وتنصر عهده ، وتنشر لواءه عاليا على صروح النفاق . وكأين من رجل اليوم هجر داره ، وسار مسيره ، قد التوت به الذكرى إلى الأمس ، عندما هاجر الرسول للمدينة من البلدة الحرام ، فرأى نفسه صديقا آخر يوشك كلما امتدت الخطا به فى الشعاب أن يتبدى له على مدى النظرة الكئيلة « حراء » ! . .

على أنه مع ذلك لم يكن من العروض — هذا الأشعث الذى تلبدت رأسه بشعرها فأعلمته من بين الناس ! . . وكانت الأفكار فى ذهنه أيضا ملبدة ، والنبات فى فؤاده ، والآراء بين شفتيه . . . بل الأرض تحته غدت مشتبكة الدروب ، مختلفة المسالك كشرك الصياد ، فليس يدرى أيها مجازه . إنه لفى حيرة ، فالشدة أقسى ما تمتحن فيه الضمائر . وإن يكن مضى شوطه ، بعد وقيعة الشاعر ، إلى أرض الشام وهو يدخر لها من سلاحه وجلده ، فقد ادخر عاملها له من

دسائسه وهو على بينة بما يهدهد رياءه ، ويمسح على غروره ، ويلوى بعنانه إلى الغاية التى يروم . . .

ولكنه انطلق فى ركاب الإمام للأمام ، علما بين أعلامه إذ ولاه ميمنة أهل العراق . الآن هو شىء فى أعين قومه ، وفى جسد الجيش ، وحيال النظرة الزارية حين تود اقتحامه يمز دونها على الاقتحام . . . حتى أن تهدأ نفسه ، وأن يسكن جأشه ، وأن يطيب خاطره ، وعندما تأزف الآزفة سيرين ربيعة ، وكندة واليمن جميعا أنه فى حسابهم ذو خطر ، لا يلقن دوره كما يلقن سواه ، ويسعه وحده أن يخط مصيره بيمناه !

* * *

والجيش بعد هذا يسير . والزمن أيضا يسير فتلبس الأنجم الصفا ، ويرف النسيم بالدفء ، ويزهر الأرض كالرياض . فقد أقلع الشتاء بصقيعه ، وخفقت فى الجو أنفاس الربيع تبعث اليقظة فى الأوصال المقرورة . مضى شوال . وأقبل القعدة ثم خطا إلى حدوده . ووافى الحجة ففى النفوس حنين بقدمه إلى الكعبة الحرام ، وبالقلوب إلى مثوى الرسول وله وغرام . لكنهم إلى اللقاء أشوق — أولئك الكتائب الزاحفة من جند على تروم بزحفها جيرة الروم !.. كلهم يتعجل الزمن إلى ساعة الجلاد ، وإن أتت بحينه ، ليسل سيفه ويجلو سنه على الرقاب . فما الموت بمزلزل يقينه ، ولا هو راده عن الغاية وإنه لغاية تهون أمامها كل الغايات ! . .

فى خلال هذه الفترة ، مضت الأمور على ما اشتهى على ، ووفقا لما جرى بتقديره . . . ذرعت الطليعة الصغيرة الأرض صعدا إلى نصيبين . وقطع جيشه الكبير الجزيرة بغير معوق ولا مقاومة . وأخذت مقدماته على عنق صنق الفرات حسبما رسم لها خطة المسير . غير أنها فى الطريق قلبت الرأى فرأت أن تعبر النهر عند « هيت » حين جاءها النبأ أن معاوية قد زحف بجموعه ليهاجم القوة الرئيسية التى يقودها الإمام . على عجلة عبرت بعد أن قطعت نصف الشقة إلى « الرقة » لتربط مصيرها بمصير سيدها ، وكل جندها وقادتها يرددون :

« ما هذا لنا برأى : أن نسير وبيننا وبين أمير المؤمنين هذا البحر . . . »

ثم أمعنت فى السير والضفة اليسرى للنهر ، فإذا هى من بعد لاحقة لا سابقة ، قد بلغت فى «قرقيسيا» مؤخرة الجيش وهو يوشك أن يجتاز عند ثنية الخابور . فلما تقدم زياد وشريح للإمام خفقت بسمة على ثغره وخاطبهما فى دعابة :

« مقدمتى تأتى من ورائى ؟ . . »

والتأم الجمعان . ومضى الجند حشدا واحدا حتى نزلوا على جانب الفرات « بيليخ » . هنا تبينت لهم مواقفهم ، وراحت سمات العداء تتجمع سمة سمة وهى تنبىء باقتراب ساعة الحومة ، فقد لوت الرقة بأعناق أهلها عن الإمام ، فغلقت الأبواب لا تعينه بشىء ، ورفعت سفنها من الماء لا يعبر ، وردت طلبه أن تجسر جسرا بينها وبين مستقر أعدائه يصبحهم منه أو يمسيهم ! . . كانت البلدة عثمانية الهوى ، لاذت بها من الكوفة فئة فرت من كفه ، وغلت فى شقاقه ، ونزعت نزعها إلى ابن هند ، تكاتبه ، وتعنو له ، وتلتزم نفس نهجه فى اللدد والخصومة .

ومع ذلك فلم يعضل عنتها بالإمام . ولم يدفعه إلى حافة غضبه فينكل بها وإنها لفئة واهنة : مئات قليلة ، لا تكاد دماؤها تشبع حسامه ! . . فالدم عنده حرمة إلا فى مأثم عز دونه كل دواء . والعنف أبغض وسيلة من وسائل المجالدة والكفاح . ولئن جيش ، وزحف ، وامتشق ، فإن نفسه ظلت كافة بالسلام تحتال لالتماسه ولو من سم إبرة ! . . وما كان يعييه حينذاك أن يقمأ فرقة مثل هذه ضالة ويحملها على ما تكره . ولكنه طفق يرجو — إن يفسح لها فى رفقه وصبره — أن تجنح إلى الحكمة وأضرابها من الغلاة فى شقاقه ، فيملك الأمة أن ينفرط عقدها ، وتتقسمها الشيع فتذهب مع الريح . . .

على ظلمهم تركهم ، تلك الليلة من ليالى ذى القعدة،ويحسبون حصونهم مانعتهم بطشة المنية . وما هى قط بمانعة إن يهز فى وجوههم حسامه ، ولا بدافعة عنهم البلاء إن يعدد نحوهم إصبعا تنطلق معها جنوده يسحقون الديار والأعمار ! . . غير أنه آثر الرفق ، وقدم المهلة ، ونثر رقعة الأرض التى تليهم فاختار العبور من جسر « منبج » ليقحم جيوشه إلى « حلب » من الشمال .

ومن الرقة بعث بكتاب :

« ... إلى معاوية ، ومن قبله من قريش :

إن لله عبادا آمنوا بالتنزيل ، وعرفوا التأويل ، وفقهوا فى الدين ، وبين الله فضلهم فى القرآن . . . وأنتم فى ذلك الزمان أعداء لرسول الله ، تكذبون بالكتاب ..

فلا ينبغى لمن ليست له مثل سوابقهم فى الدين ، ولا فضائلهم فى الإسلام ، أن ينازعهم الأمر الذى هم أهله وأولى به ...

ولا ينبغى لمن كان له عقل أن يجهل قدره ، ولا أن يعدو طوره ، ولا أن يشق نفسه بالتماس ما ليس له ...

فاتقوا الله الذى إليه ترجعون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ... »

وكم من كتاب ! . . ولكنه اليوم نذير .

لئن ترفق وأملى لهم ، فقد ترفق قبله محمد بسلف لهم ، وبهم ، وبأمثالهم كثير . وما على بالذى يعدو طوره فينصرف عن تأثر الخطا المرسومة التى طبعها الرسول المظيم فى الدعوة . « فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ، فهى خاوية على عروشها ، وبئر معطلة وقصر مشيد » ... « وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ، ثم أخذتها وإلى المصير ... »

٦

هم كانوا أهله ، أولئك العصبة الجامحة فى خلافه . من العشيرة الأدنين . عامم وإياه فى الزمان أصل ، ثم ربطهم به من بعد صهر وجوار . إن يسيروا على دربهم فلن يضيروه ما عاد أمرهم إلى الله فهو أعلم بهم ، إليه الرجعة وعنده الحساب ... أو يتيهوا بقضهم فما يغنى الجمع حين تلتقى الأسنة وتبدو الآخرة من غير حجاب ! ... إنه على بينة ، يمده الحق وجنوده . وهم على شبهة ، تبعوا الطاغوت فضاقت المسالك ، ودنت المهالك وغدوا بغيهم فى تباب ! ...

وكان عزيزا عليه هذا البغى الذى إليه أنسوا يقطفون من ثماره الخبيثة . فالهوى شقوة . والمصير شقوة ، قصر عمرهم أو طال ، وعندما تشرع سيوفه فسوف تتربص بهم على أشفارها مناياهم ثم تحمل فلهم على امتثال نهجه الذى تنكبوه عنوة وكرها ، ولات حين توبة إن غر الأمل شخم الأجل وأقبل المآب ! . . .

الكرة بعد الكرة حذرهم الفرقة . بالرفق فعل ، وبالموعظة الحسنة ، وبالحكمة وبالبيان لايتشكى السأم لسانه أو بنانه . كانت الرحمة دائما تغمد حسامه والرحم ، وحق الجوار فى الوطن والله . كلما دعاه عنتهم وجد قلبه إليه أقرب ، فداوى بالحرف مايداوى بالسيف ، وله فى نبيه الهادى مثال . . . فى بطحاء مكة كانت أعين خياله تراه ، وبين الشعاب ، وعلى دروبها التى فرشتها الشمس بوقدة من الهجير كالنار . لم يغب محمد عنه ، ولم تغب أماثيله . دورة الزمن لم تستطع أن تطمس الذكريات . والواعية فتية ندية وإن صلب بدنه وشاخ . وحين تراوده القنا والحراب عن مصارع الفلاة فى الكيد له ، تشرق أمامه البسمة الحانية ، والفم الذى ترف الشفقة على شفتيه ، والعينان اللتان تفيض منهما المغفرة كالدموع وإن مشت على الملامح الرحيمة مسحة من الحزن قد رسمها مايلاقيه من عناء وقسوة وتعذيب . فإن يكن يحزن لما يصيبه فحزنه لهم أشد أن خالفوه فارتضوا عمى الليل دون نور النهار . أو يكن لم يعجزه منهم النكال ولم يصده عن السير فى سبيله ، فالرجاء فى جذبهم إلى حظيرة الهدى كان حلم أيامه ولياليه . . .

كم من ساعة أظلتهما معا — الرائد وفتاه — فى كنف الكعبة ، وحيال الستر ، وعند الحجر . هذا يدعو بقرآن الله ، وذاك يرقب . وهو غلام ، خوالج الأنفس المفتونة بغيها كيف تطفح استكبارا وعنتا وسخرية على الوجوه . . وكم من لحظة وارتهما معا وراء الظلال نأيا عن الأكف الأثيمة التى تربصت للنبى بالعدوان . . . كان محمد حينذاك هو النور ، وكان على الظل الذى يتبعه ويدور معه حيثما يدور ، وذاك عهد انطوى سجله . مضت شروره حتى ظن أنه لا شر ، ودفن الماضى شياطينه فى « القليب » ! . . فلو أنهم أسعدتهم نجومهم لفقهوا الإسلام قبل الحمام فحققوا رغبة طالما ألحت زمانا على الرسول أن يجنبهم الضلالة إذ كانت لهم به وشيجة ، وفى قلبه مكانة ، وبين قومهم أقدار . ولكنهم غووا ،

على خلاف مشتهاه ، حتى نفض منهم يديه ، ووقف على أشلائهم وهى ألقى على الرمال تهم أن تتخذ من القليب منقلبها ومثواها ، يلحى جحودهم وطغيانهم :

« يا أهل القليب ، بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ! ... كذبتمونى وصدقنى الناس . وأخرجتمونى وآوانى الناس . وقتلتمونى ونصرنى الناس ... هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ . . فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا ! . . »

واليوم على على صراط رائده . إن يكن قد ذهب النور فتقلص الظل على أثره فما يفى الصوت يتواتر جرسه وتتردد فى أعقابه رنة صداه ! . . الشهاب يعتلى برجمه ، والنجاد ، والربع الخالى ، والبوادى السارحة حول المياه والخضرة . إلى الغاب والشجر ينطلق ، وإلى العيون التى تفجرت من الصخر ، وإلى منزل أشم بمكان أفيح تأرجت بأنفاس زهره نسمة الشمال ...

لكن الغى كتاب ، والرشد كتاب . والقدر من فوقهم يحرك يمينه فيدفعهم بظلمهم إلى بوار . فباءت يدان بالخسران كتبتا على صاحبهما الغواية حين خط ما أملته عليه الأهواء .

« من معاوية بن أبى سفيان ...

أما بعد :

ليس بينى وبين قيس عتاب غير طعن الكلى وضرب الرقاب »

نشر القدر صحفه ، وصرف بقلمه ، ثم طوى سجله على المصير المقدور ، وقد اختار للخلف محنة السلف الذين شاقوا الرسول ...

فليكن هو الهوى المضل ، أو هو الطمع المذل ، أو زخارف الحياة التى صيغ نسجها من أباطيل قد فتلها الشيطان الغاوى خطاما يقود به أولياءه إلى مهواه ... فلتكن هذه كلها ما أغوى معاوية وانحرف بخطاه عندما سطرت يمينه كتابه وختمه بخاتم محنة لسوف تمزق أمته وتدفع بها شيعا ضعيفة محاولة يتخبطها التفرق والانقسام . غير أن سوسة الغل كانت تنخر كذلك فى سويدائه ، وعفن الحقد ، وقبيح المواجد القديمة التى لم تبلها فيه سماحة الإسلام وإن وارتها زمانا كالجذوة المتقدة طمرها الرماد ! .

وتتردد لحظة فى سمع الإمام كلمات كان قد ألقاها على الناس عبد الله بن بديل ابن ورقاء الخزاعى قبيل مسيرهم إلى أرض الفتنة لمناجزة العامل المشاق :

« كيف يبايع معاوية عليا وقد قتل أخاه حنظلة ، وخاله الوليد ، وجده عتبة فى موقف واحد ؟ . . والله ما أظن أن يفعلوا . ولن يستقيموا لكم دون أن تقصدفيهم المران ، وتقطع على هامهم السيوف ، وتنثرحواجبهم بعمد الحديد ! . . »

وصدق عبد الله . فقد ود على السلامة للعشيرة الأدنين ، وأبى ابن هند إلا أن يشملها نارا تأكل منها بحطبها من تأكل ، وتقذف بقايا جيفهم ، كسلفهم ، فى قليب جديد ! . .

ويأسى على أسى محمد إذ خذله أهله أمس ونبوا به حين دعاهم بدعوة السماء . ويتريث وقتا كمن يتوق أن يتدبر لهم — وإن كرهوا — ثغرة إلى الهداية ، فلما أن يؤوده الفكر ، وتعييه الحيلة ، وتعز عنه الوسيلة ، يهمس لنفسه فى حسرة وإشفاق :

« إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين . . . »

ولا يرد عينه الغائمة بدمع الرحمة عن رسالة الخلاف التى أقبلت عليه مزهوة من المنزل الأثيم بالمكان الأفيح الذى تتأرج بأنفاس زهره نسمة الشمال . . . لا يردها وإن ضربت حولها عيون الأشتر والحسن وعمار ، وبقية صحبه وأوليائه ، سياجا من العواطف اختلفت أعواده وتباينت آحاده ، فيه التحدى ، وفيه الحزن ، وفيه الرغبة تسبق الزمن إلى سويعة جهاد . إنما يظل يرمق الأحرف وهى تتوثب أمام ناظريه كألسنة النار ، كاسفا أسيفا . وشفتاه تنطلقان فى التلاوة بصوت رحيم عميق رقيق :

« . . . وقالوا : إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ، أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ؟ — ولكن أكثرهم لا يعلمون . . وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين . . . »

وعندئذ تضطرم قلوب بشغفها ، وتتطلع أعين ، وتتهيأ سواعد وأقدام . . . ذهبت المحاسنة . دنا البأس . ملأت الجو ريح الحرب والدم والنار ! . . . لبس كل لأمته ، ورحل دابته ، وغدوا جميعا على أهبة كأنهم ، لفرط تحفزهم ، يقفون على أعلة قدم ! . . الآن لم تعد بهم حاجة إلى التمهل . ولا إلى الإملاء فى الصبر للعدو العنيد . وإذا كان الإمام لم ينل بعنفه أهل الرقة حين حبسوا عن رجاله سفنهم ، وأبوا أن ييسروا له عبوره إلى أرض الشام ، فالآن لم تعد ثمة مدعاة إلى الرفق والهوادة وهذا دليلهم الذى يأتمرون له قد أسفر اليوم عن وجهه ، وخطت يمينه دعوة الصراع . .

فإن هى إلا سلخة من الزمن ، كيوم أو بعضه ، حتى ثارت بالأشتر حميته ، فاندفع إليهم بحصنهم وهم محتجرون ، يدق عليهم بسيفه الباب ، ويزأر لهم الوعيد :

« يا أهل هذا الحصن ! . . إنى أقسم بالله لئن مضي أمير المؤمنين ولم تجسروا له عند مدينتكم حتى يعبر منها لأجردن فيكم السيف ، ولأقتلن مقاتلتكم ، ولأخربن أرضكم ! . . »

فأخذهم الخوف فجسروا . . . وبعث هو إلى على ببعض الطريق « نحو منبج » فعاد . . . ثم عبر الجيش إلى أرض الفتنة ، كتيبة كتيبة ، فرسانا ومشاة ، يزدحمون جميعا ويستبقون كأن لأقدامهم أجنحة طير ! . . .

كانوا على شوق . فهذه الأحرف التى أتتهم من قصر دمشق طريقهم إلى الكعبة ! — إلى منى القلوب ! — إلى غاية ينشدونها من زمان على قطر الدم ، ومزق الجوارح ، وبقية الروح ! . . . لم يعد يمسكهم الأمل فى صلح ، ولاطيف سلم . إنما رفع معاوية ذلك الرتاج الذى كانت تنحبس خلفه عواطفهم فتدفقت كالسيل يحمل الدمار فى تياره إلى العصبة الجاحدة التى أضلها الهوى عن الحق إلى شفا المصارع ! . . .

واحتشد الجمع العابر على الضفة الثانية للفرات يمد عيونه وشوقه عبر الصحراء إلى ملاذ أعدائه . . . كله رغبة فى اللقاء . لا رهبة ولا خوف . فى القلوب

شغف . على الشفاه بسمه ... اللاميح الصلبة كأنها صخر نحته العزم فأبدع تشكيله . والصدور أفسحت ، والأذرع فتحت لتحتوى هناك فى أحضانها — إبان الحومة — فرائد الحور ! ...

وتمهل هنيهة على الشاطىء فارسان ، عقلا دابتيهما ، ثم مضيا معا إلى النهر يخوضان ماءه ... كانا قد ازدحما على الجسر حين العبور يرجو كل منهما أن يكون له على زميله فضل السبق عسى أن ينفذ بسيفه قبله إلى صدر مفتون ، فإذا الخطا تشتبك ، فيضطربان ، وتسقط إلى النهر قلنسوة هذا وقلنسوة ذاك . . .

ويقول أحدهما لصاحبه وهو ينشل قلنسوته :

« يا بن الحجاج .

إن يك ظن الزاجرى الطير صادقا   كما زعموا أقتل وشيكا ، وتقتل ! »

قال الثانى ، والفرحة حينذاك تغمر محياه :

« ما شىء أوتاه ، يا عبد الله ، هو أحب إلى مما ذكرت » .

وأسرعا يمتطيان ، ليسبقا الجمع . . .

فالوجهة الجنة ! ...

١

لولا أن حاجز بينهم وبين القتال ، فربما غرسوا على شاطئ الفرات ، بعد المعبر ، جنة من الجماجم ! . . ما كان يصدهم أن تسكون الرمال الأكفان ، والدم الغسل ، والنصال التي تقصدت في قلوبهم صحائف تدل عليهم ، وتعلم لحودهم أمام الأعين وهم رقود عاشوا بالموت بعد أن فارقوا الحياة ! ... فالمنية لديهم بداية ، والشهادة فريضة ، والدم قربان . وحين تحركت بهم دوابهم تدع الماء وتوغل في البلقع ، كانت المنى لا تزال تخطف في أخيلتهم ساعة العدوة كهذا الشعاع السابح يتوثب به موج النهر ، إن مد برق أو جزر غرق ... فالجهاد حلمهم الذي غذا خواطرهم . واللقاء في ظلال الأسنة غاية الأنفس تتوق إليه في حنين . والإمام — إن كان نهاهم ، يومهم هذا ، عن المبادأة بسل الحسام — فالنذر في الجو تهم أن تتجمع فيوشك معها أن يدعوهم لرى الفيافي الظمآنة ! . .

هم قد خرجوا يرتادون ، وما من حيلة لمرتاد ... إن الأرض أطلعت عليهم الأمن سكنوا ، أو العنف شدوا على عدوهم كجالدوه ويا ما آثر الكثيرون منهم لو استقبلهم عدوهم بالصوارم ! ... اليوم أعيام الحلم . أسأمهم السلم . تقطعت نفوسهم حسرة على تلك الفترة من أعمارهم التي أمضوها يطاولون خصمهم بغير طائل ... لكن علياً كان يدخر الحرب إلى لحظة في خاطره ، خفية عن كل خاطر ، بعيدة عن أناة الحالم وصبر المصابر . فما هو لهو ، ولا هي حشد ، ولا هي غيلة . بل صراع شريف بين جمعين : تعاقد يختمانه بالقبول أن يحتكما إلى الأسنة لتحسم ما لم يحسمه كلام ولم تقطعه أقلام ! ...

لم يكن قط ليخلب النصر من غرة ، أو يعمل القنا في ظهر ... فليست الحرب غارة تسير وفقاً لشرعة العابثين بالمحارم من قطعة الطريق ومحترفة القتال . وليس يبيحها أن يخالف فريق ويشاق إلا أن يعلنه الآخر بها ليصبح على أهبة وحذر ، إن شاء خضع فبايع ، أو شاء أبى فدافع وهو حينذاك متبين سبيله الذي اختار ... تلك شريعة ارتضاها القدامى ، وتعارفت عليها جيوش الأسبقين من الدول والشعوب ، كان القتال وفقاً لها صراعا سافراً نبيلا بين الأجناد ، لايقر

البغتة قبل الإعذار ، ولا تتهيأ له مقوماته دون إعلان ، فلا فجأة ولا غدر ، يلتقي فيه الغريمان وهما على بينة : كفتان عالمان ، وجها إلى وجه ، وصدراً إلى صدر .

في هذا الضوء الذي يبدد ظل الشبهات ، خرجت كرة أخرى مقدمات الإمام من الجانب الغربي للفرات تجاه الرقة ، ترتاد الأرض في طريقها إلى الشمال . وكان عليها هذه المرة أيضاً زياد وشريح . وكان هدفها أن تنفض السبل أمام القوة الرئيسية التي كانت حينذاك تتجمع وتنتظم بعد عبورها من الرقة لتحث الخطا إلى منزل لها تختاره في ديار الفتنة . فما يأمنون جميعاً الغدر من معاوية وإن جاءت على غير ما تبيحه شريعة الحروب ، لأنه يبيح ما لا يباح ، ويقاتل بأي سلاح ! . .

ومضت بهم مطيهم محاذرة ، تخب هونا على طريق حلب . فليسوا يخشون جانب دمشق وقد علموها البؤرة التي تركزت فيها جحافل الشام ، وإنما الحذر من هذه المدائن الضاربة إلى تخوم دولة الروم ، والتي قد تكون جبهة لفرق إضافية أعدها ابن هند لتفاجئ الإمام من مأمن ، فتكر عليه من الشمال بينا تزحف الجحافل الشامية عليه من جنوب وغرب تسد دونه المسالك فيغدو بها في حلقة وثيقة ليس فيها ثغرة للخلاص إلا مياه الفرات ...

ولم يغب طويلا عن أمير المؤمنين نبأ مقدماته التي انطلقت غرب النهر ترود له الأرض ، وتعد الآنف والآذان والعيون إلى تجمعات أعدائه . بل هو يوم أو بعضه ثم بعث فأحضر الأشتر :

« يا مالك ... إن زيادا وشريحاً أرسلا إلي يعلماني أنهما لقيا أبا الأعور السلمي في جند من أهل الشام بسور الروم ، فنبأني الرسول أنه تركهم متوافقين . فالنجاء إلى أصحابك النجاء ... »

وأمره عليهما يعملان تحته على ميمنته وميسرته ، على أن يعذر إلى عدوه ، المرة بعد المرة ، ولا يدانيه جانحا لاعتداء ، متشرعا لحرب :

« ... إني أمرت عليكما مالكا . فاسمعا له . فإنه ممن لا يخاف رهقه ولا سقاطه ، ولا بطؤه عما الإسراع إليه أحزم ، ولا الإسراع إلى ما البطء عنه أمثل . . . . »

وتواقف الجمعان : مقدمة على ومقدمة معاوية بسور الروم بقية النهار . يوشك الرائى ألا يلمح فى وجوههم عداوة ، بل سكينة وطمأنينة . يتبادلون الحديث فى وئام عن الوحدة ولأم الصدع ، منهم معذر ومنهم مخالف . فاجتماعهم لبيان ، وافتراقهم بإحسان .

غير أن الليل كان يبطن الغدر فى سواده ... فلم تكد تعابث الأعين فى معسكر الأشتر هجمة حتى دهمتهم الخيل يقودها أبو الأعور وهو يحسب أن الغرة مجزيته الظفر . إنه ، فيما يبدو ، على دين سيده ، لا يأثم ولا يتحرج ، فكل ما يثيبه الغلبة حلال ! . . لكن القوم الذين ظنهم لقية هينة بلا سياج من الحذر والتأهب ، قد غالبوه هجمته ، فاضطربوا ساعة ، وثبتوا ساعة ، ثم كروا فما أسفر الصبح حتى كانت أرض الوقعة من أبى الأعور وأجناده الغدرة خواء . .

كما استتر بالظلمة قدامهم ، توارى بالسحر مخلف المكان مصعدا برجاله عن سيوف خصمه ، نازحا بهم إلى الشمال ... ترك خلسة سور الروم ، وأسحر منها إلى ملاذ ... إن كان لغاية أضمرها الرجل فى دخيلته ، فلعله خشى أن تنال من جمعه الأسنة إن هو ثبت ، فاستمهل إلى حين هنيهة الجد حتى يزيد أهبة ، وتثين له فرصة جديدة . أو لعله قاس فسحة الزمن فعلمها فى حسبانه سويعات إن تبق له على رجله وخيله فإن غدا مطلع عليه بعدها وليه فى حشود تملأ الأرض فتشد أزره وتعلو به على عدوه أو لعلها مكيدة الحرب ، والحرب تراجع وفر كما هى صبر وكر على أية حال ارتد أبو الأعور يبتعد ، وتحرك الأشتر مع البكور ، فى طائفة من المقدمة ، ينشده على الدروب والمسالك المتفرعة من البلدة حتى ثقفه قد لاذ من « قنسرين » — فى منتصف الطريق نحو حلب — بربوة تحميه ، وتهيئ له من شرفها حصنا يدرأ عنه غرة الهجوم ... وكان النهار قد تبين . والصبح يلقى ظله ونوره ، والقفر حولهم ينبت الوحشة من كل ذرة فى رماله ، ويوحى إلى الفراغ ...

حتى أولئك الذين قد عرسوا بالقتال من أعوانه ، وراحوا يدلون بفروسيتهم ، ما ثبتوا برهة حتى حصدت بعضهم سيوف غلمة من أجناد الأشتر فانطووا فى الثرى مغيبين كانطواء ذكر لهم كان — إلى ساعة حينهم — كأسطورة ! . . ونكص

البقية على الأعقاب إلى تلك الجنة التى ادرع بها أبو الأعور، يلتفون حوله يعصمونه إن أغارت عليه هذه الطائفة من مقدمات الإمام . لكنها لم تكن حربا توفرت لها شرائطها ، واكتملت مقوماتها — وإن عاجل فيها صاحب معاوية أعداءه بالعدوان . فلم ير الأشتر أن يندفع بوحى غضبته ، بل استحضر نصب عينيه وصية على ، فآثر الكف جهده عن الباغى ، وقدم الأناة .

لكنه لم يكن ليأمن منهم عدوة مباغتة ومبادرة كأمس إلى الغدر والخديعة ، فأحب أن يكف عن نفسه وعن جنده بلوى القائد الغادر ويناله بجزاء بغيه وطغيانه . إنه مراوغ كثعلب — ذلك الرجل الذى باغته ثم انسرب من بين يديه يحتجر تحت ستر الظلمة ... وهو فارس القوم . وهو ظفرهم ونابهم . فلو حرك فيه إدلاله بقدره ، واختياله بشجاعته فى مجالى الطعان ، فلربما وسعه أن يختلب هذه المقدمات الشامية نابها ، ويقلم ظفرها ، ويدعها مكفوفة الأذى حتى يلتقى الجيشان فى ميدان الحرب ، يتناجزان أو يتوادعان ...

رام القائد ولم يرم الفرقة ، فاحتجارها عن رجاله استئمان ... كف إلى حين ... مهادنة موقوتة بساعة أو بساعات . فلم يكد يصف جنده على أهبة ، ويؤمن منزلهم ، ويحفهم بما يجنبهم بغتة الغريم ، حتى دعا الأشتر إليه فتى من قومه النخع ، فأمره بأمره :

« يا سنان ... انطلق إلى أبى الأعور فادعه إلى المبارزة » .

فهتف الغلام :

« مبارزتى أو مبارزتك ؟ »

« أو لو أمرتك بمبارزته فعلت ؟ »

« نعم ، والذى لا إله إلا هو ، لو أمرتنى أن أعترض صفهم بسيفى فعلت حتى أضربه بالسيف ! . . » .

عندئذ ابتسم القائد لفتاه ، وقال وهو يربت كتفه :

« ... إنما أمرتك أن تدعوه إلى مبارزتى ، لأنه لا يبارز — إن كان ذلك من شأنه ! — إلا ذوى الأسنان ... ولكنك حديث السن يا سنان » .

لكن السلمى — فيما بدا — كان جديرا بسخرية مالك فلم يكن من شأنه

لقاء الأقران ! . . فما هو أن سمع الدعوة إلى المبارزة حتى راغ وهو يعتل بتعلة لعلها أن تدارى اضطرابه ... سكت طويلا عن الرسول ، وأغضى يتفكر ويتدبر ، فلما آن أن يرفع عينيه وجبينه ، كانت عبسة تظل ملامحه ، وتغشى على وجهه بالوجوم .

وقال لسنان :

« إن خفة الأشتر وسـوء رأيه هو الذى دعاه إلى إجلاء عمال عثمان من العراق ، وافترائه عليه : يقبح محاسنه ، ويجهل حقه ، ويظهر عداوته ... إنه سار إلى عثمان فى داره وقراره ، فقتله فيمن قتله ، فأصبح مبتغى بدمه ... » .

فلم يلو اعتسافه الأباطيل ذلك الحدث عن مجابهته بمعارضته ... قال الشاب وهو يحاول أن يرد إفكه عليه :

« قد تكلمت فاسمع منى حتى أخبرك » .

لكنه أبى أن يصغى ، وصاح :

« اذهب عنى ! . . لا حاجة لى فى مبارزته ... » .

وضحك الأشتر بعد هذا ، وقال :

« لنفسه نظر ! . . » .

ثم نثر على حد الأفق نظرات عينيه ، ترود الأرض ، وتود لو آنست من وراء هذا الفضاء حشدا يحرث الرمل بأقدامه ، وينشر الظلال فى منبسط النور ...

٢

الوقت يدنو من الضحوة . نسمة الصبح مسترخية ، فاترة الحركة ، قد مسها من الليل وسن لم تنفضه يقظة النهار . الأرض ندية بالطل ، قفر بلقع ملؤها نور ! — لا جنى فلا ظل . . إلى صخرة حتها الريح فوسمها بميسم الزمان ، أو كثيبا جمع حباته ثم نثر منها وفرق وأهال . أو رقائق من صلصال هى بقايا آنية عابر ، عاشت فى الحاضر ورحل دونها إلى الغابر ! . .

هذه وحدها هى الظلال الهامدة ، قد تناثرت على الأديم النقى فبدا بها

كإهاب حية ... أما غيرها من خطوط الظل ففيها حياة ، تسكن وتميل ، وتقصر وتطول إن تحركت أصولها ، أو أخذت الشمس سمتها إلى الزوال ... فيها أعين شفها الأرق ، فيها قلوب نهشها القلق ، فيها آذان تسمع الرعد فى همسة النسمة ، ودوى الصاعقة فى زحف الهواء ! ... فلئن باتوا ليلهم فى أمان فإنه أمن النائم على جرف السيل . ولئن أمهلتهم الآجال فما درأوا منايام بهذه الأسياف التى حملتها أكفهم طول الليل ... طالت الرقبة وما طلع معاوية . لم تظهر لهم أفراسه المسومة . ولا فرسانه المعلمة ، ولا عتاده وأجناده وقد حسبوها رحلة ساعة ثم يبدون قبل مطلع النهار . وها هنا أمامهم . على قيد النظرة حيال الربوة ، فرقة تربصت على حرد ، تحصى عليهم الأنفاس . فهل إلى لقاء ؟ ...

لا هو الخوف ، ولا هو الحتف ، ولا هو التردد يقعد بهم عن الصراع . فما بهم خور . ليس فى قلوبهم وهن . سيوفهم صليبة مسنونة لم يصبها ثلم ، وأجسادهم دارعة لبست الزرد والحديد ... لكنهم حيارى . هذا سيدهم لم يوافهم بجمعه . هذا معسكر عدوهم على أهبة . مشت فيه الحركة من بعد سكون ، وبرقت الأسنة منه فى ضوء الشمس تخايل عيونهم وتدفع بهم إلى الحذر واليقظة ... آن الخطر . نهضت المطى وركب الفرسان ...

كانت الربوة ملاذا حصينا يحمى ظهورهم أن تنالها نبال الأشتر ، تعد لهم فى الدفاع ما أرادوا الدفاع . وكان جمعهم كثرة ، وعدتهم وفرة . غير أنهم ما انسابت العاصفة من المعسكر المقابل إلى جنتهم حتى اضطربوا ساعة من زمان ركنوا بعدها إلى الارتداد ...

كرة أخرى ارتد صاحب معاوية وترك الميدان . جلا عن قنسرين ساعة الضحوة وتركها لغريمه . وما كان عليه لوثبت من جناح أن تتقطع وسائله ، أو تجندل فلوله وتلقى مصارعها أمام عزمة الأشتر على احتلاب النصر بأفدح ثمن وبأغلى قيمة . فمن عجب أن نظن أبا الأعور توقع الهزيمة فآثر السلامة ، والنصر حينذاك أدنى إلى عينه منه إلى كف خصمه ... فهل كان ارتداده — ولما يبذل الجهد كله فيما لاح — حكمة ؟ . . أخطة مدبرة وقصد مقدر ... أم الخشية وحدها أن يسحق العدو قواته قد جعلته يجنح إلى التراجع ؟

ليوشك المرء حين يتبع الرجل ، منذ خطر على أرض الحلبة إلى الآن ، أن يراه يخطو على نهج مرسوم ، لهدف علمه وكتمه . فى سور الروم يتراءى نهارا لزياد وشريح ولا يبادرهما بعدوان ، حتى إذا أمدهما الإمام بالأشتر . تسربل بالليل ، فضرب ثم هرب . وفى قنسرين يلوذ بشرف من التلال يحميه ويجعل فرقه فى مثل الحصن ، فلو شاء ثبت فدافع وكبد غريمه من الخسائر ما تنوء به العصبة أولو العزم . ولكنه ، كدأبه ، اضطرب ثم هرب ... فرار يتبعه فرار ، ولحاق يتبعه لحاق ، كأنه رام أن يشد إليه مقدمات الإمام ، يجرها من موقع لموقع ، ومن بلدة إلى بلدة عساه أن يشردها وينأى بها عن القوة الرئيسية لجيشها الغازى إلى أبعد مقام . وما أحسبه وصاحبه إلا اختطا هذه الخطة حتى تتوفر لصاحب الشام القدرة على مباغتة جيش أمير المؤمنين وهو أبتر بلا مقدمات تستطلع له ، وتصد عنه خطر الضربة المفاجئة . فإن أصاب غايته فقد رجحت كفة معاوية وشالت كفة على فى غمرة لأولهما فيها ميزة البدار للقتال ، وميزة المعرفة بطبيعة الأرض ، وميزة ولاء أهل الإقليم ... .

أما التراجع فقد أفلح ، وطوى قائده الفراسخ خارج البلدة ينأى منها عن سلاح أعدائه . وأما الموقع فسقط طعمة للأشتر غير منافس عليه ولا مغالب ، ينزل منه مكانا أفيح رحب السعة عند شاطئ الفرات . وأما المطاردة فكانت حلما سلخته الحقيقة وبددته كالدخان ... فلم يتعقب الأشتر فرار أبى الأعور ، ولم يطأ آثاره التى تركها على الرمل . إنما سكن من قنسرين بمنزل ذى جنى وظل عسكر فيه بفرقته ، يطلون منه على شريعة الماء ، ويصوغون حلقة فى سلسلة المقدمات التى باتت اليوم منتشرة بشاطئ النهر ، من هذه البلدة ، إلى سور الروم ، إلى ما يواجه الرقة عند نهاية الجسر .

عن هذه الخاتمة انجلت الموقعة فى قنسرين بين الأشتر وأبى الأعور ، أو انجلت فى الحقيقة الحكمة المنشودة من وراء الارتداد ! . . انكشف عنها الغطاء فإذا هى ثمرة مريرة كريهة المذاق تلك التى غرس نواتها معاوية ، وتعهدها زمانا بسقياه ، ثم طعمها فى نهاية المطاف حتف أنفه وكان يعدها وليمة لخصمه ! . . الآن له القفر ، وله الظمأ ، وله لفحة الهجير والرمضاء . السراب وحده ، والخراب .

وحده ! . . وحين يهل بخيله ورجله على المكان فلن يجد أمامه لهم مستقرا إلا أن يصفهم عند حافة البادية ، وعلى شفير الصحراء . .

ولم يكن ثمة أدنى ريبة فى أن أمير المؤمنين قد أقر قائده على موقعه ، ودعاه أن يستمسك به ، ويحرص عليه ، ويحتال لحفظه ما وسعه الحرص وأمكنته الحيل والقدرة . فهو ردء جيشه كله . وهو معبر إلى العراق تجيئه منه موارده وأمداده من عتاد وجند وميرة . وهو منزل سهل لين لا يشق على الناس ، وتخرج منه السبل وتنتهى إليه معبدة ممهدة إلى مدائن الشام .

وانحدر الإمام من جانب الفرات يزحف هونا إلى الغرب عساه يلتقى بأعدائه المصعدين صوبه من ناحية دمشق قبل أن يأخذوا مكانهم فى الميدان . لكن معاوية كان قد سبقه ، فمواطئ جيشه طوال الطريق هينة ، فلا ماء ولا صحراء . . . ونزل العامل المتمرد . ونزل الإمام على كثب منه ، وتواقف الجمعان يعدان ، لم يجنحا لعنف ، ولم يشهرا السيف . إنما شغلتهما الشواغل فترة من الزمن يعد هذا إعذاره ، ويعتسف ذاك تملاته ، قبل صف الرجال وبدء القتال .

فكأنى بابن هند ، وإنه حينذاك للجانب الأذل ، قد اضطرب وتينه واسترخى عرنينه ! . . نظر لنفسه فكان الوبال المآل . يكاد يستنشق الهزيمة من الريح وهى تقبل عليه ريانة بماء الفرات ! . . توشك أطماعه أن تضل فى تيه من القلق والوساوس كهذه البادية التى تهيأ إلى جواره لابتلاع ملئه وهو مزق وفلول ! . . وعندما استقرت به نواه ، واحتواه فسطاطه مع الخلوة . كان جبينه قد عقدته الفكر ، وعينه قد أغمضها التصور ، وذهنه ينساح به فى عالم من الظنون والهواجس فسيح ...

غير أن الرجاء أملى له ، تلك الليلة التى لم يرقد خلالها جنبه ولم يغفل هدبه ... أم ينام على عواسج وأشواك وهذا على دونه قد احتاز الماء فغدا بأمن لا ينوشه الخطر من ثناياه ؟ . . كلا بل سهر ، يصطلى الفكر ! . . وإن قدره الآن لجاثم بهذه الثنية من مياه النهر التى اتخذها الإمام معسكرا لجنده — الضفة ترسه ، والموج حرسه ! . . وإن عينه لتجوس فيها بلمح التصور فتراها كأنها السياج الدارع ، أدانيها الجسر قد أخال الشام عنده مرادا مباحا لأهل العراق ، وأقاصيها

موقع الأشتر فى قنسرين ، الذى اختلبه ظلفه ، وقبضته كفه . . . وفيما بين هذه وتلك كتائب كمثل الجلاميد ، يشدها الإيمان بما أقدمت له ، ويعصبها يقينها بأنها تدفع محنة توشك أن تنال وحدة الإسلام بالانقسام . . .

وأبحر الليل . ضرب سفينه فى لجة السحر ، إلى شاطىء الفجر . . كم من ليلة عاشها معاوية فى هذه الليلة ! . . كم من سنة . . كم من جيل ! . . لولا الصباح قد تسللت منه إشماعة إلى باب فسطاطه لحسبها ليلة بلا صباح ! . . ومع ذلك فالضياء الضئيل جاءه بالرجاء ، وراح يفىء عليه بعض السكينة . طابت الآن نفسه من بعد حيرة . هدأ جأشه من بعد قلق . قرت روحه وقد أحسها طوال أمسيته تنفلت منه فتشرد وتهيم . فإن هى إلا نفثة الشيطان فى أمنيته حتى استحضر جعبة حيله وأحاديثه ، كما يفعل ساحر ، فنثر منها وعجم ، وخبر واختبار ، ثم مضى راضيا لما انتواه .

وشهد النهار عند الثنية ، فيما يلى موقع مقدمة على ، إلى الشمال ، جمعا جما ، معهم الفؤوس والمكاتل ، قد انتحوا من البر ناحية لاحوا كأنما يختفون فيها عن الأعين ، وراحوا يحفرون الأرض ويخدون فيها الأخاديد . . أولئك لم يرهم من المعسكر رقيب فيملك عليهم أيديهم . لكن الرصدة مشت ينبئهم فلقفه الناس بالعجب ، وتأولوه كل تأويل . .

وشهد النهار أيضا سهما مريشا ، أز فى الجو أزيزه ، ثم سقط فى المعسكر بين قوم من مقدمة الإمام . هنالك أخذوه وهم يحسبونه مؤذنهم ببدء القتال فإذا هو مؤذنهم ببدء التفرق ، وتمزق العزم ، وانفصام ما بين حلق هذه السلسلة التى كانت أمس السياج الحارس لجند أمير المؤمنين أن يناله مقتحم ، أو يثغره مهاجم . . .

وهمس رجل لجاره ، وعينه على السهم .

وأكبا معا يقرآن ما فيه :

« من عبد الله الناصح .

إنى أخبركم أن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات . .

فخذوا حذركم ! . . »

عندئذ بدت فى وجهه بهتة . أعدت الآخر ، فإذا هى بغتة ، ثم رهبة ، ثم حيرة وقلق ، ثم خوف وفرق . . .

ولغطت ألسن . ومالت شفاه على أسماع ...

وحينما ذاعت القصة ، وغدا المعسكر كخلية نحل ، كانت ملامح مغبرة ، وأوصال ميادة ، وأفئدة هواء ! . .

فأين هم من الإيمان وأهله ؟ . . أين صدقهم وصبرهم ، وحزمهم وقدرهم أولئك الذين فرقوا من رقعة ، فنشرتهم فزعة . وطوتهم فزعة ، ووثبت قلوبهم إلى الحلوق ؟ . .

لولا أن تنم عنهم مواضيهم المجيدة فترق بهم فوق الظن . لوسمهم الجبن ، ثم بقيت سمته على جباههم أبدا ذات أثر يلحق بهم إلى القبور ! . .

لكنهم ليسوا سواء . فيهم أشبال أصحاب بدر وأحد والخندق ، وأقران آساد الجمل والقادسية ، الذين يلقون الهول فيلين كحمل ، والموت فيهم الأجل إنما كان ذلك المعسكر خليطا من اليقين والشبهة . فيه طائفة صبرت فبرت ، وفيه طائفة خارت فبارت وإن بدا جمعهم كله ، حين المحنة ، على غير ما كان يجمل ، فسرى الخور فى نفوسهم ونخر . وهل كانوا إلا فرقة تسودها « نزعة الجماعة » التى طالما أتت ما يأباه الفرد ويترفع عنه لو ترك له الأمر ليصدر فيه عن هدى ضميره ووحى تفكيره ؟ . . بل هم أيضاً شراذم شتى لا يجمع بين ميولها تجانس ، من قبائل وبطون ، تباينت بهم منازل الولاء للإمام والوفاء لغاياته ، وتذاءبت أحلامهم بين عمى الجهل ، وحمق السذاجة ، وجلافة البداوة ، وبين إشراقة الفهم ، واستنارة البصيرة ، وحسن التقدير ...

ليس الموت ما يخافونه وقد حركوا نحوه مطاياهم ، بل الموتة التى صورها الوهم . فلغيرها تهيأوا ، يقدمون الصدور والنحور للأسنة ، ويستبقون للمصارع على قطر الدم . أما هذه فغيلة . إحناء الرقاب للذبح . ميتة السوائم ! . .

وسخر على وقد نبأه خبر الأخدود الذى يحول الفرات عن دراجه ، وقصة السهم ذى الرقعة . وبعث برسول :

« ويحكم ! . . إن الذى يعالج معاوية ، لا يستقيم له ، ولا يقوى عليه . . وإنما يريد أن يزيلكم عن مكانكم فالهوا عن ذلك ، ودعوه . . »

فكم منهم سمع ، وكم منهم وعى وهذه دقات الفئوس فى الأرض ينقلها

الوهم من بعد فتصنم منهم الآذان ؟ . . وكم قد استطاعوا أن يتبينوا الصواب في الخطاب ، وما لهم من نظرة إلا تطوف حولهم قلقة ترود الأرجاء لتبحث فيها عن سيل الطوفان ؟ . . خرست الألسن عن كلمة الصبر ، وعميت الأعين عن الحقيقة ، وبات خفق القلوب نفثة ملهوف وشهقة مخوف :

« هم يحفرون ! . . هم يحفرون ! . . لنرتحلن ! . . هم يحفرون الساعة ! . . يحفرون . . يحفرون . . لنرتحلن ! . . والله لنرتحلن ! »

وبعث على ثانية ، ينذر ويحذر :

« لاتغلبونى على رأيى ... »

فغلبوه ! . . بعضهم من خور ، وبعضهم من جهالة ، وبعضهم وهو مفلول الحيلة ، قد رحل مثلهم بعد أن أوهوا بيانه ، ولمظوا دعاءه إلى الصبر ، فهو غالب ومغلوب ! . .

٣

أفرخ الكيد ، وضحك الشيطان ، وأدل معاوية ما شاء له إدلاله بهذه الوسيلة من وسائل الخداع الذى لا يضيق عنه باعه ، ولا يقصر ذراعه ! . فقد خدت أخاديده فى صف على قبل خدها فى جانب الفرات ، وأصاب سهمه منه ثغرة مفغورة نفذ فيها بسنه وسمه ! . . فإذا المقدمات الناوئة قد تراجعت عن شريعة النهر تخلى الأرض التى كانت لها ملاذا وجنة ، وللجيش كله ستارا حافظا ودرعا منيعة ...

ولم تردهم دعوة الإمام عما اعتزموه ، ولا حث بعضهم بعضهم أن يلتزموا الأمر ، ويدعوا الخور ، ويثبتوا على قدم إنما ملكتهم حينذاك جنة فمضوا لطيتهم ، على غير وعى ، يرتدون عن الماء إلى البلقع ، وعن الخضرة إلى القفر . وكانت خشية الغرق هى ما يملأ منهم الأذهان نفكرهم هباء ، ويأخذ عليهم الجنان فقلوبهم هواء يستبقون إلى الفرار حذر الموت كالسوائم ، زاغت الأبصار ، وانطمست الضمائر ، وبلغت القلوب الحناجر ! .. حتى هذه المسكة من الولاء التى

ربطتهم زمانا بابن عم الرسول ، وأوفت على الفداء ، انفصمت الآن عروتها ، ووهنت وحدتها فماجوا عنها بالتمرد ، يعجلهم فرقهم إلى الخلاف ، ويدنو بهم من العصيان ... فلقد تهامسوا ، ثم هتفوا ، ثم صاحوا بغير تحرج ولا حياء ، وقد سرى إلى أسماعهم دعاؤه ونجواه :

« لترتحلان ! . . لترتحلان والله ! . . فإن شئت فأقم . وإن شئت فارتحل ! . . »

فإن هو إلا أن خلت مسهم الشريعة حتى أسرع معاوية فاقتحمها بجنده ، معسكرا فيها بأرض يستطيع منها أن يقطع عن الإمام كل نجدة أو زاد قد تأتيه حين الحاجة من جانب العراق ، ويملك الضفة عليه أن يردها رائد من رجاله أو دوابه وقد باتوا الآن بنجوة عن الماء ، بمكان يابس عند صفين ، عزلتهم فيه عن الفرات هذه الجحافل الوفيرة من كتائب الشام ...

هكذا انقلب الميزان ، وتبادل الجيشان موقعا بموقع فساءت خيرة المخالفين ! . . لكأنى بهم ، هذه الفرقة ، وقد ثابت إليهم الخواطر ، ووعت الألباب ، فرأوا ما عملوا حاضرا ، تأخذهم الرجفة أن عصوا أميرهم وتفرقوا عنه رأيا وكلمة ، كما اختلف على موسى بنو إسرائيل ! . . هم أمس أمروا أن يثبتوا على مقرهم — وفيه ظل ومنعة وأمن — فزايلوه . وأولئك قبلهم تمردوا على منزلهم — وفيه رغد وسلوى ومن — فأنكروه . كلاهما أعماه هواه فانحرف وتمرد وشق الطاعة . فكم اليوم من رجال الإمام من رحل بخياله فاستحضر بباله — هذه اللحظة المنكودة — كلمة الله التى سخر بها حينذاك من يهود :

« أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ . . اهبطوا مصرا ، فإن لكم فيها ما سألتم ! . . »

أولئك عصوا وسخرت السماء . وأولاء عصوا وسخر على ... ثم غضب وأنكر . ثم ثار وزأر . ثم صبر . فما له اليوم إلا الصبر على عصبة خالفوه حتى غدا بهم فى محنة ، تورث الهم ، وتأكل العزم ، وتكشف منه لأعين عدوه رمية لا تخطئها رمية ! . . كطغام إسرائيل قبلهم فسلوا . أمرهم « فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم » فباتوا على ضيم ! . .

وينظر الإمام فإذا القوم على الأفق كالجراد ، يهطعون من هلع وهم يوشكون

أن يخشوا الظل الذى شيعهم ، والنقع الثائر فى أعقابهم من أثوابهم ، وحركة الظلف والخف ؛ وخفقة النسيم ! . . وأسى لهم . وأسى أيضا لهذه البقية من جيشه التى متطعم الصاب الذى جناه التمرد . . . . الآن ينبو مقامه ، وتضطرب خطوطه وخططه ، ويرى الأمن فى التحول مليا عن مواقعه ليلاْم الصدع فى صفوفه الذى نعأ عن الانسحاب . . .

كم من الخواطر اليوم طاف بباله ، وهو محزون ، من وراء هذه الهزيمة التى أصابته ولا جراح ، وضربته بلا سلاح . . كم من هواجس وريب ، وكم من وساوس وظنون . . ليس هو الوهن الذى نال من خطوط قواته ما يثير شجنه ، ولا تقدم عدوه إلى الموقع ، ولا الخدعة الفاجرة ، بل التمرد الذى لطخت به نفوس فئة كان يظنها أسبق الناس إليه طاعة ، وأسمعهم له . وأسرعهم إلى الفداء فى سبيله . فمنذا يدريه أنه لن يتجدد فى كل صباح ، ويتكرر فى كل مساء ، وتتعاقب عليه أمثاله مع تعاقب الليل والنهار ؟ . .

ولكنه يرد نفسه أن تتطير ، أو تعبث بها الشكوك . فإن هم إلا أناس كأناس ، ونفوس كنفوس ، قد غلبهم حرصهم على الحياة إذ هى نفس يلقفه الصدر ويلقيه ، كما غلب إخوة لهم وأباء ولدات ، إذ هى مغنم ومطمع وأسلاب ... فلئن عقه اليوم صحبه فقد عق غيرهم قبلهم محمدا حتى انفرجت بهم عنه الصفوف المرصوصة ، فدانته الخيل . وطالته النبل ، وسال بدمه محياه ...

إن مشاهد الزمن تتكرر ، وتتواتر على اتفاق ، كأنها صورة تعددت حيالها مرايا الأيام !... محنة كمحنة ، ويوم كيوم ، وموطن كموطن تلك التى تطالع المرء من عهد محمد إن أرجع إليه البصر ، وحملته الذكرى فذكر .. فلولا أن ها هنا الماء والظل وهنالك الجدب والمحل ، وهنا الحاضر وثمة الغابر ، لكانتا محنة ومرآة ...

إذ ذاك مد الرسول عينه إلى الجموع الكثيفة التى أتت لتثأر ... لقد قهرها بظلها منذ عام ، وأنزل بها على ماء بدر نكبة قاصمة صدقت بها رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب ، فإذا السادة من قريش يتقصفون كالقصب الجاف . وإذا بيوت مكة مزار للموت ، لم يدع منها بيتا إلا اقتنص من شبابه أو من شيبه . وإذا العزة لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين ...

وبهت الشرك الذى كان مستعزا بنفره . وراح من بعد يلعق جراحه ، ويكتم أساه ... إن يكن يستميد الفجيعة فلتحفزه على التأهب للانتقام . وها قد مضى على بدر الحول ، وأملى الزمان لقريش وأفسح . فأعدت ، وشحذت ، وصقلت الأسياف . ثم أجلبت بقضها على محمد ، عند أحد ، فيها المقاتلة ، وفيها النساء ، وفيها القيان . وما من فرد فى جموعها إلا أقبل وهو يرجو أن يعينها « هبل » على الله ! . .

وإذ تراءى الجمع ، خرج الرسول فى رجاله فخط لهم موقعهم ، وصف منهم خمسين على الجبل من ورائهم ، بأيديهم الأقواس ، ليحموا ظهورهم أن يأتيها عدوهم بغتة ، فتذهب ريح الإسلام :

« قوموا على مصافكم هذه . انضحوا الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا . فإن رأيتمونا قد غنمنا ، فلا تشركونا ... وإن رأيتمونا قد تخطفنا الطير ، فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم ... وإن رأيتمونا هزمنا القوم ، وظهرنا عليهم ، وأوطأناهم ، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم » .

فخالفوه ! . . خلفوا الجبل — أولئك الرماة — حين لاحت لهم بارقة ظفر ورأوا قريشا تهجر الميدان خوف المنية ... وما لهم يثبتون ، وقد تعاورت عدوهم حراب محمد وأصحابه فأثخنت فيهم ، وفرت ، وصرعت ، حتى ذهل أهل الشرك عن نفوسهم فتخطفهم الخوف ، كما يتخطف الطير الجيفة ! . . الآن أسفر النصر . الآن بانت الهزيمة . الآن تلمع الغنيمة على أرض الوقعة تدعو من طلبها : « هيت لك ! » فهى حرم مباح ! .

وليوا العرض ! . . نسوا فى هذه اللحظة ما أمرهم به الرسول فزايلوا الجبل ، يندفعون إلى السبى والأسلاب كالذئاب المنهومة ! . . ولكنها نشوة عمرها قصير ، وفرحة ما برقت فى أخيلتهم حتى خمد وهجها فعلتهم الخيل من المكان الذى زايلوه ، وطالتهم النبل ، واضطرب عسكر المسلمين كله وحصدته أسنة العدو حتى ظن أن محمدا مات ...

وصاح حيذاك أنس بن مالك لمن هدهم نبأ مقتل النبي فأذهلهم عن البأس وأوطأهم اليأس :

« مات ؟ . . فما تصنعون بالحياة بعده ؟ . . انهضوا فموتوا على ما مات عليه ! . . »

محنة أطلعت خطمها ، وحركت زبانياها تضرب بهما فى يمين وشمال بين أهل الإيمان حتى طحنت بينهم خلاصة فرسانه ... كفى بها من محنة أن أكلت حمزة بن عبد المطلب ، وطرحت به فى يدى هند فريسة هامدة ، لا تستطيع دفعا فنهشتها المرأة ، ولاكت منها ، واتخذت بعض مزقها قلادة ! . . وحين ارتوى زوجها من شماتة ، وطابت نفسه بالمصيبة ، وقف تهزه عاطفته المجنونة فيهتف وهو نشوان :

« أنعمت فعال ! يوم بيوم بدر ... اعل هبل ! . . اعل هبل ! . . »

ولم يعل هبل ! . . وما كان ، فالله أعلى وأقدر . .

ولم يمت محمد . وما كان ، فقد استأخره ربه لساعة نصر تأتى إليه بهند ، وبأبى سفيان ، وبالملأ كله من أهل الشرك قمأة صاغرين ...

ولم تضق أيضا نفسه الكريمة عن الصفح عمن أوقفه نهمهم ، واختلافهم على أمره ، هذا الموقف الضنك ، بهذا الموطن ، فى هذا اليوم الذى دمى فيه قلب الإسلام وتفجر الحزن من جراحه كالينابيع ... إنما صفا لهم . مسح غضبه عليهم حين مسح دماءه عن محياه . فالنصر قدر . والفشل قدر . ولن يخزى الله حزبه وإن بهت — حينا — الأمل ، وإن شمت ذو غل ، وإن امتدت الرقبة وطال الأجل ...

***

وصفح على الليلة كصفح هاديه . لم يضق قلبه عن الصبر ، ولا عن الأمل ، ولا عن المغفرة .. فإن هى إلا نار مطهرة — هذه المحنة — تخلص فيها نفوس قومه من شوائبها ثم ترتد مجلوة . فالذى اكتنفه الظلام يهفو للنور . والذى شرد به القفر يحن للظل . وإن ربه لمجنب رجاله العثرة من بعد ، ومسدد خطوهم إلى رشاد ، وجامع قلوبهم على تعزيزه فهم بقية الخير ...

وعندما وعت عيناه كتائب مقدماته ، والتأمها وجيشه المنزل الجديد ، لم يكن انسحابهم ما يهيج خشيته ، ويدفع به إلى الجزع ... إنما يحز فى فؤاده اللحظة

أن تتسع الهوة بينه وبين صاحب الشام سعة تنذر ولا تبشر . فليس معاوية بصغ إليه ، ولا حائدا عن مجافاته ، ولا خافضا جناحه لدعوة السلام وهذه أزمة الأمر كله فى يمينه ، لو شاء غدر أو شاء صبر ... باتت الحرب وحدها هى المركب — القتال ، دون الحسنى ، وسيلة الوحدة المنشودة ...

وابتسم حينذاك صاحب الشام ...

ساعة كساعة . وموطن كموطن . وصل كأفعوان ...

« هذا والله أول الظفر ! » ...

وفرك كفيه من غرور ... وانتفخ نحره ولمعت عيناه ...

إن مشاهد الزمن تتكرر ، وتتواتر على اتفاق كأنها صورة تمددت حيالها مرايا الأيام ! . . كأبيه قبله عند أحد ، وقف الابن مستمرا بصلفه ، وبثمرة خدعة ، وبنصر ساعة أورثته إياه فرقة قوم على وليهم واختلافهم من جهالة وغفلة . على الماء وقف ، ذلك اليوم ، يتجبر ويعلو ويتيه ، كأن هذه القناة الجارية قناة مسنونة صلبة فى ذؤابتها القضاء والفناء ، ركزها رهبة ، وهزها غلبة ! . . ثم مضى وما بدأه من الوعيد :

« يا أهل الشام ! ... لا سقانى الله ولا سقى أبا سفيان إن شربوا منه أبدا ، حتى يقتلوا بجمعهم عليه ! » ...

٤

التيه والصلف والزهو عاشوا ليلة فى خبائه ! . . كانوا ضيفانه لم يكونوا أعوانه . ولم يكونوا كذلك مواليه ... وعندما أشرق النهار ، وملأ ضوءه الأفق ، وابتردت الشمس فى الفرات ساعة الغروب ، كان رحيلها مؤذنا بأفول كبريائه ! ...

لم يعمر الظفر ... فى البدء ظنه حليفه . توأم خطاه . مطية له إلى غاياته فوطىء به ظمأ خصمه ، وعتا عتوا كبيرا كأنما الأقدار فى يمينه ، والأعمار ، وهذه الأهداف التى غالبوا عليها الحياة والموت ... فح كالأفعوان ، وصلب كالرمح ، واستطار أشرا فى سماء زهوه كالعقاب ! . . لم يرده عن التجبر أن

السلم لم تكن تقطعت بها الأسباب . وأن الحرب لم ينشق عنها الحجاب ... لم يلوه عن عناده واعتداده أن الإمام لم يبدأه بعدوان ، ووراثه غاية الريث عسى أن يتذكر ويدع لدده فتتحد الكلمة بين شطرى الأمة ، وتبعد المحنة عن الإسلام ... لم يكفه أنه مدغل مبطل ، جانح لإثم ، متجانف لمعصية يسوقه إليها هواه ... لم يرع الله !

حتى الذين جاوروه وناصروه ، بنوا حينذاك باستكباره . فى التراب أحيانا تبر ، ومن الوحل قد ينمو خير ! . . أقرت له طائفة بظلمه وأنكرت طائفة . هلل فريق وأسف فريق . وحينما حانت له الشماتة ، وراح غروره يحرك لسانه :

« هذا والله أول الظفر » ... انبرى له من رجاله من يجيبه :

« هذا والله أول الجور ! . . » .

فعجب له ... لكن هذا العاتب عليه كان زاهدا تيمه بجهالة لم يتبعه طامعا فى دنياه ، ولم يسر مسيره فى صفوفه وهو يرنو لعرض ، أو يطمح إلى جاه ...

ثم زاد دهشة . ثم غضب . ثم هزت الجرأة كيانه والرجل يمضى غير آبه فى عتابه أو فى عابه :

« يامعاوية . . سبحان الله .. الآن سبقتم القوم إلى الفرات تمنعونهم عنه ؟ . . تعلمون أن فيهم العبد والأمة والأجير والضعيف ومن لا ذنب له ؟ . . أما والله لو سبقوكم إليه لسقوكم منه ! . . »

فبهت الجاهل المفتون من خزى . فلما ثاب ، ووسعه أن يستجمع نثار عنته ، ثار ، وسارع يردع الرجل ، ويكبت إنكاره أن يذيع فى الناس :

« اكفنى نفسك . ما أنت عندى بذى رأى ! . . »

لكنه أخطأ الرمية ... فلقد راجعه الناسك كرة أخرى بالعيب واللوم ، وراح يقذف إليه بحممه :

« هذا والله أول الجور ! . . لقد شجعت الجبان ، وبصرت المرتاب ، وحملت من لا يريد قتالك على كتفيك »

وصدق . كأنما ستر الغيب — هذه اللحظة — قد انزاح عن مكنونه فبلغ برمق عينيه خفاياه ! . .

كان هو على شبهة من الأمر الذى جاء فيه ، فأبصر ، وولى ببقية دينه يفر

إلى المعسكر الآخر ، لينضح هناك عن حق الإمام ، ويضرب باطل عدوه بملء عينه ، وبكل إيمانه ...

وكان الحذر بالأمس فى صفوف مقدمة الأشتر هو علم الفئة التى آثرت الانسحاب . فلما اجتنبت الغرق الموهوم إلى صدى محتوم ، تلاومت ، وثابت ، واستردت العزيمة .

وكانت طائفة من الناس معتزلة ، تشهد الخلاف الناشب بين الجمعين وهى تأمل أن يرأب الله بها الصدع حين تمكنها فرصة وإن احتشدت الجيوش وشرعت الرماح ونزعت لنجاز ... فجاء عنت معاوية ، وعتوه ، وعدوانه الجديد بغير ذريعة للعدوان ، يفتح لها ثغرة للنيل منه ، والانحراف عنه ، والإعجال إلى مجافاته ...

حتى ابن العاص لم يرتض الغدر من وليه ، ولم ير فيه وسيلة إلى انتصاره . فلما عرف منه العزم على حرمان خصمه الماء ولما تنتشب حرب ، راح يعظه أن يدع غروره ، ويخلى بين عدوه وبين الشريعة بغير جور ولا تحيف ، يردون ويصدرون ما طاب ورد وصدر :

« خل بينهم وبين الماء ، فإن عليا لم يكن ليظمأ وأنت ريان — وفى يده أعنة الخيل — وهو ينظر إلى الفرات حتى يشرب أو يموت ... »

فنفخ الماهل وزفر :

« ألا تدعنى ، أبا عبد الله ؟ . . »

« إنك تعلم أنه الشجاع المطرق ، ومعه أهل العراق وأهل الحجاز ... ولقد سمعته ، أنا وأنت ، وهو يقول : لو استمكنت من أربعين رجلا » .

أجل قد قال :

معاوية يذكر ، وابن العاص ، وفئة أخرى ممن شهدوا ذلك اليوم ، الغائب فى الغابر ، الماثل الآن بذكراه المفجعة فى الحاضر ، كيف كانت ثورة الغضب ونار الحزن تلتهبان على وجه على ، وتأكلان منه حلمه وصبره ... حينذاك لم يكن للحلم موضع بصدره ، ولا للأناة عليه سلطان . كالليث إذ يداس عرينه ويعشى على ذماره المسكين تغلب ؟ ... فقد غمطوه . أنكروا عليه حقه وقدره

وصهره . تواثبوا فى جموعهم ، وهو معتزل ، يصفون بداره ، ويقصفونها .
ويبثون حولها النار ...

ذلك يوم خالد فى الزمان بغله وضغنه ، بحيفه وجوره ، بحسده وشنآنه ، ترب الطلعة مغبر الجبين . . . ماكان عمرو لينساه ، أو معاوية ، أو هذه البقية التى بقيت اليوم من قريش ، ثم من بنى عبد مناف . ثم من بنى هاشم الذين سلبوا حقهم فى تراث الرسول ، وود حقد قومهم لو تخطفتهم المصارع ، ووطئتهم الأقدام وهم تنائر وأشلاء ! . . من خلال كل هذه السنين السوالف تشق أحداثه أطباق الزمن إلى الخواطر ، كالقبس فى الظلمة . كألسنة النار التى أوشكت أن تندلع حول البيت تهم بحصده وتدميره . كالصرخة المدوية التى أطلقتها حينذاك فاطمة تجأر فيها بشكواها إلى رسول الله ! ...

ولم يكن محمد ، وهم يعدون هذه العدوة على دار زهرائه ، قد عزب ذكره من الأذهان . قبره ندى بدمعهم .. جسمه رطيب كأنما لم تفارقه كل الحياة ... شبحه حاضر يملأ عليهم الفضاء ، كالشذى العاطر ، يغيب الطيب وهو ماثل لا يغيب ! . . ومع ذلك فلم يكادوا يشيعونه إلى الجدث ، حتى استرقهم مس ، وملكهم هوس ، فانطلقوا إلى دار ابنته كمردة الشياطين ! . . . معهم الشعل . فى أيديهم الحطب والحراب . ظلالهم دمار ونار . . .

الموجدة على على ، والحسد لقدره ، والخشية أن يفسد اعتزاله هذه البيعة التى أدلوا بها إلى أبى بكر بغرة من آل بيت الرسول ، قد حركتهم جميعاً على حرد نهاية المطاف فيه احتلاب صفى محمد تراث ابن عمه ، وإخراج الأمر من عينه فلا تجتمع الرسالة والخلافة فى هذه الدار من هاشم ، التى نبت قريش كلها بشرفها ، وسؤددها ، وعزها إبان حقبة الجاهلية وبعد مولد الإسلام . . . كرهوا لها أن تطولهم بالأمرة بعد سموها بالنبوة ، وأن يقوم منها سيد بعد موت سيد . وأن يستأثر رجالها بالحكم ، ويستأسروا بأقدارهم ومزاياهم هذه الجزيرة الفسيحة التى تعج بالقبائل كأنما عقمت عن إنجاب أمثالهم سائر البطون ! . .

وعلى ضياء شعلة مما طوق الدار ، ولون الأفق ، وأشاع فى الجوحره ، لاح عمر وقد تغير وجهه بحنقه ، وتبلل بعرقه . وتخلل الدخان لحيته ، ولمع حسامه فى عينه كجذوة النار . . . إنه أحمس شديد فى دينه ، أحمس شديد فى عدله ،

ولـكنه اللحظة أحمس شديد فى عنفه واندفاعه وهو يؤم الباب ... إنه ليثير الجمهور ويهيج الفتنة ، ويهيئ الحطب ليؤرث الحريق . . .

واستأسد وتنمر . وتصايح وزأر . ثم اندفع من خلال الجموع كالشرر ، يدق البيت على ساكنيه . . . ليس هذا بعمر ! . . ما هو بابن الخطاب ! . . الذى جرى بقدميه إعصار . . . الذى انفجر بصدره بركان . . . الذى استوى على لبه مارد ! . . . إنه الآن مخمور الأمس ، عاد سيرته الأولى كحاله من بضع سنين ، حين أعماه شركه ، وأضله هواه ، وختله عن الهدى غروره فسل حسامه وانطلق على درب مكة ينشد النبي ، ولسانه إذ ذاك يجرى بكفره وخمره :

« لأقتلن محمدا بسيفى هذا ! — هذا الصابئ الذى فرق أمر قريش ، وعاب دينها ، وسفه أحلامها ، وشتت مجالسها وضيع بهارجها ! . . . »

واليوم أيضا ختله اندفاعه ، وبقية بنفسه لا تزال راسبة من حسد الجدود وبغضاء الأجيال ... هوى كهوى عضى به ، ويحيد بخطوه الثابت ، فيغدو ويروح على لهيب المشاعل ، يوسوس لنفسه ، ويهتف بالعصبة التى تؤازره على هجم الدار :

« والذى نفس عمر بيده ، ليخرجن أو لأحرقنها على من فيها ! » . .

قالت له طائفة خافت الله ، ورعت الرسول فى عقبه :

« يا أبا حفص ، إن فيها فاطمة . . . »

فصاح لا يبالى :

« وإن ! . . »

واقترب . وقرع الباب . ثم ضربه واقتحمه . . .

وبدا له على ...

ورن حينذاك صوت الزهراء عند مدخل الدار ..

فإن هى إلا رنة استغاثة أطلقتها « يا أبت رسول الله .. » تستعدى بها الراقد بقربها فى رضوان ربه على عسف صاحبه ، حتى تبدل العاتى المدل غير إهابه ، فتبدد على الأثر جبروته ، وذاب عنفه وعنفوانه ، وود من خزى لو يخر صعقا تبتلعه مواطئ قدميه قبل ارتداد هدبه إليه ...

وعندما نـكص الجمع ، وراح يفركنوافر الظباء المفزوعة أمام صيحة الزهراء ، كان على يقلب عينيه من حسرة وقد غاض حلمه ، وثقل همه ، وتقبضت أصابع

يمينه على مقبض سيفه تهم من غيظه أن تغوص فيه ... أكذاك ينتهبون حقه ، وتراث هاديه ، ثم يلوون على انتهاب عمره وعمر أهله : البقية الباقية للرسول؟ . . أكذاك الهوى يضل ؟ ... الآن ظهيره قل يستبيحون منه ما لا يباح لحرمه لهم حل ، وأمنه عليه حرام ! . .

ومد طرفه نحو قبر محمد يناجيه :

« يا ابن أم ... إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ... »

وتقلصت شفتاه . وعضت راحته كرة أخرى على حسامه من أسى وحنق وحسرة ... ثم أغضت عينه ...

لا حيلة ! . .

فاته الزمن ...

بيت القوم أمرهم بليل ... هذه الفروع والأصول فى الجزيرة أزهر اليوم نجمها فغدت تمد الأعناق مستطيلة تختال . أصابت ثأرها . بلغت وطرها من هاشم . فضلته بعد كل هذه الأعصر الطويلة ! . .

الآن عزت قريش . علت تيم بابن أبى قحافة وقد انتهت إليه الخلافة . زهت عدى بابن الخطاب إذ هو صاحب المشورة والوزارة فى الدولة الجديدة . طابت نفسا زهرة وأمثالها من البطون والأبيات وقد نالت جميعها مبتغاها من هذه الدار التى سمت عليها فى الغابر حتى أمس بالشرف والمجد والمكارم إلى ذروة كانت عزيزة عن تطلع العيون ، وتصور الأخيلة ، وشطحة الأحلام والظنون ! . .

كلهم عقدوا النية ، وتناصرت حفائظهم القديمة على على فنازعوه سلطان رسول الله حتى انتزعوه وهو حينذاك فى غفلة من الأمر ، مشغول عنهم ، وعن تدبيرهم وتآمرهم ، بالجثمان الطاهر المسجى يجهزه ليرحل الرحلة الأخيرة ! . . مضى محمد لغير أوبة . فرغت الدنيا من نوره . غاب فى قبره وغاب معه ولاء طالما تسابقوا به يولونه آل بيته ، قربانا وزلفى وفريضة ... وعندما انجاب ظلهم عن باب فاطمة ، وانقشع جمعهم العادى ، وخلصت ساحة الدار من مواجدهم وحسدهم إلى حين ، تلفت على يرود ببصره المكان ، ينشد العون ، ويبحث عن النصير ...

وكن يعصر الماء من صخرة ، ومن يطلب الجنى من سراب ، ومن يحاول ملء راحتيه بالريح ؟ همس فى حسرة وقد ارتد بصره إليه وهو حسير :

« لو استمكنت من أربعين رجلا ! . . . »

عمرو يذكر . . . ومعاوية . فما كان له من سبيل إلى النسيان وأبوه قد تصدى إذ ذاك يعرض العون على آل بيت رسول الله ، ويعنيهم النصرة لو أطاعوه فأثاروها فتنة على الصديق ، تشرد به ، وتنزل المزيز من علياته ! . . ومع ذلك فالابن اليوم لا يجرى على سنن أبيه . أحلامه ترده وتقصيه . تحضه أن يشاق . تهم به تراوده وتغويه . .

ومال بجيده عن صاحبه ، وعن الذكرى ، وعن مياه الشريعة وقد وقفت دونها شراذم رجاله تمنع روايا الإمام أن تبلغها أو تبل بقطرها الأوام . ولقد أوشك الناس أن يقتتلوا عليها . بل تسرع فوارس من فوارس على صوبها إلى ناحية معسكر معاوية فوزعهم أمير المؤمنين عن القتال حتى يأخذ عدوه مصافه ، فيحاجه بالحسنى ، ويعذر إليه . .

لكن معاوية لم تكبحه هذه الأريحية النادرة من غريم ، فمضى وما اعتزم من عدوانه . . إن حوله الآن جمعا من آله لهم ترات تحرك فيهم مكامن الضغينة ، راحوا كالأبالسة ، ينفثون فى روعه وينفخون فى غروره ؛ وكالسياج ، يضربون أكنة على فؤاده فلا يرى الرشاد . . إن جراح أسلافه نكأتها أطماعه فسال قيحها ودمها وعفنها تلبس الهدى بالضلالة . إنه مفتون . البأس والظفر والغلبة الآن أعلامه ! . . الظمأ والصدى من جنوده ! . . بيده الآجال . وإليه المآل !

وعندما أتاه حارس من رجاله يعلن قدوم وافد ، تلفت اختيالا وكبرا ، ثم عقص قرنه ، وألقى بنظرة متفضلة على مدخل الخباء . .

وقال له صعصعة بن صوحان دون أن يستقر به المجلس :

« يا معاوية . . إن أمير المؤمنين يقول لك » .

فسأله بغير اكتراث :

« رسول ؟ . . »

« نعم . . . إنا سرنا مسيرنا هذا وأنا أكره قتالكم قبل الإعذار إليكم . فقاتلتنا قبل أن نقاتلك ، ونحن من رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك . . وهذه أخرى قد فعلتموها : حلتم بين الناس وبين الماء . . فخل يا معاوية بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم ، وفيما قدمنا له وقدمتم . . »

فمد المتجبر طرفا ساخرا يقتحم الوافد ، ثم يميل عنه إلى من حضره من شياطينه وفيه من الشماتة شعاع . .

وأكمل الرسول فى طمأنينة ونبرات صوته الهادئة تنغم برنة وعيد :

« . . إن كان أحب إليك أن تدع ما جئنا له ، وندع الناس يقتتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب ، فعلنا ! . . » .

وصمت برهة يذرع الجمع بنظره ، ويلم فى نهاية طوافه بسيدهم الذى ناشه الفكر وعقد ما بين حاجبيه . . . ثم عاد يسأل :

« ما ترد على ؟ . . »

قال معاوية وبصره على أعوانه :

« ما ترون ؟ . . »

فتحدثت الأحقاد ! . .

انفلت منهم الوليد بن عقبة ، يعصف :

« امنعهم الماء كما منعوه ابن عفان : حصروه أربعين يوما ، يمنعونه برد الماء ولين الطعام . . اقتلهم عطشا ! . . »

- فجهد عمرو ليتقى مغبة الدفعة ، ومضى يراجع بنصحه :

« بل خل بينهم وبين الماء ، فإنهم لن يعطشوا وأنت ريان ، ولكن لغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم . . »

وثار يزيد بن أسد القسرى :

« كلا والله ! . . لنقتلنهم عطشا كما قتلوا أمير المؤمنين . . »

وهاج الوليد ثانية :

« اقتلهم عطشا ، قتلهم الله ! . . »

وقفى ابن أبى سرح على آثاره ، وهو يحاول أن يبدو من خلال حقده فى ثياب القائد الماهر الذى يهدف للغلبة :

« امنعهم الماء إلى الليل ، فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا ، وكان رجوعهم هزيمتهم . . امنعهم الماء ، منعهم الله يوم القيامة ! . . »

عندئذ نبا بصعصعة حلمه ، ولم يطق صبرا على سفههم فهتف بلا مبالاة :

«- إنما يغنمه الله يوم القيامة الكفرة ، الفجرة ، شربة الخمر ضربك وضرب هذا الفاسق ! . . »

ثم نهض يحدث أميرهم :

« ما ترد على ؟ . . »

« سيأتيكم رأيي . . . »

وقد أتاهم ، ولما يبلغ الرسول مأمنه . . .

دعا إليه أبا الأعور فأمره :

« ياسفيان . . . امنعهم الماء ! . . . »

٥

الشريعة حرم . نأت الآن عن اللسان اللاهث ، وعن الحلق الجاف ، وعن الشفاه التي شققتها حرق الأجواف . . . لا واردة . لا راوية . لاشربة ولا زاد ماء . . . الآن لا يتربص الرجل للرجل من خصومه ، ولا الفارس للفارس تربص الأمس الذى أملته حينذاك الخصومة أو نوازع اللدد والسخيمة . بل تجيش الجمع . اعتد وتأهب كما تحتم طبيعة الصراع . . . هذه عدة وعدد وعتاد . جنود على تعبية . أداة حرب على أهبة وحرب على الباب ! . .

استوت الصفوف . شرعت الأسنة . جرت الرصدة خفية تشم الأنباء ... على طول المجرى انتثرت قوات الشام فى نظام . فيهم الراجل والفارس . عليهم الدرق والدروع . بأيديهم السيوف والنبل كأنهم سور من السلاح واليقظة دون اقتحامه . المنايا الحاصدة ، والموت القاصف ، والجراح والدم ...

وعلى كثب منهم فى الجانب الآخر يجثم الصدى والهم . واللوم والحسرة . والمنى القعيدة التي تمد عينها إلى سراب ! . . الدواب تلهث . والأناسى تشرق بقية الريق . رغاء كبكاء وصهيل كعويل . ورنين كأنين ... كلما مضت بالإمام بينهم قدم سمع الزفرة فى النبرة . وجرس الندم فى آهة الألم ... من ديار مذحج . من منازل كندة . من ألوية الأنصار ، ورايات الأزد ، وخيام بجيلة

كلهم أسيف مغموم . الرثاء خفقة القلب . والدمع طرفة العين . والأسى والحسرة اختلاجة اللسان . . . فنيم مكثهم هنا على الرمل الجاف يمتص جلودهم بقية مياه الحياة ويعتصرها قطرة قطرة ، ثم يدعهم لقى ضائما تنتهبه السباع والعقبان ؟ . .

لموتة على الضفة هناك ، عند حد الأفق ، يبلها الدم أشرف وخير ... إن يكن الصدى يحفهم ، ويشف منهم الحلوق والألسن ، وينهش أجوافهم بحرقة . فالقنا الآن فى أ كفهم ظماء ! . . إنهم ليرجون مناجزة . يحنون إلى قتال . يشتفون لو انطلقت بهم إلى الغاية القدم والظلف والحافر تحمل النصال الحديدة ، والعزائم الصلبية الشديدة إلى هذا السور الذى حمى الفرات دونهم كالحرم ، تنال منه ، وتثغر فيه ، وتخط على جدرانه الحية — بأحرف حمراء — عقبي أخدوعة ! . .

ورن فى الفضاء ، تحت هدأة الليل الساكن صوت وجيعة ولوم ودعوة :

« فما بالنا أمس أسد العرين وما بالنا اليوم شاء النجف ! . . »

من ديار مذحج انطلق النداء . من قوم الأشتر . من بين الفئة الذين عاج صاحبهم بالارتداد عن مواقع الماء إلى القفر حين تبين الخور فى جنوده يذهب اللب ، ويأة كل القلب ، ويهد عزيمة الأبى المصابر ... فكيف اليوم أمنهم ؟ . . كيف هجرة لم كانت فى الله ؟ . .

وهمس الإمام ، مع رجمة الصدى الحزينة ، بسمع رفيقه :

« ألم تغلبنى على رأيى ، أنت والأشعث ؟ . فدونكما ! . . »

فارتج الأشتر ...

ولو كان يسعه الفرار من هذه الملامة الساخرة ، كما وسعه أمس التقهقر ، لبذل من عمره سلخة ليهرب من النبرة الزارية ... ولكنه يصبر على هذا اللوم ، ويثبت له ، ثم يغضى الجبين وهو يقبل على نفسه يحاسبها وإنه لخزيان . . فلقد غلبه . بلى غلبه وهو حينذاك مغلوب على ركوب ما يكره ، ويكره الإمام منه ... غير أنه لم يتمرد . حاشاه ! ما كان ليعصى أمير المؤمنين فى أمر أمره وإن علم الطاعة ستقتضيه أجله وتبتزه الحياة . إنما هذه الظروف التى ألمت به ، قد جرت بخطوه ، على غير رغبة منه ، وفى حين غفلة ، إلى وجهة ظن فيها السلامة ...

كان قد حاز نصرا مرموقا فى حساب الاعتبار الحربى وطهر الأرض أمام القوة الرئيسية لجيش الإمام عندما دق شراذم أبى الأعور السلمى ودفع بها مهرولة إلى ما وراء قنسرين ، لكن الفتنة لم تطعمه ثمرة نصره ، ولم تمل له فى البقاء بالموقع الجديد إلا زهاء ليلة طلع صبحها ومعاوية يدب فى فيالقه على الطريق . فعندئذ لزمه التدبر ، وغدا حقا عليه أن يستحضر فى تقديره طاقة جنده وجهده . . إن هو بقى حيث أقام ثم ثار به خور أصحابه تقسمه وإياهم الآلاف ، وشردت بهم أجمعين مخاوفهم الموهومة . وإن هو ظهر على تخاذلهم . فصبر وثبتوا معه بعزمهم وقعوا إذن بين مثل الرحى الطاحنة من جحافل الشام : مقدمتهم التى تراجعت أمس فرارة ، وحشودهم المقبلة اليوم تزحف نحوها زحفها السريع . فلقد سبق معاوية جيش الإمام عند صفين ، ونزل منزلا وسطا بينه وبين الأشتر ، يشطرهما ، ويبتر المقدمة الظافرة عن جيشها المتخلف حتى لتوشك أن تغدو بمعزل هى فيه فريسة مفلولة الحيلة ، مغلولة الوسيلة ، حيال جمعه الوفير ذى الحول التام على المصف بكل دفاع ، والبدء بأى هجوم .

هذا الوضع الذى أصبحت فيه فرقة الأشتر هو الذى أملى على قائدها حركة التقهقر على غير رغبة الإمام . ومع ذلك فلم تكن بالحركة اللازمة التى لا حيلة دونها لمحتال ، ولا محيص عنها فى ضرورات فن القتال غيرها كفيل بالغلبة . ونهجها سرف من الأشتر فى التطير والحذر ، وفى التماس مسارب الفرار والنجاة حينما يجدر الصبر الضمين بالظفر . ولئن كانت الظواهر البادية حتمتها مرة ، فحكمة الحرب حرية بأن تنكرها مرات . فالموقع المهجور جدار يحتمى به الجيش ويمنعه أن يلتف حوله عدوه من سبيل مأمن . وهو مشرب الجند والدواب . وهو معبر الزاد والمدد والعتاد . وهو منفذ الرجعة . وهو بعد هذا كله شق رحى يرهب هذه الفيالق الكثيفة العادية ، التى قدر عليها أن يسلمها زحفها السريع إلى الوقوع فيها يشبه الكمين ، بين معسكر الإمام عند صفين ، وبين الشقة الممتدة إلى الشمال من الرقة ، إلى سور الروم ، إلى قنسرين التى سيطرت عليها المقدمات المنصورة . . .

كانت خطة لاشك مكفولة لها عناصر النجاح لو أحسن العمل على نسقها ،

واستمسك الأشتر وأصحابه بالتزامها ، والصبر جهدهم على بلوغ حدها المقدر وما نبيح هنا الادعاء بأنها اختطت من قبل أو رسمها على قبيل مخرجه أو إبان مسيره إلى الشام قبل نزوله منزله المعلوم . ولكنها انبثقت له ، فيما يبدو ، عندما قر به وبغريه القرار . وهى تنم عن بديهة فيه لماحة ، وتبصر بالأمور غير منكور ، نراه من خلالها على خير ما يجب أن يكون قائد ماهر ، ومحارب قادر مداور ، يستطيع أن يفيد من جماع الظروف والغير والمفاجآت التى تجد — دون توقع — على حلبة القتال . . . فلقد كانت مجموعة جيوشه ، قبل الانسحاب ، تستند بظهرها إلى الفرات ، وتؤلف فى انتشارها من معبر الرقة مثل القوس ، طرفها البعيد فى قنسرين ، وطرفها القريب عند صفين . وكانت فيالق معاوية المبتورة المقدمات ، فى موقع وسط ببطن القوس ، محفوفة بالعدو من جهاتها الثلاث . حتى لترسم حولها حشود العراق والحجاز مثل منجل الحصاد . . . من الشرق والشمال والجنوب حصرها على وأغلق عليها المسالك . لامنفذ لها إلى النهر ، إلا أن تقتحم دونه الشقة على كتائب زياد وشريح ، المنبثة على طول مجراه ، والمتخذة لها قاعدة حربية فى سور الروم . ولامهرب لها صوب حلب ، إن أرادت الاتصال فى مشارفها بفرقة أبى الأعور المبتورة ، لأن الأشتر كان يسيطر على منفذ المدينة . وحتى إذا وسعها التسلل إلى شريعة الماء شرق صفين من الفضاء الواقع بين معسكر على ومراكز مقدماته ، فسوف تجابه حينذاك فرقا أخرى من كتائب الإمام ، قد خلفها حلفه على أهبة ، عند المعبر ، لتؤمن خطوطه ، وتكون ردءا يدفع عنه أيما هجوم مفاجىء قد يشنه عدوه ذات يوم ، فيقطع صلته بالعراق . . .

لم يكن إذن لمعاوية من خلاص ، إن هو آثر الفرار من مأزقه ، إلا فتحة عند الغرب ، تسلم جنده إلى البادية — اجتيازها حقيق بأن يوقع جيشه فى هلكة ، أو يقوده إلى ضياع مما مغامرة بانفلات من ثغرة يتربص له الخطر على كلا جانبيها ، خيرها قتال وشرها وبال وسوء مآل ، وعقباها هزيمة أو استسلام على أية حال ؟ . . ليوشك أن يتبدى له مصيره الرهيب وهو حينئذ يستقره الضنك فلا تطالعه من قتامة الأفق إشماعه سلامة ... الحلقة عليه محكمة . الإمام

عن يساره ، والأشتر عن يمينه ، والحائط المسالح على الفرات من وراء ظهره تصب كلها الويل ، وترميه بالموت والمصارع حين يجنح إلى المشاقة أو إلى الانسحاب أم يحسب غريمه عند ذاك تاركه يجوز الثغرة فلا يسدها ، ولا يهز منجل الحصاد ؟ . .

هو فى شرك . غدا العنف لا يجديه ، فالهلاك والمغامرة سواء ، وشق الطريق عنوة قضاء عليه بالفناء . . . هذه محنة . أحبولة لا يبرحها إلا بالحيلة . وعندما تطبق عليه الأمور ، وتشتبك خيوطها ، وتضيق رحبة الفضاء ، فالإقدام نافلة ، والإحجام هو الفرض ، والسلامة الغاية ! . . إنه فيما علمنا أريب ، وفيما يحسب على دهاء . . . وله أسوة فى الغصن اللدن الذى ينثنى إذا عصفت الريح ! . .

لهذه الساعة كان يرنو الإمام وهو عندئذ بمستقره قرب صفين يبعث الرسول بعد الرسول ليحمل الأشتر على الثبات . فقد خايله النصر . وشم رائحة القهر تنطلق من لدن معاوية وهو كالثعلب فى حبالة الصياد ، إنه صبر ساعة ، أو سويعات أو بضعة أيام تعدها الأصابع إن امتد بصاحب الشام أجل كفاحه ولم يعل من أول لحظة إلى المبادرة للنجاة عن طريق التسليم . وما كان ليستمسك حينذاك بعناد يورثه هلاكا لا مراء فيه ، تجهمت فوقه غيومه ، وقطر قطره فأنذر بوبل هطال ما كان ليلوى جيده كما هو الآن يلويه ، ولا ليمقص قرنه ، وينفخ نحره نفخة المدل الغرير . ولكنه كان حريا بأن يروض من شماس نفسه . ويعلك من جماحها فيدع أحلامه وأوهامه ، ويميل إلى الوادعة ، ويقبل وهو كظيم يهادن الإمام فيرتفع الدم ، ويخمد الخصام ، وتتحد كلمة الإسلام . . .

غير أنها فرصة ولت . ذهب أوانها فلا معاد . وعندما أدرك القوم قدرها ، وأبصروا مزاياها ، كانوا كالصائد ، أفلت الطير وفرغت الشراك ! . . فلقد قضى عليها الخور ، وتقهقر الأشتر ، وانساب الأشعث على آثاره حتى أصبح الجيش وهو فصائل مقطعة ، ووصائل بلا عصابة . ولولا أن بادر على فصمد مليا عن معه ليلتقى بالمخالفين ، لما استوت صفوفه ، ولبقيت جموعها بقضها وحشدها تتهددها هذه الثغرات التى خلفها بينها الاضطراب وفتحتها فوضى الانسحاب . . .

* * *

وأقبل الأشعث يحدث الإمام :

« يا أمير المؤمنين ، أيمنعنا القوم ماء الفرات ، وأنت فينا ومعنا السيوف ؟.. خل عنا وعن القوم ، فوالله لا نرجع حتى نرده أو نموت . . . »

وضح له الآن خطل ما أعان عليه ، وعقبى خلافه ، والنتيجة التي أسلمته ألعوبة في يدى معاوية ، لو شاء عابث ، ولو شاء حطم وهو حينذاك غير مدافع ولا مردود . . .

وعاود حديثه ثانية . هذه المرة لم ينكر الوزر الذى بثه فى طريق الانتصار الضيع كغرسه الشوك والعواسج تحت أقدام طفل غرير :

« . . . سأداوى ما أفسدت اليوم من ذلك . . . »

ولم ينم على وعده . . .

الموت الآن هو مجاز الحياة الفداء ، والبذل ، وإنكار الذات . إنه امرؤ جسور . لا تعوزه الشجاعة ، ولا يتردد اللحظة الواحدة فى التقدم ورأسه على عينه إلى اقتحام الأهوال . . . ليس بخوار . ما هو الذى يفرق أو تهتز تحته أوصاله إن حمى البأس ولاح الحين ، وامتلأت المجاج والمفاوز عليه بالمصارع . فالسلاح ملهاته ، والحرب رياضته ، وهذه الحياة البدوية التى عاشها عمره الطويل زودته بزاد من الخشونة ، والجلد ، والحمية راض نفسه على الكفاح . . .

ويمضى يؤذن الناس بالتأهب للصراع المقدر :

« من كان يريد الماء ، أو الموت ، فميعاده الصبح ! . . فإنى ناهض إلى الماء . . »

ثم ينثنى إلى أهله يقوى فيهم الهمم ويشد العزائم :

« يا معشر كندة . . . لا تفضحونى اليوم ولا تخزونى . إنما أقارع بكم أهل الشام . . . »

حتى فى هذا الموطن ، لا ينسى الرجل تلكم الخيلاء التى أفعمت فؤاده ، ووضعته وقبيله ، فى عينى نفسه على رءوس غيرهم من المعاشر عندما يثين اللقاء ، وتدعو الدواعى إلى الصبر فى البلاء . . فلقد علم أنه ليس وحده الناهض فى حرب ، الناهد اليوم إلى مناجزة عدو مدل بأقداره ، مترصد لهم على شريعة الماء . . . ليس وحده السائر إلى الحتوف الرواصد ، والمنايا الحواصد . فخين

رفع صوته بالنداء يدعو الناس للأهبة ، كان موقناً غاية اليقين أنه غير مغن فتيلا فى الوقعة المرقوبة ، إلى أن يعينه عليها معين ، ورفيق جهاد ، وعدة أجناد : فوارس على خيول كأنها الأعاصير ، تنطلق أمامه فتمشى على وجار خصمه العنيد بالدمار ! . .

يقول حينذاك للإمام ، يستأذنه ويستمده المعونة :

« يا أمير المؤمنين . . . أنا أكفيك . فر الأشتر فليعل بخيله فيقف حيث تأمره . . . » .

فيجيئه الإذن :

« ذاك إليكم . . . » .

لكنه امرؤ فخور ! . . يود لو يتملق به الفضل حين يأزف الفصل ، وتنتهى إليه الأسباب عندما يشرق النصر ، بعد التقاء النصال والحراب ، وتقضب الجذوع والرقاب ! . . إنه مختال ، ذو سرف فى كبره وخيلائه . مزهو ، له غلو فى علوه وازدهائه . ولقد يأنف الموبقة ، ولقد يأبى السقطة ، ولقد يأتى المكرمات . ولكنه فى فعله ، يكاد لا يصدر عن سليقة مستقيمة أو طبيعة سخية كريمة : بل بقية من نخوة الجاهلية أو حمية البداوة هى التى تسدد خطاه . . .

السيرة المستطيرة ، والذكر ، والأحدوثة مأمولة . . . أن يلغط باسمه السامر . أن يتحدث الندى . أن يبيت ثم يصبح وهو مذاق الشفاه ورواية الرواة ! . . ودعه ينطلق فى الحومة ، يهجم ويكر ، ويغدو على شلو ويروح على شلو ، وتتقصف أمامه المقاتلة كالأعواد — أيما محنة جازها ، وأيما خطر دهم ، وأيما بلايا وأرزاء لا تذهله لحظة عن الوفاء لنفسه وجنسه وإن نسى ، فى كلا الأمن والنعمة ، الوفاء لمن حق له عليه الوفاء . . .

. . . يرى الأشتر يبلى بخير ما يؤمل من مثله ، ويضرب بسيفه جموعا تتدفق عليه كالطوفان حتى يكشفها عن الماء ، فلا تهزه هذه الشجاعة النادرة بالرضا بقدر ما تزلزله بالغيرة ، فيصرخ هاتفا بحامل لوائه :

« لله أنت ! . . ليس النخع بخير من كندة . قدم لواءك . فإن الحظ لمن سبق . . . »

. . . ويلتقى بعمرو بن العاص قبيل التحام الأسنة ، فيزجره ، ويخوفه أنفة قومه البدو الأباة ذوى النخوة :

« ويحك يا عمرو ! . . أترانا نخليك والماء ؟ . . تربت يداك وفمك ! . . . أما علمت أنا معشر عرب — لقد رمت أمرا عظيما ! . . »

. . : وتدور دائرة الواقعة فى النهاية على البغاة ، فلا يرى النصر ، الذى أسهم هو فيه بحظ وافر ، كفاء لبعض حق وليه أمير المؤمنين ، ولا لبنة فى بناء الهدف العظيم الذى أبلوا من أجله . . . إنه ليبدو على ريبة كمن لا يدرى ما هى الغاية ، وفيم القدوم . أو لا ، فإيمانه بحق على — أن يكن آمن به — تسليم ، وولاؤه لمثله ونواياه ولاء مريض سقيم . . . يقوم غب انجلاء الوقعة عن الظفر :

« . . . والله إن كنت لكارها قتال أهل الصلاة ! . . ولكن معى من هو أقدم منى فى الإسلام ، وأعلم بالكتاب والسنة . . . »

ولكنه امرؤ — كما رأينا — فخور . هدفه السيرة المستطيرة ، وتذاكر السمار ، ورواية الرواة . وحافزه الغيرة ، والحمية . . . حتى عندما انتدب نفسه للقتال على الماء ، لم يكن الندم ما دفعه ، ولا شعوره بخطأ ارتداده ، ولا الرغبة الخالصة فى مظاهرة غاية الإمام . إنما تحركت نفسه بزهوها وكبرها وتلك الخيلاء حينما سمع من دياره هاتفا يحثه على حمل السيف ، ويدعو للنجدة ، ويثير فيه مكامن الغرور :

لئن لم يجل الأشعث اليوم كربة … من الموت فيها للنفوس تعنت
فنشرب من ماء الفرات بسيفه … فهبنا أناسا قبل كانوا فموتوا
فإن أنت لم تجمع لنا اليوم أمرنا ، … وتلق التى فيها عليك التشتت
فمن ذا الذى تثنى الخناصر باسمه … سواك ، ومن هذا إليه التلفت ؟ »

٦

وقف الأشتر بين فرسانه ، على فرس له أشرف ، محذوف ، أدهم كحلك الغراب ، يرنو إليهم بمين ، وإلى الفرات البعيد بمين . ثم أقبل يحثهم ويحرضهم ، وقد حان وقت اللقاء :

« فدتكم نفسى ! . . شدوا شدة المحرج الراجى الفرج . فإذا نالتكم الرماح فالتووا فيها ، وإذا عضتكم السيوف فليعض الرجل على نواجذه فإنه أشد لشؤون الرأس . . . »

وهتف الأشعث بن قيس برجاله :

« بأبى أنتم وأمى ! . : تقدموا قاب رمحى هذا . . »

وراح يلقى برمحه ويتبعه ، والقوم على آثاره ، سيوفهم على عواتقهم ، والحمية تلتمع بمثل ومضة الغضب فى لحظ الأعين . . .

تقدم الرجلان للحومة وما فى الخاطر إلا العنف والقتال والشهادة . كل جهد بذلاه للإبقاء على السلم عبث ، وكل سبيل فتحاه للموادعة على الماء دون لقاء ، سده معاوية وصحبه . . . اليوم لا مهادنة . لا فرجة لصلح وإن يكن هذا الماء غير ما اختلفوا فيه ، وقدموا له ، وتذرع العسكران بالصبر والسلاح والجوع الكثيفة لبلوغ مداه . . .

فى غمرة هذه المحنة التى طوقت بعلى ، وأحاق شرها بأجناده ، نسى صاحب الشام والذين معه تلك الذريعة التى اتخذاها لجيشهم راية ، ورفعوا على رءوسهم ديباجتها المصبغة بلون الدماء ! . نسوا ثأر عثمان الذى احتجوا به ، وجاءوا فيه ، وحركوا القلوب والألسن لتقيم عمرها على اللغط به وترديده . . إنما أمس لفقوا الحجة ليبلغوا من الدنيا جاهها وسطوتها ، فأتتهم اليوم فرصة خير من حجة ، وسانحة دونها كل ذريعة ، إذا أرادوا التوسل إلى هدفهم بالسبل الموطأة دون الأسباب المصنوعة ! . .

الآن لم تعد لهم إلى التعلات حاجة ! . . بلغ طموحهم مأمنه ، غدوا على قيد خطوة من هذا المجد الذى سبقوا إليه الزمان والقدرة والمزايا الخلقية التى يجب

أن تتوفر لكل طامح سلطان . القوة فى ملاكهم . العدة أعدت والحشود حشدت . اليد الطولى يدهم فى موقف أصبح غريمهم فيه كمن شد وثاقه وكبلته الأغلال . فما لهم اليوم والمطل ، وقد كان المطل أمس مركبهم حين كان البدار حريا بأن يقودهم للدمار ؟ . .

بل يبادرون لحظتهم هذه إلى اهتبال الفرصة التى لم تجدهم بمثلها الأيام ، ولم تهنأهم بصنوها أضغاث الأحلام . فلقد مات الآن عثمان فى خواطرهم فلا تفكير فيه . ومات أيضا ثأره فلا حديث عنه ولا محاجة ولا ادعاء . ومات كذلك كل جدال كانوا يزعمونه وسيلة فيئهم إلى الجماعة ، والدخول فى رحبة الإمام ، ونبذ الانقسام .

لم يدع منهم داعية بدعواهم القديمة : أن ينال قتلة الخليفة الشيخ الجزاء ، أو يسلمهم على عن يد وهو صاغر لسيد الشام ، أو ترجع الأمور شورى فى الناس فيؤمر الملأ من يشاء . . . كلا ، فما هذه كلها — الساعة — مطلب . لا أرب لهم فيها . لا غاية يأمنون أن يبلغوها من ورائها ، وهى تعلات ، كهذه الغاية المؤكدة المضمونة التى خايلت عيونهم ، وخالجت ألبابهم ، وأوشكت أن تطولها أكفهم ، وهم بموقفهم الحريز المنيع على ضفة الفرات . . .

ويهتف الأشتر بابن العاص وقد تواقفا عن كثب ، يتهيآن للنزال :

« . . . يا ابن العاص واللّه لقد نزلنا هذه الفرضة والناس تريد القتال على البصائر والدين . وما قتالنا سائر اليوم إلا حمية . . . »

أجل حمية . فلغير الهدف الذى أقبلوا جميعا ، من هنا ومن هناك ، من أجله يقاتلون . . . لغير الاحتجاج بدم عثمان . لغير شق الطاعة على جماعة الإسلام . لغير الوحدة المنشودة . إنما انتهز زعيمهم ابن أبى سفيان ، هذا الموقف الضنك الذى أصبح فيه خصمه ، فهزه سلاحا باترا ليفتح به ثغرة تنفذ من خلالها مآربه ، فيسقط دولة ، ويقيم دولة على أنقاضها لنفسه طالما غازلت فيه عرائس الخيال .

وينادى الأشعث حينما يقارب القوم ، وهو يحسر لهم عن رأسه ليروا شعثه فيعرفوه :

« أنا الأشعث بن قيس ! . . خلوا عن الماء . . . »

فيبادره أبو الأعور :

« أما والله لا ، حتى تأخذنا وإياكم السيوف »

« قد والله أظنها دنت منا ! . . »

وبمثلها أجابه عمرو :

« والله لانخلى عنه حتى تأخذنا السيوف وإياكم ، فيعلم ربنا أينا اليوم أصبر ! . . »

وعلم ربهم صبرهم ، بل خورهم ، ذلك اليوم على النهر ! . . فما أن بلغ عنتهم غايته ، وأبوا الشرب على عدوهم ، وحسبوا موقعهم الحصين مانعهم ، حتى أرسل الأشعث إلى صاحبه :

« أقدم الخيل ! . . »

عندئذ انطلق الأشتر بفرسانه كأنهم مردة أطلقوا من عقال طال فيه احتباسهم منذ عهد سليمان ! جاءهم الفرج بعد ضيق . تنسموا الحرية في ريح الموت . وما الموت ، وهم يرونه اليوم في الوثوب ، كما رأوه في التقاعد ؟ . . . وما غاية حياة يحفها الضيم ، ويحدها الخسف ، وتباعدها الكرامة ؟ . . وفيم ذلتهم الآن لذليل ، رقيق طليق ، استرقه أمس كفره حتى حطم محمد هبل والعزى ومناة ، وغيرها من مسوخ مؤلهة ، فأكره حينذاك وأبوه وأهله على الخلاص من قيود الضلالة ، وشرك الشرك ، وأغلال الجهالة العمياء ؟ . .

لود الأشتر لو تعبد له طريق الاستشهاد ، أثناء هذا الصراع ، عسى أن تغسل دماؤه حوبته ، وتمحو خطأه عند ما خالف الإمام . . . لكن أجله أمهله . لم ينؤ به . ظل ثابتا تحته كفرسه لأدهم الأسحم ، يقفز به على مهاوى الردى ، ويحمل معه من غبارها الفاتك ، الذى يتناثر من حوافر جواده ، ما يبثه على رءوس مناوئيه ! . . بقية الأجل كانت درعه ، وذلك الفرس الكريم المنطلق به في النهار كقطعة من الليل كان مركبه . والإيمان في فؤاده هو الذى كان يحمل ويشد ويقصف بمن عارضوه من صفوف المقاتلة ، فيجرعهم الحمام في الخوف قبل أن يذوقوه في قذفة الرمح وضربة السيف . . كان شيطانا على شيطان ! . . وكان جواده نذير شؤم للذين يستقبلونه ، إن ثبتوا عصف ، وإن التووا عن مهبه انعطف كأنما حينهم كان يشده إليها بخيط موصول ! . . هو كالموت ، له سواده ولونه الحزين ، وله رهبته ، وعلى دبيب خببه ، وركضه ، وعدوه ، كانت تتراقص أبالسة المنايا المنهومة ! . .

ومضى يحمل الشكل واليتم والفواجع . . . يقط ويقد الأجسام والهام وسيفه غير ناب في كفه ، وفرسه الحالك بلون الغراب ، كغراب ، أو عقاب ، يطير به فوق نصال السيوف وأسنة الحرب . . . في البدء كانت الخاصة أهدافه . الفوارس الأمجاد . الأبطال الذين سرت لهم سيرة في الشام يجل مثلها عن شطحة الأساطير . . فما أن عثر بابن فيروز ، صاحب البأس فيهم ، وسمعه يرتجز وهو يناديه : « يا صاحب الطرف الحصان الأدهم . . . أقدم . . . » حتى أقدم يلبيه ، ودهم ، فلم يدعه إلا شقين ، قد فلق ظهره برمحه ، وبعث بروحه وذكره على السواء ، إلى حيث لا معاد في خاطر مفتون ! . .

ثم قفى بمده بغيره : فئة كثيرة لها بلاء وبسالة ، من الفرسان الأشدة الأعلام ، فيهم زامل حامل اللواء ، وفيهم مالك بن أدهم فارس الشام ، وفيهم الأجلح الذي عدوه فيمن ذكرت العرب من أبطالها القساورة . لكنهم تخطفتهم عينه ، وكان الموت يتأرجح فوقهم وفوقه حتى ليوشك أن ينثني عنهم إليه ، ثم يعيل صوبهم دونه ، كأنما اجتلى فيه رهبة ترده وتقسر شبحه على الفرار ؟ . . .

شد عليه ابن أدهم وهما راكبان حتى غشيه ، وظن الناس أنه قاتله . فلما اندفع نحوه الرمح مال عنه إلى بطن فرسه فرعور . وأخطأته الضربة بمثل شعرة ، وغريمه حينذاك مبهوت . . . وإن هي إلا لحظة حتى التوى ، ثم استوى ، ثم ثبت على ظهر أدهمه ، وهو يصيح كالساخر :

« خانك رمح لم يكن خوانا . . . . »

وعاجله ، فجندله . . . .

وانبرى له زامل يود لو أصابه بأصحابه الصرعى ، فينال ثأر قومه فيه . يمشي إليه على حذر ، على جواد مدرب أصيل . ويلقي إليه كل عينه ، وكل ذهنه . ويتربص به غرة يجوزها إليه القضاء . . . فما أسرع ما احتبست الانفاس ، والنواظر عند ذاك عالقة بجسد الأشتر قد أطاحت به الطعنة الصارعة بين القوائم السود ! . .

ولكن قبره لم يكن هناك ! . . درأ الطعنة درعه . انثنى عنه رداه . . . وقبل أن تطرف عين ، هز سيفه مرة وهو راجل فقط قوائم جواد خصمه ، ثم هزه أخرى فإذا زامل صريع ! . .

ولم يكن للأجلح عنده نصيب يفضل مصاب صاحبيه ، وإن أصاب ذكرا في موته سطرته المدامع ، وردته المجامع ، وسار في الناس مثلا يعز شبيهه في الوفاء . . . فلقد ضاقت أخته بعده بدنياها ، وأ كلها الحزن ، وبرى البكاء عينيها إذ غدا لها دمعها العزاء ، وحزنها الشراب والغذاء ! . إنها لا تنساه . لا تطيق أن تصير نفسها على الفجيعة فيه . لا تني الليلة بعد الليلة ، والنهار بعد النهار ، ترثيه بذوب الروح ومن شؤون الفؤاد حتى قضت حسرة عليه . . .

ويسمع الإمام ذات يوم من رثائها الحزين :

« ألا فابكى أخا ثقة فقد والله أبكينا
أتانا اليوم مقتله فقد جزت نواصينا
كريم ما جد الجدين يشفى من أعادينا ...... »

فلا ينضح لها بغير التوجع لنكبتها ، والأسى عليها . حتى إذا بلغ الرواية من نظيمها :

« شفانا الله من أهل العراق فقد أبادونا ! . . »

دار بوجهه في أصحابه يهون عليهم من دعوتها ، ثم رفعه إلى السماء :

« أما إنهن ليس يملكهن ما رأيتم من الجزع . أما إنهم قد أضروا بنسائهم فتركوهن أيامى حزانى بائسات ، من قبل ابن آكلة الأكباد ... اللهم حمله آثامهم وأوزارهم ، وأثقالا مع أثقالهم ؟ ... » .

وكم تركوا اليوم وراءهم من أيامى ويتامى — أولئك الذين أبوا إلا أن يشعلوها فتنة كنار الجحيم اصطلوا حرها من أجل جاه الحياة ! . . طاش عن الهدى صوابهم ، وضل فيها حسابهم ولم يجدهم الأمل المأمول . ولا عتوهم بما امتلكوا اليوم من بأس الحرب ومنعة الموقع قد أغنى عنهم ، إنما غدوا وقودا للنار ، تعتد لها ألسنة نقادة تتخير منهم الجياد ، وتأكل الفوارس ، وتحرق الأبطال الأجلاء . . . الأشتر يضرب ويصرع ، والأشعث يضرب ويصرع . والمنجل يحصد والرحى تدور ...

ولا يطول صبر ولا كر . بل هي حملة ثم أختها يخلص بها القائدان من خاصة خصمهم إلى جمهوره . فإذا الأول بفرسانه يشد في ناحية ، وإذا الآخر برجله يشد في أخرى . فما يثور النقع حتى تتهاوى صفوف العدو المدل وتنثلم ، وتنفرج

عن زعيمها الذى حسب زمانه آتيه الساعة بالمجد والنصر والصولجان أسارى أذلاء يعرغون الجباه فى تراب قدميه ! . .

وعندما بانت الهزيمة لمعاوية ، وتخايلت أمام عينيه سوداء مغبرة ، كهذا الأدهم الذى أركضه إليه الأشتر فوق هام عصبته ، لم ير صاحب الشام فى الصبر نجاء ... إنما مال عن موقعه ، ولاذ عن خصمه بالفرار ينحاز بقومه ثلاثة فراسخ ، ثم ينأى ، ثم يمعن وسعه عسى المكيدة فى غد تنيله ما لم ينل بسيفه ! . .

وبعث إلى البقية من أصحابه التى استمسكت بالدفاع :

« لا تقاتلوا ... خلوا بينهم وبينه ... » .

وهل كان ثمة مجال لقتال ؟ . . بل المجال كله وسيع فسيح لمن يؤثر الحياة فى ضيم ، ويلتقط أجله وهو مبعثر على الأديم الندى بالدم ، بين نثائر الأبدان ومزق الأجساد ثم لا يكاد ! . . فلقد ظفر من باع نفسه لله ، وخسر من باع حظه من آخرته بشهوة الحياة . علا الحق فهو سماء ، وزهق الباطل فهو جفاء ...

وعندما غمست خيل على سنابكها فى مياه الفرات . وفر معاوية وجنوده مقهورين بملاذهم البعيد الجديد ، انفلت إليه صاحبه عمرو ، على ثغره مع قترة القهر بسمة صفراء ساخرة :

« يا معاوية . . . ما ظنك بالقوم إن منعوك الماء اليوم ، كما منعتهم أمس . أتراك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه ؟ . . . » .

فأشاح عنه وهو يهمس عن كمد وغيظ :

« دع عنك ما مضى منه ! . . » .

ثم ألقى بعينه إلى الماء ، تسبح هناك هنيهة بين الحشود المظفرة ، إلى غاية نظره ومداه . إلى مناط فكره . إلى المخيلة الصافية للإمام ، والطبيعة النقية الكريمة . . . فإن هى إلا برهة تقضت عليه وهو يفكر ، ويقدر ، ويستخلص عواقب الأمور حتى شاع الرضا على محياه . . .

وقال بعد هذا لصاحبه :

« ما ظنك بعلى يا ابن العاص ؟ . . » .

فأجابه وقد حدس مرماه :

« على ؟ . . ظنى أنه لا يستحل منك ما استحللت منه . وأن الذى جاء له غير الماء . . .

٧

طلع ذو الحجة بالأمل فى سلم ترد عليهم جميعا الوحدة ، وتنزع من القلوب الغل ، وتدع الناس وهم على جادة سواء ، لا تلتوى الطرق بهم ولا تتشعب المذاهب . بدت غرته كوضاءة البدر فى الليل ، كالجبين الأبلج ، كالشامة البيضاء فى جبهة الأدهم . لها من إشراقة الرجاء شعاع . فيها أمن ، عليها طمأنينة ودعة . حتى الذين نالت منهم الجراح ، وخضبهم الدم ، طابت نفوسهم بمولده . . .

كلا الفئتين هدأ منهم الروع . لاح قرارهم فى بشائر صباحه ... الآن يتنسمون الأمان حاضرهم عليه سكينة ، غدهم القابل مأمول ، يوشك ملائمهم أن يتخيل فيه عروة غيرمفصومة توثق بين الحزبين فتعيد الأمة ، كأمسها القريب ، مؤتلفة ، تجمع النازل الدانى والنازح الغريب . . . وما لهم لا يأملون وشهرهم هذا يملهم الألفة ؟ . . وهو موعد التواصى بالتعاصب ولأم الصدوع ، وهو موسم خير ، تهوى فيه أفئدة كل مسلم ومسلمة ، وعيونهم وأبدانهم ، إلى بقعة ذات أمن وعز ، بأرض مكة قد طهرها الله ، وأقام فيها قواعد بيته الحرام بيد أبيهم إبراهيم . . .

ومضوا على صفاء . . . يومان كاملان مرا قبل هذه الغرة وهم إخوة ، نأت عنهم المواجد وخلفتهم الأحقاد . المحنة التى باعدت بينهم ، ولوت زمانا بأجيادهم عن الوفاق ، وأرسلتهم يتراشقون بالموت على مشافر الأسنة غدت الآن فى ظل الغابر . توارى وجهها بعد وقعة الفرات كأنما أغرقتها إحدى لججه حين اقتحمه جند على بخيله ورجله وغمسوا فيه القائمة والساق ! . . فما أملى لهم أمير المؤمنين فى الشماتة . ولا أعانهم على البطش . ولا أمكن لهم فى الثأر من عدوه الذى منعه شربة الماء ... وعندما جاءه الأشعث بن قيس ، وعليه رهج القتال ، يدل بالنصر:

« أرضيتك يا أمير المؤمنين ! . . قد غلب الله لك على الماء » .

قال للناس :

« خذوا من الماء حاجتكم ، وارجعوا إلى عسكركم » .

فلما سمعهم يزأرون :

« لا والله لا نسقيهموه ! » .

أبى عليهم ما أرادوه :

« أيها الناس . . . إن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم . . إن الخطب أعظم من منع الماء ! . . »

ثم بعث إلى معاوية يهدئ جأشه ويبث فى نواحى نفسه الأمان :

« إنا لا نكافيك بصنعك ، هلم إلى الماء فنحن وأنتم فيه سواء . . » .

وكذلك شاء أن يخلص لمثله الكريمة ، وطبيعته النبيلة السمحة فلم يبادر خصمه بمثل عدوته ، ولم يسل عليه سيف الصدى الذى ابتزه إياه . وكذلك اختلفت الروايا من الطائفتين إلى الشريعة ، والخيل والدواب ، ترد وتصدر على طمأنينة . . . يومان كاملان انقضيا لم تهز كف رمحا ، ولم ينطلق من قرابه حسام . فلم يكن الخطب فى الحقيقة شربة تبل عطش الظامىء وتنقع غلة الصديان . بل هو خطب هذه الأمة التى جمعها فى الزمان عهد ، وفرقها الآن عهد ، وأخذت تنوشها الأهواء الجامحة والمقاصد المفتونة بما ينذر بالتدهور والانهيار ! . . إنه خطب الحرب . خطب الإسلام الذى توشك الحوادث الدامية أن تعصف بأعواده ، فتقصف فروعه الطرية النضر ، وتجتث جذوره الفتية الخضر ولما تشب بعد دوحته وتصلب على الأيام . . . فلقد أجلبت العرب : نصفها على نصفها . بأسها بينها شديد ، فغالبها خاسر ومغلوبها خاسر ! . . .

وأحضر الإمام بعض صحبه إليه :

« ائتوا هذا الرجل فادعوه إلى الله عز وجل ، وإلى الطاعة والجماعة ، وإلى أمر الله تعالى . . . » .

كأنما عنى أن يرعى معاوية ربه ، فى قومه وأمته — إن لم يرعه فى دينه — فيبادر وهو على شفا الويل حينذاك بإلقاء سلاحه ، ضنا بالدم ، وإبقاء على الناس . عسى أن يرشد من بعد غواية . عسى أن تعطفه الرحمة على عشيرته أن تنالها المصارع . عسى أن تستميله هذه السماحة والنبل والرفق من على بعد وقعة الفرات فيقابل إحسانه بإحسان . .

وسأله منهم سائل :

« ألا نطمعه ، يا أمير المؤمنين ، فى سلطان توليه إياه ، ومنزلة تكون بها له أثرة عندك إن هو بايعك ؟ . . . » .

فأبى أن يرضخ له الرضائخ ، أو يساومه فى الحق :

« ائتوه فالقوه ، واحتجوا عليه ، وانظروا ما رأيه . . . » .

فلم يجشهم معاوية بجديد . إنما عنت وعناد وإصرار . يأتونه من آخرته فينأى ويحيد ، من أطماعه فيسرف ويزيد ، كأن قد عقد النية على أمر ، ومضى إلى غاية له على مزلق ، كالهاوى مع جرف السيل ما لقدمه من ثبات ! . . .

قال له أحدهم :

« يامعاوية . إن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة . . . فأنشدك بالله أن تفرق جماعة هذه الأمه ، وأن تسفك دماءها بينها . . . » .

فأجاب كالساخر :

« فهلا أوصيت صاحبك ؟ . . . » .

« صاحبى أحق البرية فى هذا الأمر ، فى الفضل والدين والسابقة والإسلام والقرابة من رسول الله . . . وإنى أدعوك إلى تقوى ربك ، وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق — » .

« ويطل دم عثمان ؟ . . لا والرحمن لا أفعل ! . . » .

وعندئذ انبرى له شبث بن ربعى . لم يطق أن يسمعه يلوك حجة مردودة عليه ، هو يعلم وهو يلوكها أنها زيف ، ومنطق باطل ، ودعوى منقوضة . . .

« لا يخفى علينا يامعاوية ما تقرب وما تطلب ! . . إنك لاتجد شيئا تستغوى به الناس ، ، وتستميل به أهواءهم ، وتستخلص به طاعتهم إلا أن قلت لهم : (قتل إمامكم مظلوما فهلموا نطلب بدمه !) . . فاستجاب لك سفهاء طغام رذال . وقد علمنا أنك قد أبطأت عنه بالنصر ، وأحببت له القتل بهذه المنزلة التى تطلب — ورب مبتغ أمرا يحول الله دونه ! . . . . . . والله لئن أخطأك ما ترجو إنك لشر العرب حالا . ولئن أصبت ما تتمناه لاتصيبه حتى تستحق صلى النار ! . . . » .

فجبهته صراحة شبث حتى أخرجته عن طوقه من هدوء الطباع ، فثار به وبأصحابه :

« كذبت ولويت أيها الأعرابى الجلف الجافى ! ... انصرفوا من عندى ، فليس بينى وبينكم إلا السيف ... » .

ولم تكن هذه أول مرة ركب فيها معاوية عناده ، وأسرف سرفه فى المشاقة حتى تهدد وتوعد وأوشك أن يسل الحسام فى وجه دعوة السلام . ولم تكن هى الأخيرة ، فلقد سبقها كثير وتلاها كثير . ولكنه فى كل مرة كان يعمن فى عنته وإن بدا هو أمام أناس كالساعى إلى الوحدة ، العامل على الوفاق ...

... ... كان همه ، إذ لعلى فى النفوس قداسة ، أن يشغل عنه قلوب القراء فلا يلوذ به لائذ منهم ، ولا يظاهره على ابن هند ظهير فلما أن ضاق خلافه بأبى الدرداء وأبى أمامة الباهلى ، وهما حينذاك عنده بالشام ، ووجدهما يراجعانه :

« يا معاوية . علام تقاتل هذا الرجل ؟ ... فوالله لهو أقدم منك سلما ، وأحق بهذا الأمر ، وأقرب إلى النبى » .

لوى بهم :

« أقاتله على دم عثمان ، وأنه آوى قتلته ... فقولوا له فليقدنا من قتلته وأنا أول من يبايعه من أهل الشام ... » .

وفعل بالساذجين مكره ، وقد فاتهما أن القصاص حق ولى الأمر فى المسلمين وحده أو يضطرب حبل النظام . وما لمعاوية إذن والقود وهو فرد من الرعية ؟ . وفيم دخوله فى هذا الأمر إلا أن وجده مطية تحمله إلى سواه ؟ ... وأين هذه الساعة دماء عثمان وهى هدر وكانت أمسها حرما يوشك أن يستعصى على صارعيه لو سارع إليه معاوية بنصره حين عزت النصرة له إلا من الإمام ؟ ...

وخرج الرجلان يطلعان بهذه الحجة المفلوكة إلى صفوف على وفى ظنهما أن سعيهما سيثمر الوفاق . فكيف لقيتهما حينذاك الجموع ؟ ...

دخلا على أمير المؤمنين يسألانه مطلب بمعتسف الشام ، فلم تغب عنه المكيدة المستترة ، والطلبة المستحيلة التى دونها ندور الهام ؟ ... ولكنه أخذهما معه إلى صفوفه ، ثم أشار :

« هم الذين ترون ... » .

فما أن جالا فى القوم ، وسرى فيهم نبأ ما قدما فيه ، حتى انبرى لهما قرابة

عشرين ألفا من المقاتلة مسربلين فى الحديد ، لا يرى منهم سوى الحدق ، يهتفون بمثل قصف الرعود :

« كلنا قتلة عثمان ! . . » .

. . . . . وأخرى أيضا . . .

أخرى من هذه الحيل التى تواترت تكشف لنا عن عنت معاوية ، واعتسافه الذرائع والتعلات التى تدنيه من بلوغ أربه ثم تنئيه عن شبهة المشاقة والاعتساف ! إنه ها هنا ليبدو كمن يعيد للخواطر خرافة الذئب الذى اشتهى الحمل فراح يتذرع إلى افتراسه بعشق التلفيق وصوغ صنوف من الأسباب والمعاذير تخفى منه عنت المتحيف وتظهر منه هيئة المنصف ! . . . أو هو فى الحق تلك القدوة التى تأثرت خطاها الملتوية فيما بعد كافة الذئاب ! . . تأتيه من القراء ، مرة ، طائفة ودت لو ترده عن عزمه ، وتميل به عن سبيل العناد الذى يوشك أن ينتهى بالأمة الإسلامية إلى محنة حازبة مآلها إلى بوار ، فلا يكاد يشم منهم اللوم حتى يمضى به طريقه الدائر : بحلقة من تعلاته تسلم من حجة إلى حجة ، ومن ذريعة إلى ذريعة كلها مفتولة مصنوعة ! . . فإذا صدموه ببيان ، أو جبهوه ببرهان ، فمعين زعمه لا يغيض . . :

يجيئهم بدعواه . ثم يقفى بعدها على آثارها بسلسلة طويلة مبطلة ، حلقة حلقة . كلما راجعوه أتاهم المرة بختل جديد :

« أطلب بدم عثمان ، من على . . . هو قتله وآوى قاتليه . . . » .

« إن لم يكن قتله بيده فقد أمر ومالأ . . . » .

« إن لم يكن فعل هذا فليمكنا من قتلة عثمان ، فإنهم فى عسكره وجنده وأصحابه وعضده . . . » .

« فما له ابتز الأمر دوننا على غير مشورة منا ؟ . . . » .

« الناس تبع المهاجرين والأنصار ؟ . . فما بال من ها هنا منهم لم يدخلوا فى هذا الأمر فيؤمروه . . » .

علة وراء علة ، وذريعة وراء ذريعة تدنيه من بلوغ أربه ثم تنئيه عن شبهة المشاقة والاعتساف ! . ولكنها معاذير مفضوضة ، وحجج منقوضة لا ثبات لها

أمام منطق الحوادث ، ولا فى سيل الحقائق الدافق الذى لا يحتاج لبرهان . فما كان عثمان ضحية ثأر ، ولا صريع نقمة فردية نضحت بها نفس رجل من الناس . ولكنه حاكم ضاقت بحكمه رعيته ، وملكها غضبها عليه حتى ثارت به ثورة عامة انتظمت الكبير والصغير ، والخاصة والحثالة ، والدانى والقاصى من سكان المدينة إلى أهل الأمصار والأقاليم . . .

ويقول على للذين أرادوه على القصاص من أولئك الثوار وقد علموهم يمدون بالألوف :

« تأول القوم عليه القرآن ، ووقعت الفرقة . وقتلوه فى سلطانه وليس على ضربهم قود . . . » .

ويراجعه من أذناب معاوية من يقول :

« أتشهد أن عثمان قتل مظلوما ؟ . . » .

فلا يتوانى عن الجواب :

« إنى لا أقول إنه قتل مظلوما ، ولا إنه قتل ظالما . . . »

وقبيل الفتنة كان يحذر عثمان :

« الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك ! . . »

فلما أساء فيهم السيرة وقتلوه ، طالعهم الإمام برأيه فى القتيل ، ورأيه فى القاتل ، بغير إخفاء :

« استأثر فأساء الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع ! . . . ولله حكم واقع فى المستأثر والجازع . . . »

غير أن معاوية كان لا ينى ، كلما توطأت له مناهج المعارضة والخلاف ، يلوح بهذه الراية الدامية أمام الأبصار ، عسى أن يلف رمقها إليه ، ويحتوى برقعتها المصبغة غوافل العقول فى أحضانه . . . فالناس عبيد الحية . والعرب عامة أمة يفتنها الثأر . والشام من بينهم درجت على طاعته ، وشبت تحت ظل سلطانه ، فليس فيها من يقابله بغير التسليم برأيه والامتثال لأمره ونهيه . . . حتى فى هذا اليوم الذى طعم فيه وجنوده ذلة الهزيمة ، لم يراجعه من قومه مراجع ، ولم يحملوه أو يسطوه أن يلين جانبه فيسمع لدعوة الوفاق التى دعا بها الإمام .

وعندما أقبل الليل ، وغابت غرة الشهر الحرام فى الظلمة ، كانت أمانى السلم قد توارت كذلك عن النفوس الراجية إلى وهدة من اليأس بعيدة المهوى عميقة القاع . . .

ودخل عليه حينذاك ، والمساء يرسم ظلال غسقه على السحب البيض حمراء كالدم ، عبيد الله بن عمر بن الخطاب . . . فما أن شهده الإمام يزدلف إليه فى مشية المعجب ، حتى هتف به بما يهد كبرياءه :

« أنت قاتل الهرمزان ! . . لقد كان أبوك فرض له الديوان وأدخله فى الإسلام . . . »

فأسمعه الفتى صلفه :

« الحمد لله الذى جعلك تطلبنى بدم الهرمزان ، وأطلبك بدم عثمان ! . . »

وعندئذ تبين الإمام عنت أخصامه ، وعزمهم الثابت الذى لن يلين ، فقال للمفتون بصوته الوئيد الرزين :

« لا عليك . . . سيجمعنى وإياك الحرب غدا . . . . . . »

وفى غد تسبر العزائم ! . . .

٨

بدت صفين كالإهاب المرقش . كجلد الحية : به سواد وبياض . . . كانت رقعة من السلم خرقها العنت ، أو ديباجة من الحرب خرقتها الأناة . . . كانت هدنة هفا إليها دائماً على ، وسعى سعيه لتكون مجازه إلى سلام دائم يؤمن سرب أمته ، ويهبها الأمن والحياة . . .

لم تكن سلماً كالسلم . ولا هدنة كالهدنة . ولا حرباً كالحرب . إنما أخذت من أولئك كله بطرف حتى ضاع وجهها بين ألفاف هذه العوامل المضطربة الخطوط ، والمختلفة الظلال والألوان . فيها عداوة وفيها صفاء . فيها قرار وفيها دم . فيها رقبة للخير وفيها تربص بالأحيان . . . الحياة تصطرع آنا تذود عن مقوماتها فتغلب الموت . والموت يصطرع آونة يدافع عن خرابه فيقهر الحياة .

وفى كل هذه الأثناء كان الناس فى هم من رجاء يخطف سناه ، وقنوط يدهم سواده . على شبهة من يومهم ومن غدهم ، فلا يدرون أنومهم على طمأنينة أم إصباحهم على قتال . . .

على هذه الهيئة انطلقت الأيام . سلم ولا سلم ، وحرب ولا حرب ، كأنما أمانيهم حلم حالم طالت الرقدة به فلم تتفتح عينه على حقائق الصباح . . . وكان الإمام دائماً حليف الحياة . وكان ابن هند دائماً حليف الموت ، يعده بالزاد بعد الزاد من الوقيعة والعنت والعناد . ويلوى جيده عن الوحدة المنشودة إلا أن ينتكس عليه تقديره ، وتشتبك أموره فيخفض حينذاك جناحه ساعة أو بعضها لدعوة الوفاق . إذا خايله الظفر تجبر ، وإذا لاحت الهزيمة صانع وخادع حتى يفلت من أنيابها بحيلة تدنيه فى الأعين الماشية من الله ، وتبعد به عن الملامة . .

لكن الموادعة والمخادعة كليهما لم ينجيا القوم من قدر لازم حق عليهما قبل أن تتحرك بهم الأقدام . فالحق بين والباطل بين ، والمطل إن جاز مرة على الممطول فإنها أناة ترث وتزول ، وفترة من الزمن لا تطول . وعند ما يفيض بالنفوس صبرها لا تمسكها حيلة . وعندما تطفح الكأس تميل . ولقد لغط الناس : ضجت طائفة ، وشكت طائفة ، وهم يرون عدوهم أمامهم مدلا لاهيا لا تزعه دعوة ولا يناله حسام . العاذل تقبضه عيبة وتبسطه عيبة . والشاك تنشره ريبة وتطويه ريبة . والإمام بينهم غرض تقاذفه نثار الظنون التى حسبت صبره على غريمه مرة شكا منه فى لزوم القتال ، ومرة كراهة الموت . فلما أن نبا به اللغط ، وساءه الهمس السارى من الشفاه للمسامع . لم يعد له معدى عن مصارحتهم بخافية ما اختلفوا فيه :

« . . . أما قولكم : أ كل ذلك كراهية الموت ؟ — فوالله ما أبالى أدخلت إلى الموت أو خرج الموت إلى . . . وأما قولكم : شكا فى أهل الشام — فوالله ما دفعت الحرب يوما إلا وأنا أطمع أن تلحق بى طائفة فتهتدى بى وتعشو إلى ضوئى ، وذلك أحب إلى من أن أقتلها على ضلالها ، وإن كانت تبوء بآثامها . . . »

وقديما كان يقول مثل هذا القول ، ويسير على نهجه ، ولا يني يتريث عسى الله أن يعد عدوه بالهداية ، ويجنبه غواية إبليس . وهو اليوم أيضا يصبر ليفسح لأمله . وهو فى غد يطاول معاوية وما أبه بحوله وطوله ، ولا بخيله ورجله . . .

لقد كان إبان القتال الذى حمى من بعد يأسه ، وفارت سعره ، يحث أصحابه على الثبات أمام هبة الهلاك العاصفة ، ويهون عليهم المصير ، فيتلو لهم :

« قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ، وإذن لا تمتعون إلا قليلا . . . »

وكان يهتف بالذين ينثنون عند ما تضيق عليهم حلقة الأسنة يسرعون من فروجها إلى النجاة :

« أين فراركم من الموت الذى لن تعجزوه إلى الحياة التى لن تبقى لكم ! . . »

وكان ينطلق فى الصفوف المتربصة به حين احتدام الوغى وفوران رهجه ، حاسراً بلا عصابة ، عاطلا بلا درع . فإذا خاف صحبه عليه مغبة إقدامه ، ابتسم وقال بغير مبالاة :

« أبالموت تخوفونى ؟ . . إن على من الله جنة حصينة ، فإذا جاء يومى انفرجت عنى وأسلمتنى . فحينئذ لا يطيش السهم ، ولا يبرأ الكلم ! . . »

كلا لم ترده عن قتال أعدائه خشية الموت ، والموت على الخلائق لزام ، وعلى المؤمن صلاة وقيام ! . . إنما كان يستأنى بأهل العناد طاقة جهده واصطباره لعل أحلامهم تصيب من بعد جهالة ، أو تؤوب للهدى من ضلالة . فالقضية قضية الكافة . قضية الإسلام . لا لمعاوية ولا الإمام . وحين يتهيأ للنجل ، ويهتز للحصاد ، لن يتخير من الثمار ! . .

ومضت صفين . مضت على وجهها إلى غايتها فى طريق لين من الأمن قد اعترضته صنوف كثيرة من صخر الحرب ، ومن حفر الموت ، ومن جداول الدم المسفوك ! . . عاشت من عمر الدنيا نحوا من مائة يوم ، ومن أجل القتل نحوا من تسعين وقعة . ولكنه قتال — فى أعظم حالاته — كأنى أدنى إلى المناوشة والغارة . لا حسم فيه ولا فصل ، ولا تجيش بالعدة كلها وبالعدد كله . إنما كان على يأمر الرجل من أصحابه ، فيخرج فى جماعة من المقاتلة تلقى جماعة من عدوه ، فيقتتلان فى اليوم مرة ، وفى اليوم مرتين ، ثم تؤوب كل فرقة إلى جيشها عند ما يغرب النهار . يخرج الأشتر آونة ، ويخرج قيس آونة ، ويخرج غير هذا وذلك ، كل فى يوم ، من أعوان الإمام الأباة ، أبطال يناجزون من جنود معاوية النظائر الأمثال . . .

مناجزات أوشكت أن تكون فردية . حرب ولا حرب . صراع مائع استغرق كل ذى الحجة كأنما خشى كلا الفريقين أن يتقدم بكل جمعه إلى القتال مخافة الهلكة والاستئصال . فدعوة الصلح آسرة . والرجاء فى السلام لم يغض معينه . ودعاة التوفيق من أهل الورع والقراء لا يزالون يحرثون النفوس ليغرسوا السكينة — النية خالصة ، أو حسبها جلهم كذلك ! . .

وحين أقبل المحرم ، أغمد السيف ، وجف الدم ، وانبرى اللسان والقلم ! .. الشهر الحرام فاء بالناس للموادعة . حنهم أمنه على تلمس الأمن . دفعهم عرفه لطى الضغينة . . . فلما استهل الهلال جرت الرسل كرة أخرى تلوح براية السلم ، وتعمل لحقن الدماء ومنع البلاء . . .

حتى معاوية بدا فى قومه كالساعى للوحدة . ما كان ليحجم ، والملأ أوشكوا أن يعقدوا الأمل على صلح لمع بريقه فى الخواطر ، وتجاوبت ببشراه الأنفس حتى خايل العيون النواظر . . إنه لم يرم وحدة ، ولم يجد لألفة ، ولم يتطلع إلى وئام يجيئه على حساب أطماعه وأنقاض طموحه ومراميه . ولكنه شهد الناس قد هفوا إلى الحياة الرخية فى ظلال الإخاء والطمأنينة ، فشق عليه أن تذوب أحلامه العريضة كما تذوب الظلال فى سطعة النور : وأن يخالف جمعهم فيكشفوه داعية شقاق وعدو وفاق . لم تكن له حيلة إلا التظاهر بالسير فى غمار هذه الرغبات التى انبثقت عينها من قلوب الجموع . . . وإنه ليفكر . وإنه ليدير أمره ويشحذ حرصه وحذره فلا يعييه أن يصطنع الوسيلة التى تبديه مسهما فى الهدف العام ، ثم تدنيه من أحلامه ! . .

يبعث برسل إلى على ، ظاهر دعوتهم ألفة وخبيئها خلاف يرددون عنده ثانية ما أسلف به صاحبهم ، ويطلبون منه المحال ، وهم يعلمون أنه محال ؟ . . يقول قائلهم :

« . . . إن عثمان كان خليفة مهديا ، يعمل بكتاب الله ، وينيب إلى أمر الله . فاستثقلتم حياته ، واستبطأتم وفاته ، فعدوتم عليه فقتلتموه . . . فادفع إلينا قتلة عثمان نقتلهم به . فإن قلت إنك لم تقتله ، فاعتزل أمر الناس فيكون أمرهم هذا شورى بينهم ، يولى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم . . . »

فـكم من ذريعة مصنوعة . وكم من حديث مثله معاد ! . .

ويتلهب بينهم وبين الإمام النقاش . هم على إفـكهم ، وهو على حقه ، لا ينحرفون شعرة عن عنادهم وغيهم ، وإن أتاهم بالحجة الواضحة ، والبينة المسفرة الوضيئة كإشراقة النهار . فما لهم من سبيل سوى خلافه ولا من غاية إلا نزعه من حيث نصبه الناس . . . وحتى عند ما يحاول أن يثير فيهم عاطفة الولاء التي يكنها كل مسلم غيرهم للرسول الـكريم ، بعد أن غلفوا قلوبهم عن براهينه ، يبدون كأنهم فى غير واديه . أفئدتهم صخر . آذانهم بها وقر . أبصارهم عليها غشاء . . . لا يكادون يفقهون قوله أو تهزهم دعوته وهو يعظهم وينشدهم الله :

« . . . عجبنا لـكم ، ولإجلابكم معه ، وانقيادكم له ، وتدعون أهل بيت نبيكم الذين لا ينبغى لـكم شقاقهم ولا خلافهم ، ولا أن تعدلوا بهم أحدا من الناس . . . إنى أدعوكم إلى كتاب لله عز وجل ، وسنة نبيكم ، وإماتة الباطل ، وإحياء معالم الدين . . . أقول قولى هذا وأستغفر الله لنا ، ولـكل مؤمن ومؤمنة ، ومسلم ومسلمة » .

غير أنها دعوة إن لقيت اليوم منهم الصمم وهى وسيلة إلى رأب الصدع ، فسوف تـكون فى غد صرختهم وهى وسيلة لبذر الفتنة . . . فالله ليس غايتهم : لـكنه — علا وجل — سيلوحون باسمه راية لهم قد لونوا أديمها النقى بالبهتان . وعندما يضطرب أمرهم بينهم ، ويأكلهم الوهن ، وتستشرى فى صفوفهم حريق الهزيمة ، سيحملون الـكتاب ، ويهتفون بالله ، ويتنادى شياطينهم بدعوة حق سخروها لباطل ، ولوثوا وجهها بالضلال .

وكذلك تظاهر معاوية بالرغبة الجادة فى تلمس وسائل الوئام والسلام وهو ينفخ غير وان فى نيران الفتنة ويعمل جاهدا للانقسام . . . وما كانت رسله إلا غشاوة تخفى غرضه عن نظرة الغافل ، وفهم الجاهل ، وإدراك الفئة المفتونة من عصبته الذين يشدهم هواهم إليه ، ونشب دنياهم ، ومواجد قلوبهم كما يقاد البعير الغرير لنصل الجزار ! . . وما كان دعاؤه سوى نفاق ، أريد به لى الأعين عن حقيقة آرابه التى شف عنها كدحه الحثيث لاحتلاب السلطة ، وامتلاك أعنة الأمور فى الإسلام . فلقد علم ولما يبعث برسله هؤلاء ، ومن قبل علم ، ومن بعد علم ، ألا رأى له فى بيعة أبرمها من لهم وحدهم حينئذاك حق الإبرام — وهم خلاصة

المهاجرين والأنصار بالمدينة — إلا أن يوافق فتنتظمه الجماعة وتلزمه الطاعة ، أو يخالف فيخرج على النظام . ولكنه أباح نفسه ما لا يباح ، وأقحمها غير حقه وموضعه . . .

فشل وفده ، وعادوا إليه ينبئونه بما هو به عليم ! . . وفشل قبله وبعده غيره من الوفود . لكن ابن هند كان دائما يتصيد من الفشل كل نهزة قد تدنيه هونا من هدفه ، يعز بها عند رجاله ، ويثغر بسنها في صفوف خصمه وأسواره ما وسعه تحين الظروف . فلم يكن يدع الوعيد ، يلوح به كلما جاءه من على رسول يحدثه ، إن حسب وعيده مبلغه من نفس الوافد بعض ما يرجيه . ولا كان يكتم المصانعة واكتساء الرياء حين يظن في التملق الشفاء . ولا قعد مرة عن إثارة طمع الأنفس إذا قدر أنها تسترقها الشهوة وتستذلها العروض ، أيما باب ولجه وأيما محراب اعتلاه ! . . وهو في هذا كله كان دائبا على خلط المداجاة بالوقيعة :

عب وقعه الماء ، يأتيه بشير وشبث وسعيد ، بعثة من لدن أمير المؤمنين ، يدعونه إلى الطاعة . فما يكاد شبث يتقدم رفيقه سعيد بن قيس إلى الكلام ، حتى يلقف العامل المرائي هذه البادرة ، فيدع الأمر الذي جاءوا فيه ، ويحاول أن ينفذ بين الصاحبين بدسه الرخيص . . .

يقبل على شبث معنفا يلومه وهو يظهر الغضب عليه من أجل سعيد :

« . . . إن أول ما عرفت به سفهك وخفة حلمك : قطعك على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقه — ! » .

لكنها وقيعة رمى بها الرفيقان دبر الآذان ! . . .

. . . وفي المحرم . حين يعوده شبث وعدي ويزيد وزياد ، وفدا آخر من لدن علي ، لا يكاد الرجل يلقي باله إلى دعوة السلام إلا بقدر ما يبيحه إياه حرصه على الظهور كالموادع المسالم . فإذا صك سمعه من الدعوة نبأ نكبة الزبير وطلحة ، استأسد وثار . . .

يقول له عدي بن حاتم :

« إنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمتنا ، ويحقن الله به دماء المسلمين . إن ابن عمك سيد المسلمين ، أفضلها سابقة ، وأحسنها في الإسلام آثارا . وقد اجتمع له الناس وقد أرشدهم الله بالذي رأوا فأتوا ، فلم يبق أحد

غيرك وغير من معك . . . فانته يا معاوية من قبل أن يصيبك الله وأصحابك بمثل يوم الجمل » .

عند هذا يثور . لاتنفعه الذكرى ، ولا يصغى للعبرة . ولكنه يسرع — كأنما رأى فى هذه الإشارة الخلاص — فيزوق الكلام وعيدا حافلا برشاش زئيره ، يتهددهم به :

« كأنك جئت متهددا ولم تأت مصلحا ! . . هيهات ياعدى ! . . كلا والله ، إنى لابن حرب ، ما يقعقع لى بالشنان ! . . . » .

ثم لا يثوب به إلى فىء الهدأة أن يقطع علته زياد بن خصفة جنوحه إلى تلمس الأسباب المشاقة .

« أتيناك فيما يصلحنا وإياك فأقبلت تضرب الأمثال لنا ! . . دع ما لا ينفع من القول والفعل ، وأجبنا فيما يعمنا وإياك نفعه . . . » .

لاتثوب به هذه الملاينة إلى الهدى ، ثم لاتحمله إلى السكون إلا هنيهة يعد فيها دعاواه وافتراءه . فإذا أعد وهيأ فقد أتى كرة أخرى — وكم من كرة ! — بأباطيله التى جهد زمانا لتثير الشبهة حول مسلك الإمام . فهو عنده قاتل واتر ، أو محرض مؤامر ، أو منافح عن الجناة ناصر . ما لابن هند وسيلة يفلت بها من تقبل الدعوة الجامعة إلا هذا التيه من الجدال والإفك يلف فيه ويدور . ولا غاية له يرنو إليها بروحه إلا إفساد كل سعى هدفه الأمن وانتظام الأمور .. فلما أن فشلت الوفادة كمبتغاه ، وخرج الرسل من خبائه ، راح يدعو إليه خدعه يستنهضها أن تمده بالدسيسة .

وعندما يدهم الليل ، وتغفل الأعين إلا عين دساس خاتل ، يبعث الرجل إلى زياد من دون أصحابه الأخر يدعوه . . .

حينئذ خسب يلبس الأسد جلد هرة ! . يبرد إرعاده ، ويختفى وعيده وتهديده ، وتتوارى فيه عزة المدل بنفسه وبأبيه خلف ستر من الملق والرياء ، نسجه كيده ، ورقشه وعده ، وزركشه نفثه وعقده ! . .

يقول لزياد بصوت لين تسيل منه الضراعة :

« يا أخا ربيعة . . . إن عليا قطع أرحامنا ، وقتل إمامنا ، وآوى قتلة

صاحبنا . وإنى أسألك النصرة عليه بأسرتك وعشيرتك ، ولك على عهد الله وميثاقه إذا ظهرت أن أوليك أى المصرين أحببت . . . » .

حسب كل النفوس سلعة يشتريها الجاه . حسب كل القلوب بضاعة مزجاة فى سوق الحياة . حسب هذا التيمى مستجيبا لنفثه وتأليبه ثأرا لدم طلحة ابن أسرته الذى أراقه على على ثرى البصرة . . .

ثم يتربص . إنه ليرمق بطرف حي — ما هو بحيي — آثار تحريضه وعهده على محيا الرسول . يخالسه النظرة ، وينتظر الغرة ، ويتبين الثغرة أقد أغارت عميقة فى ضميره فهان أم هو جل عن الهوان . . .

ورنا نحوه زياد بطرف ثابت ، جمدت أجفانه ، وقر إنسانه ، وبرق وميضه كوهج النار . . . هذه عين لا يعميها نشب . بصيرة لا يطمسها ذهب . هذا ذهن لا تفتله الحيلة إن بالعطية الشهية وإن بحمى الحية وإثارة الغضب للدم . هذا رجل يسير فى النور ! ...

وفى هدوء وسكينة تنفرج شفتا زياد عن كلمات ، قاطعة كالسيف ، لاسعة كالجذوة ، فيها عزة وكبرياء :

« يامعاوية ... إنى لعلى بينة من ربى ، وبما أنعم على ، فلن أكون ظهيرا للمجرمين ! . . » .

٩

تلا الإمام :

« إن ربك يقضى بينهم بحكمه ، وهو العزيز العليم . فتوكل على الله إنك على الحق المبين . إنك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » .

فلقد جف الصبر . ذبل الرجاء والأمل . ذهبت الأيام والليالى السوالف جفاء لا غناء فيه ، ولا جنى أطلعته مع جهد الغرس ، ونصب السقيا ، وحرص الرعاية . فمن يطلب النبع فى سراب ؟ ومن ينشد الثمر فى صخر ؟ — الأنفس الموات لا تنضح بخير ! . .

ولم يندم على الزمان الذى تسرب من بين يديه تسرب القطرة فى الرمل بقدر ما أسى للمصير القدر ، والمحنة المقبلة ، والدم المضيع بثرى صفين يهم أن يسطر بسن الموت على أمته الثكل والوهن والخراب . . . فهو أسيف . وهو واله محزون . وهو جو براه شجنه ، يكاد دمعه يبل صدره لولا أن بكى القلب فغاض النبع فى مآقى العيون ! . . فما هذه إلا معركته — هذا الجهاد السلمى الذى شمر له قرابة العام ، ولهج به ، ودعا إليه ليعلى كلمة الإسلام ، وهو الوقعة الكبرى التى ود بروحه ولبه وعصبه لو حاز النصر من غمارها ونال لقومه الأمن والإخاء والعزة . . . لكن حملة السلام التى أعدها . ثم قادها ، لقيت الهزيمة ! . . كسرها الجشع والهوى والأحقاد . وعندما يظهر ذات يوم عدوه ، ويطأ الأمة المنكوبة بقدميه ، وينشر فوق ربوعها الحزينة حكمه كالظلال السوداء التى تبسطها الظلمة ، فلن يكون نصر ذلك الغريم صدى لخطره وقدره ، ولا نتيجة لجلده وصبره ، ولا وليد نصيره ونفره ، بل النهاية الطبيعية لهذه الدبرة التى أصابت عليا وهو يكافح كفاحه المرير فى وقعة السلام ! . .

فلولا أن قد علم المبغضون للإمام نيته ، وسبروا غوره وسره ونجواه ، لجنى الناس على الحقيقة فظلموه . . . وكم ظلمه إلى الساعة أناس ، وقد ألزموه هذه النتيجة التى انجلت عنها فى البدء صفين ، ثم من بعد الخدعة الضالة المضلة التى انفرجت عنها مهزلة التحكيم ! . . تترفق طائفة فتراه غفل . وتغلو طائفة فتراه ضل . ثم يوشك الذين يقيسون الأمور بالخواتيم ، ويحكمون على الخطة بعقباها دون تدبر الظروف الطارئة والعوامل الدخيلة التى تنكث الخيوط وتمحو الخطوط ، أن يصوروا ابن أبى طالب قد مد يده عن غير تبصر فصاغ بنفسه المصير المؤسف الذى آل إليه عهده المقلقل القصير . . .

هذه المصابرة التى طاول بها على خصمه الشهور الطويلة كانت الحجة القائمة عليه من كل ناقد ألصق به مغبة انتكاث الأمور وألزمه بوار نضاله وسعيه : « فلو أنه عاجل غريمه ! » . . . . . . « فلو اقتحم على معاوية الشام غداة ظفره العزيز فى البصرة » . . . . . . « فلو حرمه وجنده شربة الماء ثم أباحهم الظمأ والسيف عقيب وقعة الفرات ! » . . . . . . ولكنها ومثلها فروض

معتسفة ، تهاوت جميعا تحت طرقات الواقع الذى هدمها بعوله ، وأقام الإمام على أنقاضها وخرائبها ، رافع الرأس ، منيع الجانب عندما انتزع النصر من براثن عصبة عاتية ، مثل ضعفين من جنوده . جمعها الجشع فأدلت ، ثم أكلها الفزع فتولت تنشد السلامة فى الهرب بجلدها من ميدان صفين ! . .

كلا ، لم تضاره المصابرة ، لم تنل من عزمه ، ولم تفل حده المشحوذ للقتال . لم تعد خصمه المتربص بأى عامل من عوامل الفوز والتفوق . ما من علة أزجاها ناقد . وما من فرض ساقه عاذل ، كانت له أصبع فى النتيجة الحربية التى انجاب عنها غبار المعركة . بل هى كلها ، فيما أحسب ، ذرائع مصنوعة أريد بها بعد الوقعة النيل من تبصر على ، ومن قدره السياسى إن لم تكن ستاراً حاجزاً يخفى خلفه هذه الخيانة التى قارفها دعاة التحكيم فإنما ضاره رفاقه . حفنة منهم لها حول ، وفيها نزغ ، ومن مواضيها القديمة انبثقت الإحن والشكوك والغيرة ، ونظائرها من النوازع النفسية ، انبثاق القيح من القروح ! . وما كان للعامة فى جيشه عند ذاك إلا أن يتابعوا خاصتهم وقد رأوهم اللحظة — والأسنة حواصد — يدعونهم إلى كتاب الله كما طالما ردد الإمام . . .

فكأنى بعلى قد شفت له الأنفس المغشوشة عن دخيلتها ، فسبق بذهنه ضعفها وترددها ، حينما حث قومه على الصدق عند اللقاء ، والجد فى المناجزة ، والتشبث بحقهم أن ينفرط منهم عقده إذا مسهم ضر . أو جنحت طائفة من النفوس المستريبة لخور . . . يحضهم وقد مارى معاوية ورجاله ، وحادوا حيادا عن دعاء السلام :

« لا يكون هؤلاء بأولى فى الجد فى ضلالتهم منكم فى حقكم وطاعة إمامكم . . . . . »

ثم يتلو عليهم :

« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا ، إن الله مع الصابرين . »

فإن يكونوا تنازعوا من بعد وهان أمرهم عليهم ، حتى غدوا وقد أضلهم عنادهم ، لا يعرفون الحق كمعرفتهم الباطل ، ولا يبطلون الباطل كإبطالهم الحق . وحتى بلغ من جحودهم ومن كنودهم أن بات على وهو الغرض الذى أوشكوا أن

يرموه بالنواصل ، ويطأوه بالمناسم . . . وحتى ذلوا كذلة الساعة فرد لو صارفه بهم معاوية واحدا من رجاله بكل عشرة منهم — إن يكونوا قد لجوا فى العمى والجهالة ، وأخذتهم الغفلة — وهم الأعلون — فسهم الوهن ، وحصبتهم الفرقة ، وتداعى اجتماعهم تداعى الرداء الخلق مزقته الخروق ، فما انفراجهم حينذاك عنه إلى رجع نزعات أنفس مريضة مال بها عن الجادة خيال ذهن ، أو ضيق عطن ، أو غرور حمق ، صورت لهم جهلهم معرفة ، وغفلتهم حكمة ، وعماهم بصيرة . . .

وندع الذى يكنه الزمن فى ضميره إلى ساعاته . . . فالحوادث وشيكة أن تسير فى طريقها المقدور . والمحن تهم أن تتلاحق يأخذ بعضها بذيل بعض كإبل القافلة ... فإن هى إلا أيام ثم يسفر الصبح الذى ننتظر إقباله — وما ارتجينا ! — كئيب الطلعة ، علية غبرة أعلمته فى الأعصر . . .

* * *

ومضى المحرم . .

مضى بالأمل والرجاء وحلم هانىء رلود الخواطر وخالج القلوب ببشراه حتى أوشك السلام أن يكون بعض خفقها الرتيب . . .

وحل صفر . . .

لم هلاله فى سمائه ، والنفوس مشحونة بيأسها وهمها وشكها فى لياليه ، حتى رأته كالجذوة الكفيلة بإرسال شررها على الأنام ، وملء الدنيا بسحب الدخان ولظى الحريق . . .

النهار ينسلخ من نوره . الشمس تنحدر نحو العتمة بقايا الضياء القرمزى الذى يسكبه الشفق يغمر جانب الأفق بألسن حمراء متقدة تشيع فى القوم العرق والفتور ... فالصيف فى أوجه ، وحره يلفح الخضرة فتذبل ، ويلمس القطرة فتجف ، ويلوح البدن بمثل سمرة السنابل . . . حتى فى هذه اللحظة التى سرحت خلالها ظلال الغروب ، ولف ثوبها الأغبر الساحة ، وخطر الجند فى غواشيها كالأشباح لا تتبين الأعين منها خطوط اللامح ، كان الهواء أنفاس ثكلى محزونة ! . . .

ومن بين أطياف العتمة الوليدة . انطلق مرثد بن الحارث الجشمى ، تزاحمت على ردائه الناصع غبرة الغسق ، وحمرة الشفق ، ونقع الرمال الذى نثرته نسمة الليل ، يوسع الخطا وهو ساكن الجأش جامد القسمات ، كأنما يسر همه عن محياه ! . فلما غدا على مسمع من معسكر عدوه ، تحدث شجوه على ملامحه ، وعلا صوته يملأ الفضاء والسماء :

« يا أهل الشام ! . »

وكان الصدى يردد وراءه :

« يا أهل الشام ! . . »

إن أمير المؤمنين يقول لكم : إنى قد استدمتكم ، واستأنيت بكم ، لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه . واحتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه ، فلم تتناهوا عن طغيان ، ولم تجيبوا إلى حق . . . والله ما كففنا عنكم شكا فى أمركم ! ولا بقياً عليكم . . . وإنما كففنا عنكم لخروج المحرم — ثم انسلخ ! . .

يا أهل الشام ! . .

« إنى قد نبذت إليكم على سواء . . . إن الله لا يحب الخائنين . »

وترك فيهم نذيرا راعدا رددته الفلاة ، هز القفر ، وحرك الماء ، ورج دويه السمع والفؤاد . مضى جمعهم يقلبه بين جد وحيرة ، وبين وجل وأمل ، وبين ندم على الوعد الذاهب ، ورهبة للوعيد القريب . . .

وعند ما آب مرثد إلى معسكره ، كان الإمام قد قام فى رجاله يدور عليهم بمنازلهم : يحثهم ، ويهيئ صفوفهم ، ويعقد الألوية والرايات . . . الليلة بطولها لم يزرهم النوم . إنما عنوا لأمره وهو ينطلق بينهم كالنسمة السارية ، من جانب إلى جانب ، ومن قوم لآخر ، لا تكل حركته . . . حتى إذا بدا لهم خيط الفجر فى ناحية المشرق ، كانوا كتائب مرصوصة ، تخفق أعلامهم ، ويلتمع سلاحهم فى ضياء النهار . . .

ووقف بينهم يبصرهم . . . ما من مرة مثلها تواقفوا والسيوف شرع ، والحتوف دانية ، وإلا أخذهم فيها بمناهجه ، وحثهم أن يستمسكوا بسنة الفروسية ، وشريعة النبل والمروءة :

« لا تقاتلوا القوم حتى يبدأوكم ، فإنكم بحمد الله على حجة ، وتركـكم إياهم حتى يبدأوكم حجة أخرى لـكم عليهم . . .

فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مدبرا ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تـكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل . . .

فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سترا ، ولا تدخلوا دار إلا بإذنى ، ولا تأخذوا شيئا من أموالهم إلا ما وجدتم فى عسكرهم . . . ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضـكم ، وتناولن أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف القوى والأنفس والعقول . . . . . . » .

غير أن القتال لم تتأجج ناره وتعلو هجيره عقب هذا النذير . انتهى حقا ترفق الناس بالناس ، وسياسة الموادعة واللين ، والاغترار بالرجاء والألفة . ولـكن صفر شهدهم مرة أخرى ، كما شهدهم قبله ذو الحجة ، يقدمون الحذر ، ويؤخرون الشدة ، ويجعلون على نفوسهم رقيبا أن تغلو فى خصومتها غلوا ينجب الفناء ويجتث منهم الأصول والجذور . إنما حركوا الألسنة فى أكفهم بمقدار ، يجتزئون بهذه الفرقة لهـذه الفرقة ، وبذلك اللواء لذلك اللواء . لم يصطرعوا كافة ، لم يحركوا الرحى الحاصدة كرحى هواها لتطحن الثمر والزهر والبراعم ! . .

عشرة أيام تقضت عليهم وهم بهذه الحال . من ثانى أشهر العام السابع والثلاثين للهجرة ، من صبيح غرته ، فى ذات الأربعاء . . . وكان العراق فى الحلبة نصف الشام . هان دونها عدة ، وإن لم يهن عليها قدرة وشدة . وكان أجناده قد استووا على القدم والأهبة . صفوفا متراصة : أحد عشر ، تقابل مثيلاتها من كتائب العدو ، ويواجه الصف منها قرينا يضم من أهل بطنه أو قبيله أو عشيرته من دفعته الخصومة إلى اللياذ بمعاوية . فإذا تنادوا بينهم بالنجاز ، انبرى الصف للصف ، فالتقى الأهل . يحارب الولد أباه ، والأب ابنه ، والأخ أخاه . . . الجياد تجاول . والفوارس تصاول والرجالة تنازل ما وسعهم صبر اليوم ، ثم لايكاد يحمزهم البأس وتحفزهم الوقدة حتى يتراجع الجمعان : كل فرقة إلى صفوفها ولما يقاربوا النصر أو تقارعهم الهزيمة . .

فـكأن النفوس كانت ما تزال تختزن — حتف لددها — بقية من حرص على الدم ، وطمع فى السلم ، فى كلا العسكرين كانت الرغبة فى تلمس الأمن والأمان

كالجذوة الحمراء تحت الرماد . . . حتى الأشتر عند ما قاد أولى الكتائب . في أول وقعة ، في أول يوم لم يمض بعنفه إلى مداه أو إلى عتمة الليل . . . وحتى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص . . . وحتى ابن عباس أيضا طاول جهده إلى الظهيرة . . . .

ولم يكن هذا منهم شكا في هدف . ولا قعودا عن غاية . ولكنها كانت حينذاك طبيعة القتال الذى يمسكه الحرص على الدم ، وتمنعه الخشية من المهلكة أن تجمح أداته إلى صراع موصول يأكل الناس بغير رخصة أو تحرز . وهى كذلك حال المعارك في ذلك الزمن ، تسير بمقدار ، هينة رخوة ، أولها شرار ، وآخرها دمار ونار . . . ومع هذا فلم تكن كلها مناوشات تجتلد فيها السيوف ساعة ثم تسكن . بل قد غلبت على بعضها سمات الوقائع الجادة التى يبدؤها اللقاء والكر وتختمها الهزيمة والنصر . . . وها هو عمار . حينما تئين نوبته ، يندفع إلى الغمرة وهو على بينة ، ويخوضها على متن عزمه ، فلا يكاد حسامه ينشرع في يمينه ، وصفوفه تستوى أمامه ، ورجاله وفرسانه ينصتون له ، حتى يراها حرجة للجهاد ، ليست غارة موقوتة للمصاولة والجلاد . . .

ويهتف الرجل بجمعه ، وإن شوقه إلى الكفاح ليتألق على ملامح وجهه المضيم المعروق :

« يا أهل الإسلام . . . أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله ؟ — ألا إنه معاوية ! . . فالعنوه لعنة الله . وقاتلوه فإنه ممن يطفئ نور الله . ويظاهر أعداء الله ! . . . »

وعندئذ يهمس له امرؤ من رجاله :

« يا أبا اليقظان . . . ألم يقل رسول الله : قاتلوا الناس حتى يسلموا فإذا أسلموا عصموا منى دماءهم وأموالهم . . »

فيجيبه حازم الرأى قاطع النبرة بغير إمهال :

« بلى ! . . والله ما أسلموا ، ولكن استسلموا ، وأسروا الكفر حتى وجدوا عليه أعوانا . . . »

ثم يشد بفريقه شدة الواثق المطمئن على صف عمرو بن العاص . لا رخصة تردہ ولا رهبة تثنيه . كطفرة النمر ينطلق . كثورة السيل . كهبة العاصفة ! . . فلا يزال يخوض المنايا إلى عدوه — والمنايا حسيرة ! . . — حتى يحصد، فيقتل ويثخن وتتداعى أمامه المقاتلة كالبناء المنهار، تنفرج عن صاحبها، وتكشف عنه كشف الرداء الخلق عن عورة ! . .

ويتلفت عمرو . . . الصبر مزق ونثار . المنعة نسيج عنكبوت . المنافذ إلى الحياة مسدودة ! . . وفي غير ونى أو تردد يستجمع الثعلب المغلوب بقايا أجله، ويصوغ من فزعه جناحين، ثم يروغ — فالفرار أمن، والهرب سلامة ! . .

١٠

ليست هجمة ابن ياسر وقعة فصل كتبت الخاتمة أو حسمت النزاع . كانت غارة بدأها كر، وختمها نصر، وتلتها بعد ذلك معارك جادة، إن لم تكن قضت في الأيام القلائل الباقية على خصمه القضاء الأخير، فقد صاغت الحروف التي تؤلف الهزيمة . . . كانت ضربة عنيفة سددتها إلى العدو دعوة حارة إلى الله، وغضبة دون لدينه، وتهمة ألصقت الكفر والضلالة — دون ريث ولا تحرج — بصاحب الشام . . .

كانت حملة صدق وصبر، لم يقف بها عن بلوغ غايتها نصب المقاتلة، أو حذر المصرع . أو انحراف النهار . وكانت أيضا معركة دعوة، سل فيها عمار سلاح العقيدة يلوح به، ويهزه مشحوذا قاطعا في وجه غريمه، كهزه القناة والرمح فما معاوية بخصم سياسي حين يرد الخلاف إلى المبادئ لا إلى الأهداف . ما هو بمسلم وإن استسلم . ما هو أليف إيمان . إنما قهره على المدى — بل الطاعة — خوف الحتف وشفرة السيف، والجزيرة حينذاك تجثو على ركبتيها طوعا وكرها أمام شوكة محمد، وتخفض الجباه لله . . . وما حزبه الذين يظاهرونه اليوم إلا على نهجه، لفهم بنزغه، وطواهم كطيك السجل للكتاب في غلاف زيفه وزيغه . إن أضلتهم الغفلة فمعذرة لا تسعها مغفرة، وإن فتنتهم الدنيا عن الآخرة

فتنة إلى حين ، ظلها زائل ، وعهدها حائل ، ومجدها خيال . . . والنفوس التى عنت له ، لم تغض منها كلها ينابيع الخير . فيها بقية ترعى الله . فيها قلوب تقشعت أكنتها ، كما انجاب الغيم — من هبة الريح — عن صفاء السماء . فيها أعين كشف الحق عنها غشاوتها فأبصرت النور . . . وعندما تسلل شمر بن أبرهة من معسكر معاوية ، فى طائفة من قراء أهل الشام ، فلحقوا بعلى ، كان ندمهم نذيرا زلزل على الباطل العاصى غروره ، وأوشك أن يذيقه التخاذل . .

وقال له عمرو :

« يا معاوية . . . إنك تريد أن تقاتل بأهل الشام رجلا له من محمد قرابة قريبة ، ورحم ماسة ، وقدم فى الإسلام لا يعتد أحد بمثله . . . إنه قد سار إليك بأصحاب محمد المعدودين ، وفرسانهم وقرائهم وأشرافهم ، ولهم فى النفوس مهابة . فبادر بأهل الشام مخاشن الوعر ، ومضايق الغيض . واحملهم على الجهد ، وأتهم من باب الطمع . . ومهما نسيت فلا تنس أنك على باطل ! . . »

لكن معاوية كان أقدر من خدينه على معالجة الموقف ، ومعاجلته بما يصلحه . فليس الجاه هو الذى يرد وحده إليه النفوس الشوارد ، والقلوب التى غدت تتذاءب اليوم بين دعوة باطل ، إن تكن مجزية فهى مخزية ، وبين دعوة حق تطيب لها الضمائر النقية ، وإن تأجل لها عن الحياة الجزاء . . ليست الدنيا هى التى تفتن المتشبث بآخرته . . ليست المنافع سبيل أصحاب الأنفس التى عليها من خشية ربهم حارس ومن إيمانها الخالص رقيب . إنما الدين وحده السبيل . التلويح به طلاؤه يمحو ويستر الأباطيل ! . .

وكذلك وقف معاوية فى أجناده ، على لسانه منطق التقى الخاشع ، وفى دخيلته نزغة المضل المخادع ، يقول بفيه ما ليس بقلبه :

« أيها الناس . . أعيرونا أنفسكم وجماجمكم ! . . لا تفشلوا ولا تخاذلوا ، فإن اليوم يوم خطار ، ويوم حقيقة وحفاظ . . إنكم على حق ، وبأيديكم حجة . إنما تقاتلون من نكث البيعة ، وسفك الدم الحرام ، فليس له فى السماء عاذر ! . . »

حتى ابن العاص قد ذهب أيضا يحاول امتشاق نفس السلاح الذى سله عليهم عمار . إنه خشى فتنة قومه ، وربما فتنة عدوه ، فتراءى للناس بين الجمعين وقد

رفع رقعة سوداء فى رأس رمح كانت لواء عقده له ذات يوم رسول الله . فلما امتدت إليها الأعين . ولغطت بأمرها الألسن ، وحسبت فئة أنها علامة أدنت الرجل إلي الهدى . وبعدت به عن الريب فيه ، بادرهم الإمام يحذرهم الفتنة :

« هل تدرون ما أمر هذا اللواء ؟ . . »

قالوا له :

« هذا لواء عقده له رسول الله . . »

فأجابهم على :

« إن عدو الله عمرو بن العاص أخرج له رسول الله هذه الشقة فقال : (من يأخذها بما فيها ؟ ...) فقال عمرو : (وما فيها يا رسول الله ؟) . . . قال : (فيها ألا تقاتل بها مسلما ، ولا تقربها من كافر) . . . فأخذها . فقد والله قربها من المشركين . وقاتل بها المسلمين . . . »

ثم رفع وجهه إلي السماء ، وأصبعه تومئ إلى قبة الماهل المتمرد المشاق ، وجأر بقسمه ودعواه :

« ... والذى فلق الحبة . وبرأ النسمة ما أسلموا ولكن استسلموا ، وأسروا الكفر ، فلما وجدوا أعوانا رجعوا إلي عداوتهم منا — إلا أنهم لم يدعوا الصلاة ! . »

واهتزت أنفس وترنحت خواطر ... الرأى ينقلب لنقيضه . الثقة تتزلزل وتنهار . الشكوك التي راودت فى معسكر الشام فئة ممن لم يبيعوا بعد قلوبهم للشيطان ، غدت يقينا باسق الفروع ، ثابت الأصل كجذور الدوحة . . . وكان عمار هو الذى حرك البركة الراكدة ، ورج ماءها الآسن الثقيل . وكان عزمه وصدقه وإصراره على الثبات فى الميدان حتى ينتزع النصر من عدوه ويثبيه عليه الهزيمة ، هى النواة التى أطلعت فى نفوس أقرانه من رجال الإمام زهرة الصبر ! ... فما مسح عن جبينه عرق الحرب ورهق النصب عندما غرب يومه ، حتى نشط أصحابه مثله إلى مواطن اللقاء يطلبون النزال ، ويتعجلون الآجال ، وينشد الرجل منهم الغلبة أو الشهادة ...

وحميت الوقدة . كل واحد من رفاق الإمام وخلصائه كان له فيها دور ، وله حملة ، وله جولة أدته ساعة من الظفر وساعة من الموت ... حتى ابن عباس

قد خرج إلى القتال مخرجه ... وحتى ابن على : محمد بن الحنفية . فلقد غدا القتال دولة بينهم يتركه كابر ليلقفه كابر ، كأنما القوم يحرصون على اقتسام شرفه بقسطاس ! ... بل الإمام أيضاً أوشك أن تدفعه النجدة إلى الغمار ، يقتحم عليه حرمه ولما يلتق الجيشان فى وقعة جامعة . فما هو أن قام عبيد الله بن عمر يتحدى محمدا ويدعوه : « أن اخرج إلى ! » حتى أخذه شغفه القديم بالمناجزة ، فنخس دابته إلى المدل المفتون :

« أنا أبارزك فهلم إلى ! ...

فبغتت الدعوة عبيد الله ، وبددت شجاعته ، وغاض على الأثر ماء اعتداده وزهوه . فإذا محياه يشحب . وإذا فرسه تستدير لتدبر . وإذا رمحه فى يمينه يسترخى كالسوط ! ...

وهمس الفتى وهو ينأى بعمره :

« ليس لى فى مبارزتك حاجة .. »

وعتب محمد على أبيه :

« منعتنى من مبارزته ! ... فوالله لو تركتنى لرجوت أن أقتله . . . »

فابتسم على بسمة نضحت بحنانه وقال له :

« لو بارزته أنا لقتلته . ولو بارزته أنت لرجوت أن تقتله ، وما كنت آمن أن يقتلك ... »

لكن الحسرة لإفلات الفريسة الفارة دعت محمدا أن يراجعه :

« أتبرز بنفسك إلى هذا الفاسق اللئيم عدو الله ! ... والله لو أبوه يسألك المبارزة لرغبت بك عنه ! ... »

وعندئذ زجره الإمام ونهاه :

« يا بنى لا تذكر أباه ولا تقل فيه إلا خيرا ! ... يرحم الله أباه ... »

* * *

غير أنها — فترت أو استعرت — كانت كلها مناوشات لم تعل بأى الفريقين عن مواقعه ، ولم تنل منه إلى الغاية التى تكتب عليه الخذلان ... كانت تجربة ! .. هكذا يشحذ الهمة ! ... نارا تصقل الصبر والعزم ! . . وحين لاحت الثمرة المريرة

جنية ، لم يكن هناك معدى عن اقتطافها ، ولوك لبها وقشرتها ثم انتظار كلمة القدر ! ...

وغدا الناس — ذلك اليوم الذى استنهض فيه معاوية أولياءه باسم الدين — والإمام بين أصحابه ، قد غلبت على محياه عبسته ، وتحدث الجد فى جبينه وعينيه ... فأصغوا له :

« حتى متى لا نناهض القوم بأجمعنا ؟ ... »

ولم تبارحهم الشمس ، أصيل يومهم وفى أدانى غروبه ، حتى رأوه متوكئاً على قوسه ، محيطة به الصفوة الباقية من أصحاب الرسول ، وهو يخاطب جموع المقاتلة والفرسان من جنوده :

« أيها الناس ...

اسمعوا مقالى ، وعوا كلامى !

إن الخيلاء من التجبر . وإن النخوة من التكبر . وإن الشيطان عدو حاضر يعدكم الباطل ... ... شرائع الدين واحدة . وسبله قاصدة . من أخذ بها لحق ، ومن تركها مرق ، ومن فارقها محق ...

ليس المسلم بالخائن إذا اؤتمن ، ولا بالمخلف إذا وعد ، ولا بالكذاب إذا نطق . ونحن أهل بيت الرحمة ، وقولنا الصدق ، وفعلنا الفضل . منا خاتم النبيين ، وفينا قادة الإسلام ...

ألا وإن من أعجب العجائب أن معاوية بن أبى سفيان الأموى وعمرو ابن العاص السهمى أصبحا يحرضان الناس على طلب الدين بزعمهما ! . . وقد علمتم أنى لم أخالف رسول الله قط ، ولم أعصه فى أمر قط . أقيه بنفسى فى المواطن التى ينكص فيها الأبطال ، وترعد فيها الفرائص : نجدة أكرمنى الله بها ، فله الحمد ...

أيها الناس . .

وايم الله ما اختلفت أمة قط بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها إلا ما شاء الله . . . »

فرجف عمار . . .

لقد كان الشيخ الجليل ذا بصيرة نفاذة تستطيع أن تبلغ من اللفظ مدلوله الخفى الذى يتسلل إلى اللب ولا يطرق المسامع . فلما انتهى الإمام من قوله ، زلزله ختامه وأحزنه ، وخد فى وجهه الهزيل خطوطا أعمق مما حفرت أصابع التسعين ! . . .

وهمس الرجل للذين حوله وهو مهموم :

« أما أمير المؤمنين فقد أعلمكم أن الأمة إن تستقيم عليه أولا ، ولن تستقيم عليه آخرا ! . . »

وسجل القدر ! . . .

١١

فى معسكر معاوية ، ساد الهرج ، وشاع الهمس ، واضطربت النفوس والأنفاس حين حملت إليه نسمة الصبح نذير الحرب ينادى به عليهم منادى الإمام :

« يا أهل الشام ! . . اغدوا على مصافكم . . . »

ومضت الصيحة . وكان صباح كالليل ! . . .

كان اليوم غرة الأربعاء . . . الشمس تدرج فى مهدها البعيد عند حد المشرق . خطاها وسنانة . نهارها يحبو على خيوط الأهمة . سناها تصبغ السكون أطيافه . . . وكان دفؤها رطيبا كريح الشمال . رفيقا كقطرة الطل . رقيقا كأوراق الزهرة ليس فيه من وقدة حامية تنبئ بهذه الشعلة التى ستجتاح الموقع عندما ينتهى البكور . . . وكان أفقها من عسجد ولازورد ولجين ، نقى الصفحة كقلب الوليد . لم تشبه الحمرة القانية التى لن يلبث أن يعكسها على صفاته مكان الحومة حينما يبله الدم ... السلام على الأرض ، والهلاك فى الخاطر . وهذه الهدأة التى لفت الميدان ساعة البكرة بستر السكينة ، كانت غشاء خادعا ، كسطح الماء فى المحيط ، يخفى تحته اصطراع الحياة والموت ، العسف والقوة ، جواهر الحقيقة وأصداف الزيف ! . . فما من سنة الطبيعة أن يتوافق ضدان ، ويأتلف نقيضان . . .

ظهرت المنايا وبرزت الأحيان ! . . الآن توشك الرحى أن تدور . الوغى الحاصدة تتربص وتشحذ الظفر والناب . الأرواح توافقت على مخارج الجروح . والمفاتيح : رءوس الأسنة ومشافر السيوف ، فى يد القدر ، تهم عدها فتفتح بها محابس الدم ، ثم تدعه والانطلاق ! . . .

عشية الأمس خطب على رجاله :

« الحمد لله الذى لا يبرم ما نقض . ولا ينقض ما أبرم .. لو شاء ما اختلف اثنان من هذه الأمة ولا من خلقه ، ولا تنازع البشر فى شىء من أمره ، ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله ... ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال ، وجعل الآخرة عنده دار الجزاء والقرار ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . . . »

ثم رزق رقمة البقيا وأعلن الجد فى الشدة :

« . . . ألا إنكم لاقوا العدو غدا . . . اسألوا الله الصبر والنصر ، والقوهم بالجد والحزم ، وكونوا صادقين . . . »

ومضى بيهم . طوال ساعات تلك الليلة الفاصلة راح يعدهم للصراع الخطير الذى سيسفر النهار عنه ، فيكتبهم ، ويسوى صفوفهم ، ويقدم دارعهم على حاسرهم ، ويعدهم للقاء ربهم بالشهادة فيحصن نفوسهم بذكره ، ويطيل وإياهم القيام ، ويتلو القرآن ...

وعندما برح الليل . وانقشع سواده انقشاع الغمامة ، وأقبلت من المشرق طليعة النور ، دعا عدوه للنزال ، فليس يرضى أن يأتيهم من غرة ، وما من طبعة مباغتة غافل ...

وعندما صاح داعيه ، ودوى فى الهدأة نذيره ، أصبح معاوية وجنوده على بينة ...

ومع ذلك فقد شاع فيها الهرج ، وسرى الهمس ، واضطراب نفس وأشفقت نفس ... الأفئدة فى صدورها توائبت . والقلوب فى مقارها ارتجت . لا بقيا بعد ، لا هوادة اليوم فقد مضت فترة التجاوز الرخى التى حسبوها موصولة على

النهر والليالى ، ومطوها جهدهم ليسأم على مقامه ، ويثلم سيفه ، وتفتر عزائم رفاقه عن القتال ...

* * *

وهتف صاحب الشام فى عجلة ، ولما تنفض النوم أهدابه :

« أين الجند المقدم ؟ ... »

فخرج له أبو الأعور السلمى على كتيبة

ثم هتف ثانية ، وقد ثبت قليلا لحظ عينيه :

« أين أهل الأردن ؟ . »

فجاءوا يسمعون . . .

ثم هتف ثالثة ، وقلبه ركين كالصخرة :

« ... وجند الأمير ؟ . . »

وما فتىء يهتف والكتائب تأتيه ، كتيبة كتيبة ، وفرقة فرقة ، فى سلاحها وأدراعها ، وعلى ألويتها وراياتها : جموعا غفيرة تشد عزمه وهمته يذوق نصفها كل أعدائه ...

وحينما غدوا على أهبة ، وجال بين الصفوف ينظر ، ويجم القدر ويسبر الغور ، لم تهزه فيهم بادرة من بوادر الخور والتخاذل . . . فقد ذهب عنهم الروع ، وانجاب الهرج الذى أشاعته بغتة الدعوة . الثقة فى القلوب ، والعزيمة على الملامح . فما بهم هياب . ولا هم بأحلاف جبن ، وإن شطحت بهم منازع الهوى وحملتهم بعيدا عن الجادة . وعند ما بان الجد ، انبرت فرقة إلى معاوية فبايعته على الموت ، وأخذت نفسها بالذود عنه ، أو تتخطف رءوسها المصارع . فإذا بهم يطيفون به ، ويبنون حوله سياجا ساترا : خمسة صفوف كأنها قلعة حصينة ذات أسوار ، إن انثلمت فى سور ثغره . سارعت صدور من الذى يليه تسدها بالقلوب والجماجم ! . . فهو بها فى جنة غير مخروقة . عزيزة على الهجمة والغارة ، منيعة على الإقدام والجسارة ، لا تنفرج عنه إلا أن تشقها جميعا المنية ... وعند ما تواقف المقاتلة ، وتهيأوا لخوض الحومة أقبلت « عك » تهزها حميتها فتعاقد رجالها على الصبر كالأوتاد فوق أرض الموقع . وجاءوا بحجر فوضعوه بينهم ، ثم تهاتفوا بلسانهم الذى كان يبدل الكاف بالجيم :

« لا نفر حتى يفر هذا العسكر ! . . »

وقد صدقوا وعدهم وكانوا رجال صبر ، لهم فى سجل البطولة أقدار مسطورة وصحائف مسجورة ، يعصف الفناء بهم فلا يرعون ، ويحيي فينثنى ولا ينثنون . كأنما سمروا أقدامهم فى مواطئها ، وحالفوا الموت والثبات ! . .

على أن هذه العزائم الجبارة لم تكن بالتى تلهى معاوية ورفيقه عن تلمس الحرص والتشبث بأسباب الحذر والحيطة . فما إن تواقف الجمعان على أهبة تهفو قلوبهم إلى التحاجز قبل اشتباك الأسنة ، حتى تذاكر الرجلان الأمر ساعة أفضت بهما إلى وجوب تنظيم الجيش على أسلوب مغاير ...

وقال العاهل لصاحبه :

« فما الرأى ؟ .. »

قال عمرو بن العاص :

« قد عرفت ما بيننا من العهد والعقد ، فاعصب هذا الأمر برأسى »

« إنى أفعل » .

« وأرسل إلى أبي الأعور فنحه عنى ودعنى والقوم ... »

فسرح معاوية صاحب مقدمته عن موقع ابن العاص إلى غير بعيد ، على تل :

« يا سفيان . إن لأبى عبد الله رأيا وتجربة ليست لى ولا لك . وقد وليته أعنة الخيل فسر ... ودعه والقوم ... »

وأقبل عمرو بعد ذلك على واجبه ، ينظم ويغير ويرتب صفوف المقاتلة من فرسان ورجالة ، حسبما رأى بنظرة القائد الذى صقلته تجربته ومرسته الحروب ... وكان يعينه على أمره ابناه : عبد الله ومحمد . فالعدو الماثل حياله عنيد ، على الذكر فى مجالى الطعان ، يرمى عن القدر والمنية ! .. والجنود الذين يظلهم لواؤه ، أقدموا لأمر أقصاه شهادة وأدناه نصر ! ... وعند ما تركوا خلفهم ديارهم التى نأت عن الضوامر الجرد والرواحل الشديدة ، كانوا قد ادرعوا بالإيمان ، وتحصنوا بالخطة ، وإن قل نفرهم وناصرهم . فليست تغنى فى لقائهم ساعة الحومة حشود ككسف الليل لا ينتظمها نهج محكم يسدد خطوها فى القتال ...

وقال عمرو لولديه :

« إن هؤلاء قد جاءوا بخطة بلغت السماء ! .. قدما لى هذه الدرع ، وأخرا عنى هذه الحسر ... »

فمضيا ينفذان ...

ثم راح يمشى بنفسه بين الزمر ، فغير وبدل ، وأقر وعدل ... فلما أحسن الصف والتسوية ، وطاب خاطرا بما فعله ، أقام لنفسه منبرا بين جيشه فى موقع يشرف منه على المكان ، ويحرك وهو فيه أجناده إلى خطوطهم عندما يدوى النفير . ويتسعر السعير ... وإنه ليأمر فتطيف به جحافل من اليمن ليكونوا فى جنة مانعة ويكونوا حوله كأسوار القلعة ، لا يخلص من خلالهم إليه حاسر أو دارع ، ولا يستطيع امرؤ أن يرومه بشر :

« لا يقربن هذا المنبر أحد إلا قتلتموه كائناً من كان ! .. »

كذلك دبر ، وكذلك فعل . غير أنها حيطة لم تكن كلها لوجه النزال . ولا بدافع من حرصه على التفوق واحتلاب راية النصر من ابن أبى طالب الرابض لهم على قيد الخطوة كأنه الليث يترصد الفريسة ! .. فما هو بغافل عن حقائق الحال : لغيره الظفر إن هو ظفر . ولغيره الثمرة إن هو غرس ، ثم سقى ، ثم اقتطفها وهى جنية شهية من سياج الأشواك ... إنه عبد طبعه ! .. إنه عمرو !. وحين يفى فليس وفاؤه وليد شغفه بالخلال الكريمة ، ولا صدى لطبيعة نقية قويمة أو سجية سوية سليمة ... كلا ، لا يهزه النبل ، ولا يهيم بالأريحية ، بل النفع وحدة هدفه ومرماه . الوفاء عنده له شرطه ، وكل جهد على قدر ثمنه ، والمحامد كلها مطايا لغايته ، كأنها فى جعبته سلعة يبيع منها بمقدار ! ..

هكذا بدا ذلك النهار ، وأمسه أيضا ، وبقية عمره على السواء . لم يتحيف على طبعه ، ولم ينحرف عن طريقه المرسوم الذى شقته نفسه المنهومة أبدا بجاه الحياة وزخرف السطوة ، فما همس برأى . ولا أدلى لصاحبه بمشورة ، ولا أشار بكلمة تكشف فرجة يستطيع معاوية من خلالها أن يستقبل القتال وهو آمن على مصيره إلا بعد أن أمن هو قبله على غايته التى رنت إليها أطماعه ... فلهذه الغاية قد جاء . ومن أجلها خاصم الحق ، وعنا للباطل ، ومال راضيا عن الجادة السواء ... من أجل الكسب والنفع والمآرب ! إنه ليصغى إلى معاوية فيميل

نحوه بكل سمعه ، ويشهد قلقه حين بغتته دعوة الحرب فيقلق له ، وينظر معه إلى جيشه وفيه ما فيه من اضطراب الخطوط وخلل المنازل فيهتم همه — ولكنه مع هذا كله يكتم الرأى عنه إلا بثمن ! ..

يشترط وقد استمانه معاوية :

« على أن لى حكمى ! ...

فيدهش العاهل :

« حكمك ؟ ... »

« نعم — إن قتل الله ابن أبى طالب ، واستوسقت لك الأمور ... »

« أليس حكمك فى مصر ؟ . . »

وعندئذ تنفرج شفتا المساوم عن بسمة لينة صفراء ، فيها تملق وجشع وسخرية :

« وهل مصر تكون عوضا عن الجنة ؟ ... وقتل ابن أبى طالب ثمنا لعذاب النار ؟ ... »

فلا يراجعه صاحب الشام ، إنما يحذره نقلة المقالة إلى الآذان المتربصة للمآخذ ، ثم يمنيه :

« رويدا لا يسمع الناس كلامك ! ... ولك حكمك أبا عبد الله ... »

وما رآه أسرف حين منى ، ولا مولاه شط عندما تمنى ، فإنما هى حلبة بحلبة ، وعطية بجهد ، وسلعة بدينار أو دنانير ! ... ومن يطلب الحسناء يرخص المهر ! ...

أما على فقد صف على الأهبة رجاله ، كلهم راغب فى القتال مشوق له ، يكاد يسبق إليه أجله . فلما أن توطأت لهم مواقعهم ، وحشدت الكتائب ، وخفقت البنود ، صاح بهم يحرضهم :

« ... إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص . فسووا صفوفكم كالبنيان ... قدموا الدارع ، وأخروا الحاسر ... أميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل . والتووا فى أطراف الرماح فإنه أمور للأسنة .. وراياتكم فلا تميلوها ، ولا تزيلوها ، ولا تجعلوها إلا فى أيدى شجعانكم ، المانعى الذمار ، الصبر عند نزول الحقائق ، أهل الحفاظ ... ... »

لكن أرفع راية وأمنعها كانت فى يمين صاحب ميمنته : عبد الله بن بديل ابن ورقاء . ولم تكن فى يد راعدة هيابة . ولم تكن رقعة من قماش ... وعند ما خطا القائد بين الصفوف فى رجاله ، يخاطب منهم الروح والقلب والبصيرة ، علقت الأعين بذلك العلم الذى نسجه الله ، وابن بديل قد رفعه إلى مدى ذراعه ...

وسمعوه يقول :

« أنتم والله على نور من ربكم ، وبرهان مبين ... قاتلوا الطغام الجفاة ، ولا تخشوهم . وكيف تخشونهم وفى أيديكم كتاب من ربكم طاهر مبرور ؟ »

وهز فى يمينه رايته : كتاب الله ، ثم زأر ، ونظره يرمى إلى عدوه بنار :

« قوموا إلى عدو الله ! . أتخشونهم ؟ ... فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ... ... »

١٢

غلبته الرحمة ! . .

الجحافل التى استقبلت فى الوغى جنوده لم تنل من عزمه . حشودها التى غشت الأرض كالضباب ، وانتشرت عليها كأرجال الجراد ، وأخفت معالم البقعة عن الأعين ، لم تمس قلبه برهة ... كانت الثقة موطئه ، والطمأنينة ملاذه ، والإيمان بالنصر هو السلاح الذى تهزه يمينه . وعند ما دفعه النهار على موجة ، ورده الليل على موجة ، وراحت حركة القتال فى مدها وجزرها ، تقبل به حينا وتدبر به حينا على متون أمواج تليها أمواج ، لم يطف بباله أن يدرأ الهزيمة المخوفة بالصلح إذ الهزيمة لم تدر له مطلقا ببال ، ولكنه كان ينظر إلى حمية أعدائه ، وإلى اندفاعهم فى غمرة الموت اندفاعة السهم عن قوسه . وإلى جموعهم الكثيفة كسحب الشتاء ، فيحميه عن الرهبة إيمانه ، وعن الفرق يقينه ، ثم يغنيه عن الكثرة المدلة بوفرتها روح له رق أمامه ستر المجهول حتى ليراه ! . . إنما ذاق من مرارة القلق والوجيعة حينما كسرت قلبه هذه الحرب التى أخذت تأكل وهى

منهومة كل مقدس من الصلات يجله البشر ، وتهدم كل آصرة ، وتستبيح كل حرمة للنسب والقرابة . فلقد مضى اليوم كله ، وبقي من الليل أقله ، والناس كافة ، من فريقه ومن مناوئيه ، في حلبة كأنها غاب وكأنهم ذئاب ! .. حكمت بينهم شريعة القرون الأولى ، وطبيعة النسر والضيغم . يقتتلون كالوحش ، فينهش الرجل لحم ولده ، ويقطع الأخ جوارح أخيه ، وتسيل بينهم دماؤهم كالماء ! ..

وكان هو إبان الحومة يهتف برجاله كلما لاحت له من جانب العدو طائفة رفعت الأعلام وشدت القسي وهزت النبال وهي تبتدر للقتال :

« من هذه القبيلة ؟ .. »

فيقال :

« الأزد ... »

فيدعو إليه أزده ، ويأمرهم :

« أكفوني الأزد ؟ »

ثم يسأل :

« من القبيلة ؟ ... »

فيخبره قومه :

« خثعم ... »

فيقول لخثعم التي معه :

« أكفونيهم ! »

فأكلت العرب نفسها ! . جزت عنقها بيمناها وهي تنقاد للحمية ، ودعوة الدم ، ذلك اليوم من صفر في صفين ، وقد حمزها الطعان ...

ولم يكن عليه في هذا حرج ، فليس في الحرب حريجة . ولم يعد به طوره كقائد ، ككل قائد قدير راشد ، يستقبل الأكفاء بالأكفاء ، ويوفر الأهبة للغلبة قبل أن يحين اللقاء ... فمن قوسه يرمى السهم . وآفة الشيء من جنسه . وليس أعرف بهذه الفئة أو بتلك من بنيها ، الذين جمعتها وإياهم وحدة الطبع ، وحد الاحتمال ، واتفاق حيل القتال . . .

غير أنه لم يصغ فيهم لدعوة الخصومة كل الإصغاء . فالضغن داء داوى نفسه من بلائه . والصبر اليوم على الأسنة فناء ، والسلم بقاء . . فكأنه اطلع من

مكانه ذلك بصفين على الدخائل المكنونة فأشفق أن تبذر محنة الحرب بكل قلب بذرة ، ثمرتها مرة ، سوف يجنيها على الزمان قومه فتطعمهم الصاب وتشربهم العذاب ! .. إنه الغد ، أو بعضه ، أو سويعات قلائل من الذى يليه ، ثم يلتهب ثأر بكل صدر ، وينشق قبر بكل دار ، وتنعقد على الرءوس سحب الأحزان ...

وخاف على قومه الهلكة . وخاف القلة والذلة بعد الوفرة وعزة الجناب . وخاف أيضا على هذه الصلات ذات القداسة ، التى خلقتها الأصلاب . وربطتها الأنساب ، وجعلها الله كالحرم أن تضطرب بها زلازل المواجد ، ثم تتهاوى على الثرى صريعة ...

عندئذ غلبته الرحمة ! ...

وكانت نتيجة القتال فى أصحابه ، ذلك اليوم ، عدل عقباه فى عدوه ، لم تعل كفة النصر بأولئك ، ولم تشل كفة الهزيمة بهؤلاء . ومع ذلك فقد أهاب بأعوانه الذين خضبهم العرق ، وملكتهم الحمية ، وهاجهم لون الدم يدعو فيهم ، ونفسه تسيل رقة ، بدعوة السلام :

« من يذهب بهذا المصحف إلى هؤلاء القوم ، فيدعوهم إلى ما فيه ؟ ... »

فبهت الناس . وأرسلوا نحوه عيونا محلقة جامدة الجفون والأهداب ، تفرسته مليا دون أن تطرف أو تريم كأنها خواء ! . . سلبها قوله الحركة وسل منهم اللسان والبيان . ولولا مكانة له فى نفوسهم علية رفيعة ، تجل عن الريبة لأنكروه . . . .

ولكنه على عهده . على سجية السخى الكريم ، وطبيعة السمح الذى يقدر فيغفر ، ويملك فيسجح ، ويدين فيصفح . على شريعة القلب الذى فيضه حب ، وغيضه حب ، ووقعه صفاء ، ورجعه صفاء ، وسعه يحتوى البعيد والقريب ، والبغيض والحبيب سواء . . .

وأعاد الدعوة . . . أولئك الذين كانوا معه فى أرض البصرة ، من بضعة أشهر ، شهدوا له موقفا كهذا قبل أن يحرق الجمل ويذريه فى الريح . كرت الذكرى بهم إلى الموقع ، وإلى عدة وأجناد ، وصلف وعناد ، وجنوح إلى الهوى صرف عدوه هناك أن يصغوا إليه وهو يدعوهم الى كلمة الله فأبت نفوسهم إلا الغى

حتى تكفنوا بالعراء ! .. وإنه الآن لكأمسه ، على نفس دأبه وخطته ، يشاء أن يملى لخصمه الجديد ، ليقبس العظة من عقبى العصيان ...

ونهض إليه من بين صحبه غلام ، غض العمر كالزهرة ، وقد هزه النداء فاستجاب :

« أنا صاحبه ، يا أمير المؤمنين ...

ولم يلبه من الجمع سواه .

فلعلهم إذن قد خشوا غدرة العدو . أو لعلهم قدروا تأبيه وعناده . أو لعلهم أحيوا الأمس فى خواطرهم فآمنوا أنها قضية السلام الذبيح ! .. فما ينفع رفق ، ولا تجدى هوادة ، ولات حين اتفاق ...

ونقل بينهم عينه وبين الغلام ، فلم تتحرك لأحدهم جارحة ، ولم يهمس فم ، ولم تنم عن حياتهم إلا الأنفاس ...

ثم ألحف الفتى الطرى العود ، الصليب العزيمة :

« أنا صاحبه .. »

« فدونك ! »

وخلاه وقصده إلى صفوف الأعداء ...

* * *

لم يعد الراحل . كصاحب له قبله فتك به جنود البهيمة الذين كانت تقودهم عائشة ، ذهب هو الآخر إلى قدره ! .. كفه التى رفعت المصحف بترها البغاة . ونفسه التى هفت للسلام لفظتها جراحه . وعوده الأخضر قصفه الموت وما اكتمل ، وألقى به فى الرغام بجفة ! ..

وعندما أصبح الصباح ، وغابت عن المشرف الخطوط الدكناء ، وصحا السكون الذى ضاق ذرعه بحمق البشر ، طويت صحيفة ونشرت صحيفة ، فغفا الأمن ونام ، وطفرت الحرب إلى غايتها الحمراء ، شعواء مستعرة . تطأ الرحمة والرحم ، وتبذر الحزن والوجيعة ، وتحصد الحقد والثأر ! .

ونحى الإمام عنه بغله الذى كان يمتطيه ، ثم صاح :

« ائتونى بفرس ! ... »

فسمعوا الجد من صيحته ، وقرأوا العزم على محياه ...

الآن اختفى فيه الأريحى المهاود . رقد أخو السلم الذى يضن بالدماء أن تهدر ، وبالحرمات أن تباح ، وبالحياة البشرية أن تتخطف مثلها ، وتهدم تراثها زبانية الحديد والنار — رسب فى القاع ، وطفا على الأثر آخر ، مارد قوى جبار ، يفرق الرفق من هيئته ، وتهرب الموادة ، وتفر الأعمار ! ... الفارس الذى يركب الردى إلى أهدافه ، ويقتحم على الهول عرينه ، نفض عن نفسه نومه وقام كباشق الجبل حينما يطالعه النور ، هز قوادمه ، وحرك خوافيه ، وتأهب على القمة السامقة يذرع بعينه الأفق حتى تلوح الفريسة ! ..

وأتوه به أدهم كالليل ، له صلابة الرمح ، وخفة الفهد ، وسرعة العاصفة . أقبل معهم يخب على خيلائه . شديدا يقاد بشطنين ، متحفزا لا يطيق عرفه على جيده ، قلق المنزل يبحث الأرض بقائمتيه كأنما يضيق بالقرار ويتوق إلى طى المراحل وإثارة الرهج والغبار ! .. شثن الصدر فى غير ثقل ، ضامر البطن فى غير هزال ، ضخم العضلة نحيل القوائم . إذا حمحم فجلجلة ، وإذا صهل فزئير ! ..

وهدأت الدابة حينما لمسها ببنانه ، فتلا :

« سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ... »

وما استوى على الظهر ، حتى استقبل القبلة ، ورفع يديه إلى السماء فى ضراعة وابتهال ، وهو يناجى الله :

« اللهم إليك نقلت الأقدام ، وأفضت القلوب ، ورفعت الأيدى . وشخصت الأبصار ... نشكو إليك غيبة نبينا ، وقلة عددنا ، وكثرة عدونا ، وتشتت أهوائنا ، وشدة الزمان ... ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . وأنت خير الفاتحين ... أعنا عليهم بفتح تعجله ، ونصر تعز به سلطان الحق ... »

ثم هتف برجاله :

« سيروا على بركة الله .. »

فإن هى إلى سويعة حتى انطلقت المنايا من العقال ! ..

كان النهار لم يعل الضحوة حين تحرك الإمام ، يتقدم الكتائب المشوقة إلى

اللقاء ، المفتونة بالشهادة ، الغالية فى إيمانها بنصر الله . يتبختر به فرسه الأدهم وهو يحث الرمل فى تهاديه ، ويخط ذيله المترسل الطويل فى نقاه ... وكان هو على الظهر كقطعة منه . لا يرتج إن عدا الجواد ، ولا يتمايل إن تثنى وحاد . وجهه الوضىء يكسف النور ، ويكاد يبهر غداة الصباح ! .. على جبينه هدوء آمن ، وفوق ثغره وميض إيمان ، وطرفه الأدعج ارتخى جفناه ، والتفت أهدابه كأنما الوسن يناغيه ..

ليست هذه بهيئة حرب ! .. فالأدهم تحته يختال فى رقة ، ويتحرك بدلال ، ويرفع الحافر بمقدار ويضعه بمقدار ، كأنه يخطو على زهر ! .. ليست هذه بسحنة محارب ! .. فالوجه سكينة ، والعين هدوء ، والثغر صفاء ... الطمأنينة التى نقبت محياه لا تشى بجبروته . ملامحه دعة . لمحاته فيض دافق من السلام عذب الينبوع ! .

غير أن جسده الذى استوى على جواده ، ولصق به لا يريمه ، كان يوحى بالرهبة .. فكالصخرة كان . له جهامة الصوان ، وخشونة الجلمود . وهذه المسربة التى امتد شعرها الكثيف الغزير بين بطنه وصدره بدت كأنها شظايا الصخور ! .. وإن كفه لتنبسط فتلوح كالرحى الحاصدة . وإن كتفه لتميل حين يتلفت فإذا عظامها مشاش ليث ! .. وما يبين فى ذراعه عضد من ساعد ، فكلاهما استوت ضخامة وتكافأ صلابة ، وأدمجا معا وحدة متسقة كالصفاة المنحوتة قدها الله من جبل ! ..

واستقبلت الأعين المتربصة فى المعسكر المقابل هذا الفارس الحاسر ، العاطل الرأس من جمة ، ومن لمة ، سوى خفاف كأنه بقية الأثر ، البادى الصدر دون درع ، سوى شعره الكثيف كاللبدة ! .. استقبلوه من خطوطهم ، من بعيد ، فأرهفوا الحقد فى النواظر ، وهيأوا الثنايا على المشافر ... كلهم إليه ساق . أسيافهم يهزها نحوه الحنين ، والنهم ، والظمأ للدم ! .. جموعهم تدافعت صوبه تدافع الجواد للخضرة ، كأنها طوفان . خيالهم مزقه ، وشق له فى الفلاة قبره ! .. ليس فيهم من تمهلوا به حتى يدانيهم بهذا الجواد المدل المختال ، الذى راح يقطع الرمل فى ونى ثقيل كمشية السلحفاة : بل قد طفرت بهم مطاياهم . وجرت الأقدام ، وعدت النفوس والشخوص والظلال لتعجل به إلى حينه ! ...

وبقى هو على هدوئه . وعلى سيره الرتيب الوئيد . وعلى هذه الإغفاءة التى بدت تغشى عينيه وماهو بوسنان . لا يزيده قربهم منه سرعة فى مشيه، ولا دنوهم إليه ميلا عن سمته . إنما امتد رمق بصره إليهم من خلال أهدابه ينظر ويرقب ويعد الخطوات ... عن يمين وعن يسار يقبل الجناحان . الأرض الخالية يطويها الزحف . الشقة بينه وبينهم تضيق — ولكن الطائر الذى بدا على هيئته جيش الشام قبل التقدم ، التوى قوامه ! .. اختلت وحدته وتضعضع انسجامه ! .. ليوشك بدنه أن يكون قد لفظ ريشه أو انفصلت عنه قوادمه وخوافيه وهى منطلقة وحدها إلى أمام ؟ .. أما جسدها فمستأخر ، يثبت بذات مكانه الذى برحه جناحاه فهو عار مكشوف

وتبسم الإمام . لهذه اللحظة كان يدخر الابتسام ! .. لمعت عيناه من وراء أهدابه المرتخية . وشاعت الحركة فى كيانه الفتر نشاطا خافيا فى دمائه وعزمه وخاطره لم يرتسم ظله على محياه ...

إذ ذاك كانت ميسرة عدوه — أدنى الجناحين منه — تنطلق نحوه انطلاقة السهم للهدف . وكانت أختها الميمنة ، من مقرها البعيد ، تقطع الشوط جادة إلى موقعه كأنها تضن على صاحبتها وحدها بفخر مصرعه ! .. أما هو فعلى ذات الصورة : سكينة ووسن وإيمان ... صخرة على ظهر ، ومشية على زهر ! ...

ومد عينه ترود الأفق ثم تثقب بلمحها الجحافل المغيرة ، المندفعة إليه فى عنف. المادرة كالعاصفة ، المنحدرة كالشلال ... من خلالها انسرب نظره على جناح فكره وتقديره ، إلى قبة عظيمة هناك ... إلى سياج من المقاتلة حولها قاموا صفا وراء صف . وحلقة وراء حلقة . إلى غريم تستتر عن المنية بحصون حية ، بناؤها أجساد ، وملاطها عزائم ! ..

خلف هذه القلاع والأسوار ، أخفى معاوية عمره من أصابع الصراع النابشة كما يوارى البخيل كنزه . كنه بفسطاطه . ولفه بخمسة صفوف من مقاتلته المقلين ، الواحد يليه تاليه ، والفرد لاصق بصنوه حتى ليعسر أن تمر من خلالهم خفقة الريح ! .. وكان الماهل بقلب جيشه ، ذلك القلب الذى ثبت مكانه إلا قليلا عند ما تحرك الجناحان ، وكان حماته من خاصة جنده ، وأخلص قومه

وأنصاره له وللغاية التي أطلمتها أحلامه . وكانت الجموع تزحف وهم ينظرون . على أهبة وحذر ، حتى تحين لهم ساعة الفداء . فلقد بايعوا أميرهم على الموت دون أن تنكص بهم قدم . عهدهم ثبات وصبر . هدفهم فناء أو نصر . شعارهم : « هنا القبر ! » إذ استقاموا على مكانهم كالأوتاد ! ... فلعلهم ، حينما وقفوا ، جعلوا آجالهم تحت أرجلهم ، فلا تقدم ولا تقهقر ولا ميل ... أو كأنهم نخل بدت الجذوع والفروع ، وغاصت الجذور فى الأغوار ...

ثم تلفت الإمام ..

كانت لفتة مباغتة ، على حين غرة من المغيرين الذين قروا لو ناه وهو جاثم على فرسة ، رخى الهدب ، مفتر الأوصال ، يحاكى بدنه وأعضاؤه قطعا ضخمة من الجنادل ! .. كومضة البرق فى خطفه . كلمة السيف إذ ينشال ثم ينحط فى انقضاضه . ما بدرت منه حتى فاض من قوامه الربوع زخر الحياة . ثم رجت فى رجاله السا كنين مكامن الثورة من القاع . ثم أحدت منهم الميمنة وكانت قبلها تسير مثل سيرة ، بخطو قصير كأنها لا تسير ! ... فإن هى إلا لحظة كطرفة العين حتى أسرع القدم والحافر . عدا الرجالة وطفرت الأفراس . برقت الصوارم وأزت السهام ...

وعلى الأثر اضطرب الميزان .. حين تحركت حشود الشام من قليل ، كانت الأرض تحتها ثابتة ، والهدف بينا ، والطريق مفتوحة ... أما الأرض فسهل مبسوط ، قر وطاؤه ونامت حصباؤه ، وأما الطريق ففرجة بين جناحى الإمام يكاد لا يسدها رجاله الذين أقبلوا الهوينى معه كأنما يثقلهم وقر أو يعييهم السير . وأما الهدف فراكب على أدهم ، الجواد خائر والفارس نعسان ! ...

كذلك انطلاقهم كان ، بدء الهجمة ، والسلاح فى أكفهم كالعيون الرواصد ، أطرافه تشخص إلى الغريم لا تريم . بأعين السيوف رمقوه . وشخصوا إليه . وطوت خيامهم صوبه المسافة بلا كلال وهى ظمأى إلى دمائه ... ولولا طاقة للمطى محدودة ، وأشفار لحقدهم مفلولة مثلومة ، تثلب ولا تجرح ، لجنبوا النجائب والخيل ، وركبوا دونها عقائل الغل عساها تعجل بهم إليه فيدفنوه حيث قام ! ...

ولكنها لفتة ثم اضطرب تقديرهم ، وشال ميزانهم ، وتزلزل الميدان تحتهم زلزاله — أولئك الحالمين بقبر له غير معلم فى العراء بجانب صفين ! .. رمى إليهم بعين ، والشقة بينه وبينهم لا تطويها الرمية . ورمى إلى ميمنته بعين ، وخطوها إلى جواره هين وئيد ، فإذا السكون ضجة ، وإذا الغبار إعصار ، وإذا الهجمة التى وجهوها إليه التحام ، ثم تقلقل ، ثم نكول ، ثم تقهقر وفرار ...

ونالت البغتة من الجحافل المغيرة إنها أخفت الحصا ، وغطت الرمل ، وسترت الأفق عن العين . ولكن المفاجأة التى بادرتها بها ميمنته أذهلتها عن البأس ، ولوت بعنان خيلها وجندها وقادتها إلى وجهة لم تكن تريد . كر عليها ابن بديل . وركز عنف حملته على أدنى فرقة فيها رامت الإمام بالغارة حتى انتكث نظامها كالخيوط ، وتداعت ، ثم تهاوت على ماوراءها من صفوف أصحابها كما تهاوى جدار ...

ولم يحل لها الحظة فى التدبر . ولا فى التصبر ، وما كان ! ... لم يمهلها هنيهة لتثوب أو تستعيد جأشها المسلوب . إنما انطلق ، بغير ونى ، يحرض رجاله : « أتخشونهم ؟ ... فالله أحق أن تخشوه ! ... » وهو يتبع الضربة الضربة ، والشدة الشدة وفى يديه سيفان يختلفان على رقاب أعدائه كأنهما مقص الأجل ! ...

١

ثلاث ليال وأيامها سطرت ساعاتها الخاتمة الحزينة للصراع المسلح الذى سجلته صفين . وثلاثة رجال .. والثغرة التى فصلت بين هذا الزمن وهؤلاء الأناسى وسع القدر أن يجتازها على جسر قائم من نزغ الأنفس ، وعبث الأهواء ، واضطراب الجوانح بالغرور والجشع والضغينة ...

وكانت الأقدار ساخرة . فكان تدهور فى ناحية ولم تكن هزيمة . وكان تصبر فى أخرى ولم يكن نصر ... معاوية تقوضت خطوطه ، وانتكثت عليه خططه وخيوطه ، ولكنه بات يملك الزمام ! والإمام تقدم رجاله ، وأبلى أبطاله ولم ينل نيله من شراذم الشام ... والذين مدوا له على الأديم من أشلائهم مهادا لينا يسير فوقه إلى الظفر كان فداؤهم هواء ، وفناؤهم فى سبيله هباء وجفاء : تناثرت جسومهم على الرمل فكان بذل ولا نيل ، وتضحية كأنها رنين طبل ضائع الصدى والدوى فى عالم فسيح من الصمم والفراغ ... والذين ضنوا من رجاله على الحرب بالجراح ، وادخروا الدم ، لم يهنهم بعده فى حياتهم عيش ، ولم يقر لهم فى هــــذه الدنيا قرار حتى باعوا العمر سلعة رخيصة فى سوق الغفلة ...

ولكنها نهاية محتومة : وغاية فى لوحة المصير مسطورة ، مقدورة المقدمات والخواتيم من قبل أن يرسم البشر من صورتها أول الخطوط ، أو يحددوا من رقعتها مواقع الظلال والأضواء ... فما الناس إلا همل حينما يشرع القدر سنانه ويهيىء مداده وألوانه . ما هذه الليالى الثلاث وأيامها الحوالك إلا ديباجة النقش وأديمه . وما أولئك الرجال الذين خطوا النتيجة الحزينة إلا أقلام : وما تلك الأنفس المفتونة عن الحقائق المغيبة والأسرار المستورة إلا المادة التى أذاب سيالها جمد الألوان ، وألف منها بين الشتيت والضريب ، والمثيل والغريب ، حتى جرت منظرا حافلا بالهدى والحكمة ، بالحسم والتخاذل ، بالموت والحياة فكان الصورة المجتباة ! ...

أما الليالى فمن صفين ، رأس العشرة الثانية فيه . وأما الرجال فمن على ، أئمة نصيره وأوليائه . وأما الأهواء فغيرة وغرور وتخاذل ، أخذت سمتها إلى قلوب غلت فى الوفاء له ، والذياد عنه ثم لم يجنبها ولاؤها المفروض سقطة عارضة لجمته بعدها فى أهدابه .. وكان ابن بديل الفاتحة ، وفى عقبه أضاف الأشتر خطوطا وعناء ، وعلى الأرجاء الأشعث فأكمل الصورة الحزينة ...

ودع القدر يذبذب ، ويمزج ، ويؤلف ، ثم عد إلى الرقعة بأقلامه . دع اللوحة الخالدة على الزمان ، الماثلة أبدا أمام أعين الخواطر ولمح الأذهان ، يقترب فيها الضوء من الضوء ، ويلتقى الظل بالظل ، ويفنى الخيال فى الأصل ، حتى تبرز مقيتة الهيئة ، قاتمة السمات ، شوهاء ... دع هذا كله إلى مقدماته . إلى الخطوط المبكرة فيه ، إلى الخيوط التى تبدت — عندما عطف ابن بديل فى ميمنة على ميسرة الشام — كأنها بشارة الفجر ، لمحة النهار ، طليعة الغلبة والانتصار ، وإذا هى بعد ساعة أو سويعات تستبين : فاتحة ظلمة ، وغسق ليل ، وبداية دبر ، إن تسكن حقنت الدم ، فقد أكلت الظفر ، وأوهت العزم ، واستذلت المثل والمكارم ! ...

ومع ذلك فليس ابن بديل الخزاعى بالمتهم فى إخلاصه ، ولا فى قدرة إمامه ، ولا فى هذه الشجاعة التى تمهر الغلبة وتستقدمها عروسا مليحة تزفها الحرب للجندى المقدام . ولكنه بدا امرأ تغلبه الدفعة فينسى العقبى ساعة الزهو بالنصر كما ينساها الذى أعلته خمر . . أطاح بجند حبيب بن مسلمة ، فتفرقوا عن كفاحه فلولا منهوكة ، وشراذم نالت منها المفاجأة قبل أن تنال السيوف ، وضاقت عليها الرحاب الوسيعة فى جنبات صفين كضيق المصاف والصفوف . حتى حينما استجاشها معاوية فى محنته ، أذهلها البأس والخوف عنه ، فلم تصغ له وهو يدعوها ، ووضعت صرخاته دبر الأذن مرة ومرتين وثلاث مرات . وإذ ذاك لم يعد لعاهل الشام رده يحميه من عصفة القائد المغامر إلا تلك المعقلة الذين بايعوه أن يموتوا دونه ، والتفوا بفسطاطه حلقة بعد حلقة فى خمسة أسوار ، ثابتي الأقدام كالأوتاد المغروسة ، ملتصقة جسومهم بعزمهم كأحجار جدار . . .

ولم يعى صبرهم هذا الخزاعى ، ولم يفل من إصراره على بلوغ سيدهم المستتر

عنه بالقبة العظيمة البيضاء ، وبالمفدين والفداء من أمام ومن وراء ... إنما انطلق يضرب بسيفيه جميعا ، وبعنفه وحزمه وصبره جميعا ، ولو كان يسعه لأنفذ إليهم الأحيان من كل ثغرة وكل باب وإن كادمهم بالتواجد وأعمل فيهم الأنياب !.
إنه يروم منهم معاوية ، قدمهم الغالى فى التمرد ، المفرق الأمة ، الصادع عليها شملها ووحدتها ليسقيه الهلكة فيكفى الناس الانقسام ..

ومضى يهدم الجدار بعد الجدار — يقصف الصف بعد الصف فتتهاوى جموع المعقلة تحت أقدام أصحابه ، وتتكسر تكسر الأعواد الجافة ... ولم تكن محاولته أولى الحملات للقضاء على ابن هند وهو بين عسكره ، بل سبقتها أمس أخرى لم تسارع إليها الجحافل المغيرة والقوى المحشودة الغفيرة . وإنما انطلق بها امرؤ فرد على جواده ، لم يزل يحمل ويقتحم ، وينساب بنفسه بين العدو انسياب ثعبان حتى دخل على معاوية خباءه ، ولم ينجه منه إلا الفرار ...

على أن الجرأة فشلت فى ميدان لا مجال فيه للدفعة . فحبطت حيلة المقتحم الجسور ، ورقد هامد النفس ، بارد الجوارح والأطراف ، قد ناشه الصخر من كل جانب ، فشدخه ورضخه ! .. وحبطت أيضا حملة ابن بديل وإن تبدى بدؤها كلمة الفجر بشرت بطلعة النهار ! .. فأما فشلها فقدر . وأما هدفها فأمنية حالم ذابت فى الدم . وأما الحافز الذى التوى بقدمى القائد المغامر عن تتبع الميسرة المدحورة إلى اختراق القلب صوب القبة البيضاء فهى الغفلة المستترة من الجرأة الرعناء بستار ! ..

الغفلة هى التى عدلت لا ريب بابن بديل عن مطاردة جند ابن مسلمة حتى يكف خطرها عنه ثم عن بقية جيوش العراق . ولكنه تعجل الخاتمة . ودفعت به حماسته ، وذلك النصر السريع الذى اهتبله ، إلى مركب صعب حسبه سيورد معاوية الهلكة ... كان يأمل غير مستريب أن يقضى بحركته على غريم الإمام دون حاجة إلى واقعة جامعة تشتبك فيها كتائب العراق وجحافل الشام . وكان الذى قر فى ضميره أن هجمة أخرى خاطفة تنحرف به عن سمته المقرر من ميسرة أعدائه إلى قلب جيشهم المتخلف عن الطعان كفيلة بأن تجرع الذعر ممقلة الماهل الأموى ، وتشيع فى صفوفها الفرق والاضطراب فتتفرج ذاهلة عن ابن هند

هدفا بين المقاتل ، لينا للمناصل ، هينا على الغوائل . فلو كان أجدى حسابه لجنب المسلمين بهذه الجرأة غمرة فاجعة ، جالت فيها بعد ذلك أبالسة الحرب وهى صديا منهومة تجرع وتبلع فلا تشفيها الدماء المهدرات من أوام ، ولا يشبعها من الرءوس الطائحات غذاء وطعام ؟ ..

ثم خابت ظنه الجسور ! .. فى حساب الشجاعة جرت له سيرة هى أمثولة للبطولة . وفى حساب الحروب تنهمه الحنكة والدراية بما يجب أن تكون عليه إدارة المعارك وقيادة الجيوش . فما على شاكلته يكون قائد يقدر خطوه ، ويقيس أبعاده وآماده ، ويتقبل الخطر وإن هان بالحذر ثم يزنه بمثقال ؟ .. إنما كان ينبغى أن يدير فى باله كل مقدرات النصر واحتمالات الهزيمة دون أن تفتنه الجرأة أو يضله التفاؤل ولكنه افتتن . وخف عليه شأن تلك الميسرة الفرارة فلم يهدها بالمطاردة . وعندما حسب نصره الأول عليها مفضيا به إلى نصر ، كانت هى قد نفضت عن قلوبهم أثارة الجزع التى أجبنها البغتة ، واستعدت بالجلد ، واستعانت العزيمة ..

وأتاه حينه من مأمنه ... إنها سويعة من النشوة قصيرة ثم ذاق القائد المغاص الصعاب ! .. شق بين أعدائه طريقه وهو يضرب ويثخن ويقتلع هذه الشخوص الثابتة فى مواطنها ثبات الأوتاد . وكان يهتف بصوته العريض : « يالثارات عثمان ! » ... ولم يكن بطبيعة الحال من الذين ينتصرون للخليفة الصريع الذى أشعلت دماؤه نار الحرب الأهلية بين أمة الإسلام . ولم يكن أيضا مخادعا يروم بندائه أن يحول العدو عن الثبات له أو الوقوف فى طريقه وهذه دعوتهم يلوكها لسانه وهذا شعارهم الرامز إلى الثأر شعاره . ولكنه فى الحقيقة إنما مضى يحث نفسه على التصبر بذلك النداء الذى أشكل عليهم مغزاه وهو يطلب منهم دما أهرقوه ، عزيزا عليه . يوم جندلوا أخا له كان يدعى عثمان ! ..

وكانت نفسه الموتورة تسدد خطاه . وكان قلبه الأسيف الحزين يوجه سيفه إلى القبة الكبيرة البيضاء ... للفريسة الآن فى الجو رائحة ! .. لهيكلها الشحيم الجسيم طيف يكاد يملأ الفضاء ! .. للقضاء أنشودة وقعتها الحوافر ودقتها الأقدام على طبول الرمال وهى تنطلق للواتر . فليس معاوية ببعيد . على مرمى حربة . العين تناله وإن كان الحسام لا يطوله ...

هذه اللحظة الحازبة كانت المنجل المسنون وكان ابن هند سنابل الحصاد ؛ إن عوده ليضطرب . إن عنقه ليتشبث بموضعه . إن عنفه ليذوب ... وعندما دنا القدر منه استشعر الحياة فى ريقه حلوة شهية فبخل بها على الكفاح ! ..

وكذلك أمن الغمرة ، وهو يستأخر بعمره وينأى عن مواطن الجراح . فما بدت له طلعة العادى ، واستيقن الخطر فى الثبات حتى مال غير وان ينشد الأمان فى الفرار ... تراجع ببقية أجله . ومن بين يديه ومن ورائه اندفع معه قلب جيشه ميلا آخر عن الفرقة المغيرة والقائد المخاطر العنيد ، وغدا احتمال الظفر ، تلك اللحظة ، أمام الخزاعى ، كاللمحة البارقة من جانب المين ، يمتها جفن ليسترها جفن ! .. أو كخفقة الذبالة الجافة أو كومضة الحلم فى عمر نائم . فلقد عدلت حركة التقهقر صفوف العاهل المخرقة فعادت سوية قويمة . ثم أمدتها خيله ، ثم كرت إليها فاول حبيب بعد زوال فزعتها وهرجها وجأشها الذاهب الشتيت . ومع ذلك فلم يبدل الموقف من عناد ابن بديل ولم ينل من عزمه وإصراره . إنما مضى وغايته . وظل وهدفه الأول لا يشغله شاغل عن رقبة معاوية . لا يذهله بأس ، لا ترهبه كثرة ، لا تحمله على التردد أو النكوص خيل ولا نبل ، ولا ترده عن التقدم والاقتحام هذه الجحافل المناجزة التى أطبقت عليه كالسوار من يمين ومن يسار ، ومن وراء ومن أمام ...

حتى عندما تساقط رجاله حوله كأوراق شجيرة عبثت بها يد العاصفة لم يكف لحظة عن غلوائه ، ولم يلتمس مفاوز الأمن والنجاء ، فالموت جاء . المنية لخصمه أو لنفسه على السواء ... وإن قوام جمعة لتهده الحرب ، ويتمزق شلوا شلوا ، وجارحة جارحة .. وإن النكبة لتلد النكبة ، والخطر يفرخ الخطر ... وإن الرحى الحاصدة لتنطلق تدور فتكسر وتعصر ، وما هو علق باله إلا لذلك العنق الذى مطه الباطل ، ونفخه الحقد وأتلعته الخيلاء ... فإن يكن فقد جنده فلديه بقية يشوقها الجلاد ويطيب عندها الاستشهاد . وهذه الفئة الصابرة معه حرية أن تظفر أو تقبر وكلا الأمرين جنة ورضوان ! ..

وتقدم بهم . لايفى حلقه المكدود من نصب القتال وحرقة العطش وحر الظهيرة يهتف محرضا هتافه الذى سمعته منذ سويعة لحظات نصره : «أتخشونهم؟..

فالله أحق أن تخشوه ... » ولاتنى قدمه تشق فى الطريق للأمام وسيفه يدق أو يخرط الهام ... ولاتنى لعزمة تتلألأ فى ناظريه تلألؤ البرق فى اليوم الماطر ويبلل العرق على حاجبيه كقطر الغمامة ! ... كلما شد عليهم عدوهم شدوا ، وكلما أحكم حولهم حصاره لم تخنهم الحيلة ولم تنقصهم الوسيلة فانفلتوا خفافا من شركه المحبوك انفلاتة الرقط والأراقم . ولكنهم مضوا فى كفاحهم وإن أسلمهم الكفاح المرير من شرك إلى شرك ، ومن أحبولة لأحبولة ...

ظهرا لظهر ، وكتفا لكتف ، تساند فريقهم وتماسك كالسور . لا ثغرة بينهم لاقتحام ، ولا فرجة لسن سهم . جلودهم دروعهم . سوقهم مطاياهم ... كانوا قلعة من البشر ، جراحهم وحدها منافذها وأعينهم الوامضات بالصبر والبشر والعزيمة هن المراقب على أجساد صلب بناؤها وشمخ إباؤها كأنها بروج . وهذه الدماء المهرقات منهم خد مسيلها مثل الخندق حول القلعة الحصينة ... وكانوا مائة ! ...

٣

لم يطل كثيرا عمر الجهد الذى بذله عبد الله بن بديل لاقتطاف رأس معاوية من فوق بدنه ... كان هجمة خاطفة تبعها سريعا ذلك التوقف على أبواب العالم الآخر الفسيح يدقها الرجل بسيفه ويديه وقدميه ، وبعزمه وصبره ، وبشوقه وشغفه إلى مبارحة دنيا لا تعيش فيها المكارم إلا كعيش الزهرة الرقيقة فى رعاية زهار ، مبتورة الجذر ، كسيرة العود ، غريبة الدار . فهى مجاز وهى معبر إلى راحة ، وهى عناء لقرار . وهذا القطر ، من الدموع والعرق والدم ، هو الجدول الذى تنطلق عليه السفائن الراحلة للآجلة ، دراكا خفافا ، تحمل الأرواح العانية والموصوبة والضائقة بذلة الحياة ...

وكانت الحياة فى فم الرجل كريهة المذاق ، قد أفسدتها عليه أهواء الناس ، خليطا من قتاد وعلقم . فيها حسد وبغض وأثرة . وجوهر الحب النقى الذى أودعه الله دخيلة القلوب كان كدرة فى صدفة ، الصدفة فى صخرة ، الصخرة فى غور من الرمل والحصا والأعشاب ، الغور فى قاع بحر بعيد المهوى ، معتكر الوجه ،

عاصف النوء ، طاغي الأمواج ... حتى حينما نال منه الوهن ، وأكلت من بأسه وآد صحبه شدة النضال ، وخارت بهم أقدامهم مهيضة على الثرى القانى الندى بالدم ، كان طعم التراب الذى حشا أفواههم وهم جثى أحلى مذاقا عنده من طعم حياته . ومع ذلك فلم يؤثر الموت وإن سعى إليه . ولم يتعجل لنفسه القضاء إلا بقدر تعجله اقتناص الرأس الذى جر جشعه كل هذه الداهية الدهماء . وليس بين الذين صاحبوه فى مصيره امرؤ واحـد خطر بباله التماس السلامة فى التسليم أو فى الهروب ...

وكانوا مائة ! ... كانوا حفنة بين أمة من الأعداء . قطرة فى خضم . حصاة على أديم صحراء ! .. حين خرجوا والضحى تقارب الظهيرة كان لهم العنفوان وإن لم يكاثروا الغريم المدل المختال ، وكانت لهم العزة بالجلد دون العدد ، وبالعزم دون النفر ، والإيمان قبل العدة من الخيل والجياد ومن السلاح والعتاد .. وشهدتهم الصخرة عمالقة انـكمش أمامهم عدوهم كالأقزام . وشهدتهم الوغى مردة على حلبة الصراع لا تنـكص بهم قدم ، ولا تفتر ذراع ، ولا تهمد حركة . وشهدتهم الأرض كأن لم تشهدهم ، فأقدامهم ما تـكاد تلمس ثراها حتى تطفر خفيفة سريعة تخوض لجة الهواء ! ...

لـكن الظهيرة اقتربت وهم جثى ، رقد محمد على صفين كالموات . هى سويعة اقبلت ، ثم سويعة أدبرت فإذا نصرهم ذاك غيمة بددتها الهزيمة ... ولم يفت أمرهم إمامهم وإن هم فاتوا هدفه — فيما أحسب — ومالوا عنه إلى اقتناص صاحب القبة البيضاء . فـكأنى بعلى قد حذر غايتهم منذ اقتحموا جحافل القلب وأشفق أن تغولهم دونها الغوائل فقدم نحوهم سهل بن حنيف فى فرقة المدينة لعله أن يخفف عنهم ، ويشد هونا من أزرهم وبأسهم إذ تعاورهم القوم وحميت وقدة الصراع . غير أن فسحة الزمن كانت قصيرة . فهى ساعة وبعضها أقم السكر وقيتها ، هم يسكرون ثم لاتلبث الحرب أن يميل ميزانها عليهم فى مثل خطفة البرق فيـكر عدوهم من كل جانب : معقلته وخيله وميسرته ، وتبدأ الرحى تدور . مابين الضحى والظهيرة كان النصر وكانت الهزيمة انتظما فى خيط ! ... ولو أوتى سهل سرعة الريح ، ومشت بأقدام جنده الأعاصير والصواعق ، لما وسعته قدرته أن يبلغ موضع القتال قبل أن ينقلب مجنه .

إنها حركة لم يسبقها الإعداد تلك التى غامر بها الخزاعى ، كانت مفاجأة لمعاوية ولعلى على السواء . وعندما فشل تدبيره ، وقعدت به قلة جنده وكثرة غريمه دون غايته ، كان أوان إصلاح خطته الحربى قد فات . ومع ذلك فثمة عوامل أخرى نزلت حلبة المعركة ، أضافت الكثير إلى خطوط المحنة التى انجلى عنها بعد ساعة واحدة الغبار . فالميمنة التى انفلت من يمينها سلاح المباداة هدتها القوى التى تكتلت عليها وقطعتها شرازم . ومدد سهل ردته حسيرا خيل كالليل قد أفسحت لها هزيمة الخزاعى واضطراب أمره فى حرية الحركة وسرعة الكر والهجوم . وقلب جند العراق لم يخل حينذاك من عناصر كانت تؤمن بحق على على حرف ، فلم يكد يبدو فى الأفق تفوق الأمويين حتى انسحبت اليمنية من صفوف الإمام كأنها آثرت الا تهز سيفا فى وجوه إخوانها من يمن الشام ، بل مضر أيضا تلكأت عن النجدة ، وجنحت هى الأخرى إلى مبارحة الميدان فى لحظة كان ينبغى خلالها الصبر والثبات إن لم يجدر التقدم والاقتحام . وعندما حسب الناس أن المأزق الذى وقع فيه ابن بديل وميمنته ليس سوى هزة طارئة هى جانب من طبيعة الحرب التى تتسم دائما بالتقلب ، ويختلف تيارها بين لحظة ولحظة من حظ لحظ ، من مد لجزر ، كان الموقف كله فى حقيقته أبعد عن رجاء الآمل ، وبشر المتفائل ، وأدنى إلى خطر داهم يوشك أن ينجاب عن نكبة مستطيرة ...

حدث هذا كله فى سرعة مذهلة . فى كسفة قصيرة من نهار . فى دقائق قلائل التأمت فيها ساعة مرت كالمحة ، وثقلت كالدهر ، وتسابقت خلالها الأحداث نحو الغاية كأنها ريشة يجرفها التيار ! ... العيون قصرت عن متابعة الصور التى حركها الزمن . الأذهان كلت عن استكناه النتائج لأنها عجزت عن ملاحقة البواعث أو الأسباب . حوافر الجياد التى تداركت تركض وتمدو وتطوى المسافات بدت كأنها تقفز وتطفر وتتوثب وهى بنفس مكانها لا تريم ! ... فأما النصر فغيمة ، وأما الهزيمة فغيمة ، وأولئك الجند فى الفريقين استظلوا السحاب المترحل يترى فوقهم قطعة قطعة ، لا يحركونه بل تسوقه الريح ...

وانتبه الإمام مثل غشية ... فإذا ميمنته انهارت . وإذا مدده قد ضربته

خيل عدوه وردته فرادى ومثانى ومزقا محاولة تهطع مهيضة إلى النجاة . وإذا الميدان حيث نشب الصراع يستحيل جزرا وقطائع من الأقطاع فى بحر طام من الهرج والموت والفواجع ... هنا شرذمة وهناك شرذمة . هنا فلول من جنوده لصقت جسومها بالثرى المبلل وهناك فلول تصارع الهلكة على بقية أجل وعلالة أمل كما يضطرب فى الحبالة الطير وهو يحاول أن يتحرر وينفذ إلى الفضاء . هنا وهنالك دحرة ودبرة ، وهن وتهافت ، مصرع ودم — أينما انطلقت عينه طالعتها صور شتى من النكبة القاصمة ، فى الميمنة ... فى الميسرة ... فى القلب ... فى كل بقعة من أرجاء الميدان ...

ومع ذلك فلم يفقد الجنان . لم يفقد القلب الذى يترنم بين ضلوعه بالخفقة ورجيعها وهما جسارة وإيمان . لم يفقد بعد يمنى يديه ولا يسراه وهما له جناحان ا. هو جيش وحده . وفرة من عزم ، وعدة من بسالة . فما تخلف النصير عنه ؟ — ما تألب العدو ؟ — ما الموت ؟ ... وعندما عزم على أن يلقى إلى المعركة بيديه . كان عليه أن يشق طريقه إلى حديقة الموت بين محبيه قبل خصومه . فلقد انبرت له من أولئكم طائفة ، فيها أبناؤه ، تجهد جهدها لتفتديه وتنأى به عن الغمار . والتفت به . وقدمت إلى محلة الخطر مهجها دونه ؛ والصدور والنحور والأبدان تؤلف حوله سياجا مانعا أن يخترقه إلى فم الهلاك المفغور ...

لكنه عصف بهم . مضى يدفعهم دفعا عن نفسه وهو يشق بينهم طريقه واثقا إلى الغريم . راح يتجرد من هذه الدروع . ويقصف تلكم الحصون المؤلفة من دم ولحم ، ومن أنفاس وحياة ، ومن تضحية وحب وإيثار ، ليخرج خالصا إلى العراء يدق على الهول بابه ، ويشق إهابه ، ويقتحم نوبه وأنيابه ! ..

وكان عاطلا غير دارع ، حاسرا بلا ترس ، أعزل اليد من السلاح سوى رميح كالعصا القصيرة . ومع ذلك فقد بدا كمن لا يحذر ، ولاح لصحبه لا يحترز من الردى المتربص له على مقربة فى صفوف أعدائه الذين ظفر اللدد من عيونهم ، وحرضهم الحقد ، ورددت صدورهم أنفاس الضغينة . إنما مضى يدنو منهم ، ويحاول أن يخالط جموعهم فى لحظات كان خلالها قبلة لكل عدوان ، وهدفا هينا لكل طعان ... وعجب له صاحبه سعيد بن قيس فهم يرده عما اعتزم وما هو فيه .

« أما تخشى يا أمير المؤمنين أن يغتالك أحد وأنت قرب عدوك ؟ ...

فلم ينل منه تخويفه ، بل رد نصحه وأباه وهو يجيب فى طمأنينة :

« يا سعيد ... إنه ليس من أحد إلا عليه من الله حفظة يحفظونه من أن يتردى فى قليب ، أو يخر عليه حائط ، أو تصيبه آفة . فإذا جاء القدر خلوا بينه وبينه ... »

وانطلق . كلما اعترضه من ولده من يبتغى أن يستقبل عنه بصدره سهام قناصة الشام أسرع فدفعه ، أو نحاه ناحية ، أو احتمله فألقاه بين يديه أو وراء ظهره لتنفسح سبيله إلى الصفوف المغيرة ... كان فى هذه الآونة يواجه جيشا برمته . وكان ظاهرا كالعلم فى أديم سواء لا تخطئه عين ، وكالهدف ترنو صوبه الأسنة النهومة . كانت النبل تنطلق إليه كالصواعق ، وتئز حوله بصوت الرعود ، وتتناثر كقطر منهمر وهى تكاد تبل عنقه ومنكبيه بدمائه . عند ذلك غلبت الرقة ابنه الحسن فأقبل أيضا يحاول معه محاولة سعيد :

« ما ضرك لو سعيت حتى تنتهى إلى هؤلاء الذين صبروا لعدوك من أصحابك؟ »

فألقى الإمام نظرة عابرة إلى جانب الميدان حيث ميسرته ، ثم ابتسم غير آبه :

« يا بنى .. إن لأبيك يوما لن يعدوه ، ولا يبطئ به عنه السعى ، ولا يعجل به إليه المشى ...

وعاود انطلاقه ...

كيف يهاب ؟ ... العمر قدر ، والأجل كتاب . ونفحة الإيمان التى تفيض بفؤاده كانت له الملاذ والجنة . هو لا ينكص . هو لا يحرص على بدنه إذ البدن ثوب وغشاء ، ولا يتشبث بهذه الحياة فهى زبد وجفاء . إنما البقيا للروح . للسيرة دون الصورة . المثل والمبادئ لا للجيفة النابضة بالدم ، المصوغة من عظم ، الملفوفة بلحم وإهاب ! ..

ثم انطلق لم يتردد فى انطلاقه المنقض هنيهة ، ولم يتوقف عن التقدم سابحا على الهول ، غائصا فى الحراب والنبل يضرب فيهم ويقتلع — أولئك الذين تقدمت بهم مصارعهم يروم حقدهم أن يذوق من دمائه ! .. فكأنما غرهم به انفراده ، وقلة النصير خلفه ، وهذه السمات البوادى للهرج والخور فى صفوفه على طول

جبهة القتال فأقبلوا إليه مهطعين تزدهيهم الكثرة ويخايلهم الظفر وكأنما بدا لأحمر ، مولى أبي سفيان ، أن قد آنت اللحظة ليحسم الأمر ويثيب وليه ابن هند على كفاحه الزنيم للتاج . فما هو أن بصر بالإمام يخطر ، وأيقن أن نيله قريب ، حتى انفلت يركض فرسه ، ويشرع سيفه ، ويسبق إليه النظير والقرين ليعود وحده بفضل اغتياله . ولكنه أخطأ الحساب . حظه خاب . حينه كان قد دعاه ! فلم يكد يدنو ، ثم يرفع النصل ، ثم يسدد الشفرة المصقولة إلى الصدر العاري ، ثم يهوى بها تحمل الموت كالقضاء ، حتى كانت يد الإمام أسرع إليه من ومضة الحسام في عينه ، فإذا هي تختطفه من صهوة جواده ، وتعلو بجسده في الفضاء كالدمية ، وتجلد به الأرض جلدة قوية هشمت عظمه ، وعجنت لحمه ، وخلفت له من علائم المدد والغرور والحياة آهة بلا صدى ، وأنة بلا ترجيع ! ...

كانت ربيعة حينذاك وحدها في ميسرته ، ثبت رجالها على قدم . لم يفزعها الهول . لم تذهلها هذه الموجات المتوالية من قوات العدو التي راحت تعتور جوانب الموقعة . لم تمل بها خشية الخطر ، التي تملكت نفوس بقية الجند في الجيوش العراقية ، إلى حركة انسحاب أو إلى فرار ... ومع ذلك فلم يلذ بصبرها ، أو يتخذ من صفوفها الراسخات جنة . وعندما انكشفت عنه الميمنة ، وخلا القلب إلا منه ، وهربت مضر بالأعمار ، أقبل وحده ، كما شهدناه ، يقتحم الغمرة ...

غير أنه لم تشغله شاغلة إبان تألب المنهومين لدمائه عليه عن إدامة النظر في حال رجاله الذين حزبتهم المحنة ، وحربتهم الحرب ، وفرق شملهم وأعدادهم اختلاط الأمر واضطراب حبل الكفاح : إنما كان يضرب وهو يرتب ، ويهجم وهو ينظم . فلم تكد المعركة في إقبالها وإدبارها تلقى به في جانب البقية الباقية من ميسرته ، حتى راح يستثيب الذين هجروه ، ويحثهم على الصبر ، ويحذرهم مذلة الفرار ... وكان الأشتر قد دفعه إليه مد القتال ، فدعاه :

« يا مالك »

« لبيك يا أمير المؤمنين ... » .

« ائت هؤلاء القوم فقل لهم : أين فراركم من الموت الذي لن تعجزوه إلى الحياة التي لا تبقى لكم ؟ »

أينما كانت حركة فى جنبات الحلبة ، وأينما كان نفس ، كان على يرسل بصره ويشرك تدبيره . وفى خلال الأيام والليالى الثلاث التي استغرقها القتال ، وحمى فيها أو فتر وطيسه ، كان يشهد — وإن نأى — تقدم الجند واستئخاره ، الهجمة والدحرة ، الكرة والفرة . كل هنة وصغيرة فلم تخف عنه من مواطن الخطر خافية ، لم تغب لحظة عن إدراكه خطوة راجل أو وثبة فارس مهما نأى بها الميدان ... إنه لينظر إلى المعركة كمن يتصفح صحيفة . ويعمل كمن يخط على أديمها بقلمه فيمحو أو يضيف ما يشاء ... ولم تهن قط عزمته . ولم تخزبه الشدة فى إبانها بقدر ما حفزته فإذا هو مضاء وأنفة وإيمان . وعندما استشعر المحنة التى تردى فى قلبها رجاله ، كانت عينه تسبق العلة ليمد لها ذهنه الدواء — جمعهم ولى إلا حفنة . صبرهم هاض ما عدا مسكة — ريحهم ذهبت سوى أثر كأنه بقية الربوع الدوارس . أما هو فله صبره ، وله أيضا بشره وإن كرثه الانهيار ، وله ثقته واعتداده : فلم يكد يبدو له من صفوفهم خوار ، حتى انطلق يقتحم الغمرة ، بغير ونى أو فتور ، يهجم ويصول ، ويناضل وحده موجا عاتيا من جموع الأعداء ، لا ليظفر ، بل لينفث الثقة فى القلوب ، ويرسم الأسوة لكل متردد ، ويحمل على الصبر كل فرار ...

وكان له نهج ناجح يهد الكثرة التى خايلها النصر ، ويعد القلة التى أفزعتها الهزيمة . فحين تقطعت أوصال جيشه ، وغدا شراذم كالجزائر فى طوفان من جحافل الشام ، سارع هو فنفض جعبته ، ثم بادر عابرد عن صحبه المادية ، ويزلزل خصمه ، ويطفئ جمره ، ويكفئ قدره ! ... حينذاك شحذ الحيلة ، فقدم الولاء والفداء والتضحية طليعة مناصرة إلى أولئك الذين تحلق حولهم عدوه . وتركهم من حصاره فى شر ، أعتاه أسر ، وأهونه هلكة ، وكان تضليله خصومه الأقوياء عن حقيقة الحال ، وبثه الذعر فى قلوبهم ، وإيهامهم أنه الأعز هى الخطوط التى وضعها تدبيره . وكانت قوة الإيمان ، والجرأة ، وحب الإيثار هى الدعائم التى أقام فوقها جسرا مر عبره جنوده المفصولون عائدين للحرية ... فذات ساعة فى الوقعة ، حملت خيل لمعاوية كثيفة على فرسان من العراق فقهرت منهم ، ومزقت ، وبترت ألفا حيل بينهم وبين الخلاص : عند هذا نادى الإمام :

« ألا رجل يشترى نفسه لله ويبيع دنياه بآخرته ؟ .. » .

فأتاه رجل من جعف ، مقنع فى الحديد ، تشع عينه نظرة تخيف الموت :

« يا أمير المؤمنين ... مرنى بأمر ، فوالله ما تأمرنى بشىء إلا صنعته ... »

فقال له على يسدد خطاه :

« أبا الحارث ، شد الله ركنك ! .. احمل على أهل الشام حتى تأتى أصحابك فتقول لهم : أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام . ويقول لكم هللوا وكبروا من ناحيتكم ، ونهلل نحن ونكبر من هاهنا : واحملوا من جانبكم ، ونحمل من جانبنا على أهل الشام ... »

فأسرع يفعل ، وشهده اليوم يعدو به جواد كالليل ، أدهم الجلد والغرة . خف حمله على الريح ! .. لم يزل يمضى به فى صفوف العدو المرصوصة ، مرة خلسة ، ومرة عنوة ، وهو قابع على ظهره كالقلعة ، لا يصيبه سهم ، ولا يناله حسام .

وبلغ الجعفى هدفه . فلما لمعت من بين قناعه الحديدى عيناه . قرأ أصحابه المحاصرون فى نظراته بشير السلامة ...

وسألوه :

« ما فعل أمير المؤمنين ؟ . . »

قال :

« صالح ، يقرئكم السلام . . »

ثم أدى لهم رسالته .

فإن هى إلا لحظة حتى اهتزت الأرض بالتهليل والتكبير ، من هذا الجانب ، ومن ذلك البعيد . ووقعت جماعة الشام فى حلقة منه . وفى حيرة من هذه الحملة المفاجئة التى بادرها الفريق المحاصر المستضعف . وفى فزعة من تلك التى أنبأهم التكبير خلفهم أنها ستحمل إليهم المصارع ... غلب على أوهامهم حينذاك أن عليا قد استفاء جندا ضخما — ثم ذلك الزئير عن أعداده — وأقبل فيه من ورائهم ، فخافوا الوقوع بين فكى القراض ...

وكذلك نجت الفرقة المحصورة . وانفسح لها سبيل الخلاص واسعا فى صفوف العدو الذى خلته عنها التهليل ، وفرقه الخوف ، وأوفت به حيلة رجل ، وجرأة

آخر مل الفناء ... وكذلك نشهد الإمام دائما خلال الوقعة قد جمع حواسه ، وإدراكه ، وعلمه بالقتال والرجال ، عدة وأهبة تستكبح عنه جمة النوازل ، وتدرأ غائلة الويل . فإذا أجزى الختل ختل ، وإذا أجدت الجرأة غامر ، وإذا أغر الضراب صال ...

٣

بدأت دعوة الأشتر الناس للثبات كالصرخة فى الربع الخالى ! .. شغلهم عنه الخطب . أذهلهم الروع . وكانوا يفرون من حوله كالجراد . وكالظباء الشوارد . وكالحمر المستنفرة فرت من ضيغم ! .. ولم يردد الفضاء صيحة كصيحته فيها اللهفة والاستغاثة ، والرقة مع العنف ، والتوسل مع الوعيد . وكان يجأر بصوته المجلجل : « أنا الأشتر .. إلى أيها الناس ؟ » فيقبل واحد ويدبر عشرة . وكان يرميهم بوحشى لفظه : « عضضتم بهن أبيكم ! » فيلقونه بسمع أصم ...

فاستفاء منهم قومه :

« أخلصوا إلى مذحجا ! .. »

عندئذ أخذت غشية الذهول تنجاب هونا عن النفوس المفزوعة : وبدأت الأرجل تثبت ، والقلوب تثوب . لكأنما هز العرب من غير قبيله أن رأوه لا يباليهم ، ويكفر بنخوتهم ، ويؤثر النخع عليهم ، فراحوا ينعتون عيونهم إليه بعد لى الأجياد عنه ... ولكنه انطلق يستجمع أهله . رويدا رويدا كان نفرهم يقبل ، وأعدادهم تأتلف وتتكتل . فلما شهدهم قوة تستطيع أن تقف على قدم ، فتدفع خطراً أو تسد ثغرة ، وقف بينهم يخاطبهم ونبرات اللوم تتناثر من بين شفتيه كالحمم :

« عضضتم بجهم الجندل ! .. والله ما أرضيتم اليوم ربكم ، ولا نصحتم له فى عدوه ، فكيف بذلك وأنتم أبناء الحرب ، وأصحاب الغارات ، وفتيان الصباح ، وفرسان الطراد ، وحتوف الأقران ، ومذحج الطعان ! .. »

وتركهم برهة يلوكون فيها تقريعه . حتى إذا نضحت سيماهم بالندم والتوبة ،

رق صوته ، ولان لهم محياه . ثم مد عينه ، وهو يحرضهم ، يشير بها إلى مقاتلة الشام :

« ... اجلوا سواد وجهى يرجع فى وجهى دمى ! ... والذى نفس مالك بيده ، ما من هؤلاء رجل على مثل جناح بعوضة من دين الله ... »

قالوا له وقد حركتهم حميته :

« خذ بنا حيث أحببت ... »

كان عليه أن يعيد بناء ميمنة على التى تهاوت ، وخرقت جدرها الشقوق والثغرات . فلم تعد سوى خرائب وأنقاض ، وأوشكت معاول الهدم التى تناولها بها رجال ابن هند أن تدكها وتأتى عليها من القواعد . ولئن كانت المهمة التى أخذ نفسه بها عسيرة ، فإن المادة الصالحة للترميم ، ورتق الفتق ، وإقامة الدعائم ، كانت لاتزال على مدى عينه . هنا ملاط وعمد وأحجار ! — هنا طوائف لم تكن لتستكين أو تفر بالعمر وفيها بعد ذماء من روح ، ونفثة من دم ، ونفس حياة ... ولكنها تلفتت لتجد الميدان قاعا خاليا حولها إلا من نفيرها المهشم الذى نهكته الحرب ، وأكل منه الكفاح . أما عدوهم فسبقهم إلى النصر . وأما حليفهم فهجرهم إلى المهرب ، وأما هم فرقأوا أدمع الحسرة ، وامتقوا دم الجراح ، وساروا الهوينى على محجة الموت لعل هذا الفضاء من حولهم يطلع جحفلا من الغريم المدل يبلغون ثأرهم أو يثيبهم لفاؤه الشهادة ! . . .

ولقيهم الأشتر . أولئك شوية من همدان . شباب بواسل ثم صلاب ، مزقتهم الوغى الخوانة ، وحالفتهم الخطوب فلم يغضوا لها ذلة الجباه . بالدماء ضمخوا قتلاهم . بالثرى كفنوا أحياء . فات حظهم غار النصر فآثروا وهم أعزة ركام القبور . بالرضاء والبشر والطمأنينة استقبلوا الأحيان .

وكانت لهم راية عزيزة فى الرايات ، ظلت على مدى القتال ثابتة كالطود ، رافعة كالقمة ، تطاول غيوم السماء ، لم يقصفها حدث ، ولم تمل بها محنة ، حملها رجال غير أمجاد . وركزوها فى قلوبهم فلم يدعها واحد منهم إلا وهو يودع آخر نسمة من أنفاس العمر ، ينفثها الصدر ويلفظها النحر ، ولا يتوسد على الأديم رمسه حتى يتلقفها من فؤاده قلب آخر . وحين هذا تطيب نفسه ، ويهدأ باله ، وتومض عينه ببسمة رضاء ، ثم يخر على الثرى القانئ المبلل وينام ...

دونها قتل ستة أخوة ، ثم ثلاثة ، ثم اثنان . ضمهم فى الردى التراب كما جمتهم فى الحياة الأصلاب . فلما أن خاصمت قومهم ربة الحرب ، وفنيت منهم القدم والحافر ، وتقطعت بهم عن الطعان الأسباب تهاتفوا بحسرتهم :

« ليت لنا عديدا من العرب يحالفوننا . . فلا ننصرف حتى نقتل أو نظهر ! . . »

وعندئذ لقيهم الأشتر . فأهاب :

« إلى ! . . » .

فلبوه . . .

* * *

ولم يطل به التجوال — كما أسرع الناس منذ ساعة للتفرق بادروا الآن إلى التجمع حوله كلما بلغهم نداؤه ودعواه . فلقد هدأ منهم الجأش ، وسكن الروع ، وتبددت غمة الضعف والتخاذل فما بقى منهم إلا نادم وأسيف . فى جموعهم تلك لم يكن خائن . إنما زلزلتهم البغتة ، وجمحت بهم أقدامهم عن غير وعى إلى مسالك النجاء . وإنه ليهتف فتأتيه من هنا طائفة ، وتلحق به من هناك فرقة ، وتأتلف عنده الفلول والشراذم وهى تنفض عن أردانها غبرة الخور وعن وجوهها معرة الفرار . وإنه ليمضى وشمس الظهيرة تنطلق للعصر ، فيكون سيره كميلها ، ونفره كظلها ، كلما استقدم نما نصيره واستفحل ، وكلما مالت امتد ظلها وطال ! . . .

فردا فردا جمع رجال الميمنة المدحورة ، حجرا حجرا لم جدارها المنقوض ، وشيئا شيئا راح يرسى له القواعد ويقيم العمد والدعامات . . . ولم يلبث جهده أن أجدى جدواه . فالعيون القلقة ثبت حملاقها على مواطن الخطر . والقلوب الفزعة امنت من خوف ووقع خفقها نغم الجهاد . والجوارح المرتجة فاءت للعزم فصلبت للملامح ، ورسخت السوق ، وشدت الأيدى على الصوارم . وعندئذ أخذ الأشتر بهم حيث كان زحف ابن بديل قبله ، فلا يكاد يصمد لكتيبة من عدوه إلا كشفها ، ولا لجمع صلف منهم إلا حازه . . كانت ربة القتال هاديته . كانت تسبق خطواته. كانت تفرش له الأرض بالنصر . . . أما صحبه فقد حلت لهم خمر الغلبة فراحوا يعبون من كؤوسها حتى النشوة . وأما خصمه فقد بهتهم بلاؤه ، وثبات جنانه ، وارتماؤه على الأسنة المشرعات صوبه كأنه يتعجل حينه . إذا ثبتوا له اقتحم .

وإذا انحرفوا عنه طارد . وإذا حركوا القدم للهرب كان أسبق منهم إلى منافذ النجاة يسد عليهم الخروق والمسارب . وأينما نقلوا العين فى جوانب المكان لم تقع إلا على حديدة سيفه ، الخاطفة خطف الشعاع ، المتلألئة كالماء الجارى ، الصافية كالمرآة راحت تعكس على صقالها منايام ! . .

حتى رجاله الذين جاوروه فى الحومة بهرهم صدقه القتال ... تحادث أخوان عنه وهما يشهدانه يقصف ويعصف ، فخارا فيه . قال منقذ :

« ما فى العرب رجل مثل هذا ، إن كان ما أرى من قتاله على نيته ... » .

فتساءل حمير :

« وهل النية إلا ما ترى ؟ . . » .

وعندئذ هز منقذ رأسه وهو مستريب حيران :

« إنى أخاف أن يكون يحاول ملكا ! » .

ولكنه كان لا يبتغى وجه دنياه . كان يرجو الآخرة ، ونصرة المكارم ، وإحدى الحسنيين : غلبة أو شهادة . ولقد ساقه الزحف حتى رأى امرأ من رجال الإمام يحمله نفر وهو على أكفهم خضيب ، فسأل الناس :

« من هذا ؟ » .

فأخبروه :

« زياد بن النضر . استلحم عبد الله بن بديل ، فتقدم زياد فرفع لأهل الميمنة رايته ، فقاتل حتى صرع . . . » .

ثم رأى بعد هنيهة جريحا آخر فسأل :

« وهذا ؟ . » .

فقيل :

« يزيد بن قيس ، لما صرع زياد ، رفع لأهل الميمنة رايته فقاتل حتى صرع . . »

وعندئذ غمر رضا محياه ، وقال :

« هذا والله الصبر الجميل ، والفعل الكريم . ألا يستحى الرجل أن ينصرف لم يقتل ولم يقتل ولم يشف به على القتل ؟ . . . » .

فالصبر فريضة ، والجرح فخر ، والموت فى معامع القتال مثوبة وذكر . أما الملك فنشب يفتتن الذين استذلتهم الحياة . . .

وزحف بجمعه . . .

كان ماردا على صهوة جواد . خف لحمه فكان كشبح . وطال قوامه كأنه برج ، وأفعم بدنه توثبا وحركة فلاح كثعبان . . . وكان يذرع الميدان كالإعصار الغاضب ، ويجتاح اجتياح عاصفة . لا تكاد تثبت تحته القوائم ، ويوشك من نشاطه وسرعته أن يظهر هنا وهناك ، وهناك وهنا فى آن ! .. ولم يكن همه فحسب أن يلتحم ويقتحم ، وأن يقنص ويصيد ، وأن يقسط وهو يفرق الردى على أعدائه قسمة عادلة وحصصا سواء ! . . إنما كان يرجو أن تنجاب له غمرة النقع فيشهد الخزاعى ورفاقه الذين تعاقدوا معاً على الموت وهم الآن جثى بناحية كلت منهم الجوارح ولم تذل الأرواح . . .

حينذاك كان النهار يترحل . الشمس تميل . الأصيل يلتهب . الأفق يصطبغ بالشفق فيبدو جانب السماء كالحريق . . . وكانت الأرض مسرحا لأطياف المساء الذى تقدمت طلائعه . فهاهنا بقعة قانية هى من ثرى غريق فى الدم أم انسكابة الشفق نحلتها الحمرة ؟ . . وهنا كثيب من حجارة غبر ، أفن لفحة الرمضاء أم قد مسها ظل الليل؟ .. والرمال الصفراء كانت منعكس النهار الباهت ، الذى خفت نوره وحال لون محياه ...

وتحت ظلة الغروب رآهم لصقا بالأديم كالإبل البرك بعد نصب الإصحار . فلما أن أحسوا فى جوارحهم بالقوى الزاحفة ، وحركوا نحوها العيون الكليلة ، ودبت الحياة فى أوصالهم دافقة عندما رأوا تلك الشارات من خطوط بيضاء تزين رءوس القادمين ومناكبهم ، وتنبئ أنهم من رجال الإمام ..

وتهاتفوا يسألون فى قلق :

« ما فعل أمير المؤمنين ؟ »

فأجابهم من أصحاب الأشتر من ردهم إلى الطمأنينة :

« حى صالح فى الميسرة ، يقاتل الناس أمامه » .

فرجع الفضاء بشرهم وشكرهم :

« حمدا لله ! .. قد كنا ظننا أن قد هلك وهلكتم ... » .

وقام ابن بديل يتوثب بقدميه ألف شيطان ! نسى وصبه . ونفض إعياءه . ورده ذكر على جبارا عاتيا كما كان ، يبحث عن الخطر ، يتحدى الهول . . .

وأهاب بأتباعه :

« استقدموا بنا ! . . » .

كرة أخرى عاود المغامر مجازفته . وجه بصره إلى القبة البيضاء ، وسيفه ، وقلبه الذي كان يضطرب بالمقت والزراية ... وعلى أثره سار رفاقه يستبقون الطريق ، ويوسعون الخطى حسبما أمكنتهم الجسوم المنهوكة ، وحمى الجراح ... وكانوا قد تساندوا بالمناكب ، يدبون دبة رجل واحد ، ورجل واحدة ، وقلوبهم في جنوبهم تطفر شوقا إلى الردى أو الظفر . وكان الخزاعى علمهم ، خلفه انطلقوا ، ومشماهم ، قبلهم مضى يشق المجهول ، وعندما أتاه تحذير الأشتر : « لا تفعل ! . . » ابتسم ، ولم يضق ذرع خطاه ... وعندما جاءه نصحه : « اثبت مع الناس فهو خير لهم وأبقى ... » أبى السلامة ، وزود قدمه الزاحفة بجناح ! ..

وعبر لقدره ، دونه من عدوه سياج من المقاتلة كالغاب . جند ضخم تكاثفت جموعه تكاثف الظلمة في الليالى المطيرة . صفوف كالموج . فبأى سيفيه أصاب ، وكم من رقاب ؟ .. كان كزورق ، وكان حسامه كجذاف ملاح . كلما خاض لجة برزت لجة فتحرك هذا وتحرك ذاك وانساب القارب على التيار الأحمر ؟ ..

ثم بدا الشاطئ فإذا هو وعر تحطم الزورق على صخوره ! .. على مدخل القبة البيضاء . على مرساه ! .. فلم يكد يخلص إلى معاوية حتى زلزلت جرأته أولئك الذين أحاط جمعهم بماهلهم فذهلوا عنه ، وغدوا عيونا جوفاء وأكفا مشلولة ! كانوا في مثل حلم . كانوا رجالا كظلال . ولكن حرارة الحياة التي هجرتهم بغتة وتركتهم مسوخا صماء كالأصنام ، تركزت كلها في حلق ابن هند الملوع ، فراح يصرخ :

« ويلكم ! .. الصخر والحجارة إذا عجزتم عن السلاح ! .. »

فردهم إلى الوعى صياحه ...

من كل جانب تطاير الصخر والحجر إلى ابن بديل ليسلبه عمره . قذائف قذائف اندفع نحوه ! ورجما ورجما غمره بطوفان . ما من رجل منهم مشى إليه مشية جندى بسيف أو حربة . ما من امرئ جرؤ فداناه . إنما تناولوه عن بعد بهذا النوع من العدة الذى يكفيهم لقاءه ويكف عنهم شرة حساميه ، كأنهم

فى غمرة ، وكأنه إبليس يحصبونه بجمرات ! .. وحين أوهى قوى وناء ، وفته الصخر والحجر ، ورقد جسده الهامد كومة من مزق ودماء ، هتف معاوية برجاله وقد فاءت نفسه إليه :

« انظروا من هو ... »

قالوا :

« ابن بديل » ! ..

فأقبل نحوه يمد يده ليرفع غطاء كان قد ألقاه عبد الله بن عامر على الصريع . وعندئذ ابتدر دمع ابن عامر ، ثم صلبت ملامحه ، ثم رد اليد الممدودة ، بعنف وقسوة وهو يزأر :

« لا والله ، لا يمثل به وفى روح ! .. »

قال معاوية وقد هزته عزمة رفيقه :

« اكشف عن وجهه فإنا لا نمثل به .. قد وهبتهُ لك .. »

ثم ألقى بنظرة على المحيا الشائه ، فيها شماتة وفيها إكبار ، وهمس يقول :

« لو استطاعت نساء خزاعة أن تقاتلنا فضلا عن رجالها لفعلت ... والله ما مثل هذا إلا كما قال الشاعر :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها
وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

ويحمى ، إذا ما الموت كان لقاؤه
قدى الشبر .. يحمى الأنف أن يتأخرا

كليث هزبر كان يحمى ذماره
رمته المنايا قصدها فتقطرا »

ومضى إلى قبته ...

ورقأ ابن عامر دموعه ، ثم جر على محيا الراقد الهامد الغطاء ...

٤

حق الأصيل . كانت الوقعة مضطربة السمات ، خليطا من تقهقر وصبر وإقدام ، خطوطاً مختلفة ، رفيعة وعريضة ، ذات معالم من هزيمة ونصر ، ومد وجزر ، كتلك الخطوط التى راحت الشمس فى غروبها تصبغ بها جوانب الأفق بريشة الشفق ، فيتجاور فيها النهار والليل ، الضوء والظل ، صفاء اللآلئ وعتمة العنبر ، وتنبثق منها أشعة الطيف كنثير اللجين والتبر ، وتنظيم اللازورد والمرجان . . .

فى الميمنة ذهب الأشتر يرمم ويقوم . . . وفى الميسرة ثبت على يناضل ويصاول ، بغير ظهير ولا سند سوى هذه الطائفة من ربيعة التى دقت القدم فى الأرض ، وألصقت السلاح بالأكف حتى لاح كل واحد منها كأن له إصبعا سادسة هى الرمح أو العنزة أو السيف ! . . . من اعتدال النهار لغروبه ، من الضحوة إلى الغسق ، والمساء لما تنتشر ظلاله ، وقفوا جميعا يقارعهم الموت ، وينازعهم الثرى الذى وطئوه حبة حبة وحصاة حصاة . ولكنهم غالبوه بالعناد وإن لم يكاثروه بالأعداد . ما كان لامرئ حينذاك أن يقهرهم . لاقبل بهم لقوة ، وقد تحصنوا دون عدوهم ، بالإيمان يدرأ عنهم عادية الخوف وهى أفتك بالنفوس من أسنة النضال .

وسأل الإمام حين دفعه تيار الوقعة إلى هذه الفئة الصابرة ، التى ثبتت للموت :

« لمن هذه الرايات ؟ . . »

قالوا :

« رايات ربيعة »

فدعا لهم وهو يكبرهم :

« بل هى رايات الله . . . عصم الله أهلها . وصبرهم ، وثبت أقدامهم . . »

ثم أشار إلى غلام حدث منهم ، كان يرفع رايتهم الحمراء :

« يا فتى . . . ألا تدنى رايتك هذه ذراعا ؟ . . »

« نعم والله ، وعشر أذرع ! . . . »

وقفز يتقدم . ثم قفز ليغوص فى جحافل العدو الكثيفة بغير مبالاة ، وقد

أذهلته الحماسة عن الناس ، ومواطن الردى ، ومهاوى الهام . . لكنه سمع عليا من ورائه يحذره :

« حسبك ، مكانك ! . . . »

فثبت حيث قام . وثبت خلفه رفاقه لا يتخلل صفهم مغير ، ولا يهزم عن مواقع القدم مغامر . ناضلوا على الباع والذراع ، وعلى الشبر والفتر ، وعلى الحبة من الثرى والرمال . ولم تختلهم قط عن صبرهم تلك الحيل التى انتفخت بها جعبة ابن هند وود لو أبلغته هدفه . . فأنى له أن يختل ويخادع ، وأن يراوغ ويحتال ، والإمام على بصيرة من خافية ضميره ، لم يغب عنه أسلوبه فى التمويه ؟ . .

من قبل ومن بعد جرد معاوية خيله ليبعد الخطر عن نفسه ، وليخذل الناس عن على ، وليأتيه من حيث يأمن البغتة أو ترق خطوطه فى مواقع القتال فلا تستعصى على الثغرة . بالمال . بالمنصب . بالغرور الذى يستأسر قلوب الرجال . بكل وسيلة وحيلة احتال . . .

أنت تراه حين يوقن أنه بات غرضاً واضحاً ترصده الأعين ، وهدفاً بينا تسعى إليه المنايا الظمآنة على شفرات بضعة من المغامرين فى معسكر الإمام ، قد حصن نفسه عن النوازل الداهمات فنأى عن الميدان بفسطاطه . ثم اتخذ سياجا من الحماة . ثم أمعن فى الحيطة فقدم فارسا من مواليه شبيها به ، كان يلبسه مثل ثيابه ، ويزوده بمثل عدته ، ويقدمه فى الغمرات لعل الأعين العادية والأسنة المشرعات أن تنخدع فيه . .

وأثمر حقا هذا التمويه . فكان الناس حين يخطر أمامهم حريث يتهامسون بغير تردد : « ذاك معاوية ! » . . وكان العاهل طيب الخاطر بحيلته . وكان دائم النصح لفتاه ، دائب الحرص عليه ، ففى سلامة مولاه أمان له هو نفسه وضمان لحياته . وكان كلما رأى دفعه إلى الميدان حذره قبل أن تنطلق فى غمرة الصراع قدماه :

« يا حريث . . . اتق عليا ، وضع رمحك حيث شئت . »

لكن الغرور أرداه ! — أردى الغلام المدل المختال الذى ود سيده لو ادخره واستأخر بأجله بعد هذا اليوم . ولغير هذه الداهمة القاصمة التى أتت بحينه ،

ورسمت اللحظات الأخيرة من عمره بكف صناع دون حذقها ودربتها جمحة الخيال وشطحة الأساطير ! . .

وكان الشيطان دليله . . مضى يهون عليه ، ويزين له ، ويلون قدره بكل زاه وبراق حتى هانت الأخطار ، وخفيت عنه قيم الأقدار . فلما انتفخ سحره ، وورم صدره ، ومال خده من الكبر ، أقبل يمشي على خيلائه وكأنما الدنيا تضيق عن خطوه ! . .

وكان عمرو شيطانه ! . .

قال له ابن النابغة يغريه :

« إن رأيت فرصة فاقتحم ! . . »

وكان علي حينذاك على رأس جنوده . . .

ثم قال ثانية :

« . . . إنه كره أن يكون لك حظها . . . »

« من ؟ . . »

« معاوية ! . . إنك والله يا حريث لو كنت قرشيا لأحب صاحبك أن تقتل عليا ! . . لكنه كره أن — »

فصرت أسنان الفتى من الغيظ . . . وفح فحيح ثعبان :

« كره ! . . »

« فإن رأيت فرصة فاقتحم ! . . »

فاقتحم ! . . ولم يكن بالجبان الرعديد ، بل كان ذا بأس ، جلد القلب . شديد البنيان ، له ساعد دوار يطيعه سلاحه ! . .

وصاح المغرور :

« يا علي ، أقدم ! . . »

فإذا هي آخر دعواه ، وكل ما لفظه حلقه من علائم الحياة ! . . حتى النفس لم يتردد بعدها فيه ، ولا كان له رجع . وحتى خفقة القلب التي ختمت عمره لم يهتز بها إهابه . وحتى اختلاجه العين وهي تظلم لم تختلج لها أهدابه . . . إنما هي كلمة رفع بها الإمام صوته ، يسخر ، وهو يقبل عليه : « يا أيها العبد الغرير — اثبت ! » . . فإذا الغلام قد ثبت . ثبت كيانه على الأديم المبلل بدمه . على باب

رمسه ! . . هو في الحق لم يثبت وإن همدت منه أعضاؤه ، وسكنت أنفاسه ، وصار جيفة يرنو لها الوحش والطير . لم يرقد بدنه على الأرض وهو جميع . لم يقع وحدة موصولة إلى وطائه . إنما تفرق . تمزق . انفلق جسده كحبة الفول : رمة في اليمين ، ورمة في اليسار وقد شطرته الضربة ! . . .

فأى المشاعر خالج الآن نفس ابن العاص ؟ . . الأسى أم الأسف ؟ . . الألم أم الندم ؟ . . أم الذى كان أدنى إلى طبعه غير هذا وذاك من عواطف وخلجات ؟ . . إنه لم يكن غافلا عن خطر على ، ولا هو حين أغرى الغلام ، كان يرجح أنه سيظفر . إنما أراه كان يعلم أن الحرف فى وسوسته ، واللفظة فى تغريره ، وكل ما احتواه أسلوبه الزائف المذاع هى جميعها إبرة تحيك كفن حريث ومعول يشق الثرى له عن قبر غائر يتوارى فيه ! . . ومع ذلك فلا عن ضغينة للفتى نزغ نزغه ، ونفث نفثه القاتل المسموم . .

لا لنقمة ولا لثأر . ولكنه كان رجلا يعرف نفسه ويعرف حليفه . وكانت نفسه هى بضاعته . وكان حليفه هو شاريها . فلو تعددت معها السلع فى سوق البيع ليخسها معاوية ، أو زهدها ، أو هان شأنها لديه . .

بهذه النظرة الثاقبة الحاسبة كان عمرو يقيس العلاقة بينه وبين ابن هند . فالصالح الذاتى وحده هو مؤلفهما على هدف ، وجامعهما على غاية . وبقدر حاجة الواحد منهما لصاحبه يتوثق العقد ، وبقدر تغانيه عنه ينفرط . . ولقد أيقن ابن العاص دائما أن الزمن الذى أوشك أن يحقق له أطماعه إذ جعله ناصحا لسيد الشام لن يظل إلى الأبد فى ركابه إلا أن يؤمن التابع بفضل المتبوع ، ويعرف قدره ، ويقدر خطره . وما كان معاوية ليؤمن مثل هذا الأيمان حتى يهبط درجة من سمائه ، وتنتقص أطراف خيلائه ، وتقفز الأرض حوله من الأعلام والمشارف التى تخفى حليفه الوصولى عن عينيه ! . .

أدنى إلى طبيعة ابن النابغة إذن هذه الشماتة التى أراقها ثغره ، ذلك اليوم ، وحريث يدنو إلى حافة قبره وهو غرير . . فهو علم يندك . وهو مشرف ينهار . وهو ريشة فى قوادم الصاهل أو خوافيه حين ينتزعها الموت ستعوق الباشق أن يحلق ويستطير ! . . وما كان عمرو ليرجو أن يوهن من قوة وليه إلا بالقدر الذى يخفضه به إلى مستواه ، فيقهره على اللجوء دائما له ، والتعويل عليه . .

حتى حينما كان يسمى إليه بالرأى ، كان يبطن الشورى بعسكره ، ويعزجها بما ينال من كبرياء العاهل المستشير واستعلائه . فلم ينقط عن غمزه ، وعن كشف هناته ، وعن تهوين شأن نفسه عليه ، هو الولع دائما بأن يبدو الأريب اللبيب الذى يختل المكر ، ويفتل النكر ، وتعنو له جباه الدهاة ! . يخرج على أليه ذات ساعة من القتال ، يناديه :

« يا معاوية ... »

ويكررها المرة بعد المرة ، والعاهل مجفل عنه لا يزيد على أن يقول لمن حوله :

« اسألوه ما شأنه ... »

« أحب أن يظهر لى ... »

عندئذ يدفعه عمرو إلى ما بين الصفين وهو فى الأغلب كاره ، ليسمعا الدعوة ...

« يا معاوية . ويحك ! ... علام يقتتل الناس بينى وبينك ، ويضرب بعضهم بعضا ؟ ...

فيرجه العجب .

ثم يصغى لغريمه

« ... ابرز إلى ، فأينا قتل صاحبه فالأمر له ...

فيرجه الخوف ! ..

ثم يسأل حليفه :

« ما ترى يا أبا عبد الله فيما ها هنا . أبارزه ؟ ... »

« اغتنمه منتهزا ! ... »

« ويحك ! ... »

« أنصفك الرجل ... »

فيكاد حلقه يغص بألفاظه الحيرى المكتومة ، وهو مشدوه :

« يا عمرو بن العاص ؟ ... »

« ... إن نكلت عنه لم تزل سبة عليك وعلى عقبك ما بقى عربى ... اغتنمه منتهزا ! ..

غير أن وسواسه لم يغلب ابن هند على حرصه ، ولم يلهه عن تبين القبر الذى

يضفر فاه على قيد الخطوة : إنها قدمه ترتفع ، ثم تنحط ، ثم لاتسكون الحياة ! ...

وصاح معاوية فى مشيره اللئيم :

« ما أحمقك ! ... ليس مثلى يخدع عن نفسه ... والله ما بارز ابن أبى طالب رجلا قط إلا سقى الأرض من دمه ... إن تريد إلا أن أقتل ! ...

وحفظ معاوية بقية أجله ..

وضحك على ...

وسخر عمرو :

« إيهاً أيها الرجل ! ... أتجبن عن خصمك ، وتتهم نصيحك ؟ ..

ثم انتفخ حتى حسب أن قد ضاق به مكانه . واكتسى محياه مسحة من خيلائه وهو يملق لأميره فى اعتداد وصلف :

« والله لو علمت أنى أموت ألف موتة لبارزت عليا فى أول ما ألقاه ! ... ولكنها سخرية عابث ونفخة مغرور ، فلم يمهله القدر حتى سلخ عنه إهابه الزائف المرقش وتركه عاريا أمام النواظر الزارية النقادة ... عاريا بدخيلته ، وعاريا بسوأته ، وبين هذه وتلك لا فرجة لفخر بطل ولا لعجب مختال ! ... فلقد خرج يجتلد ، والرحى تدور ، فكادت النخوة ، وحمى الحرب ، ونجمه العاثر العاثر تقع به تحت كف الإمام . عند هذا تبدد الكبر من نفسه ، وجفت الخمر فى كأسه ، وغدا بدنه وذهنه وعينه جميعا مطايا له ذات أجنحة تطير بعمره إلى نجوة بعيدة ...

وأقبل على . إن رأى فالخطر ، وإن دنا فالحمام ، وحينذاك لن ترده الصوارم القواطع عن رقيق دنياه ! ... وقد رأى . ثم دنا . ثم هم أن يدهم . فإذا ابن العاص أسرع بالحيلة من دهمة الداهم ، وضربة الباتر القاصم ... إلى ملاذ الحياة ... الداهية الخبيث تفزعة المهجمة ، فيلقى بدرعه ، ويلقى بسيفه ، ويلقى بنفسه تحت قدمى غريمه مفلول الحول ، مكشوف السوأة ، كله ضراعة ووهن ومذلة ...

ويأبى الإمام أن يلوث يديه بدم أعزل خافض الجناح ، تكرما وعفة ، فيخليه ..

ويقول الناس :

« أفلت الرجل يا أمير المؤمنين . . . » .

فيبتسم لهم :

« وهل تدرون من هو ؟ . . » .

« لا . . . » .

« فإنه عمرو بن العاص ، تلقانى بعورته فصرفت وجهى عنه . . . » .

وعندما رجع الرجل إلى معسكره ببقية أجل سبحت ناجية على ماء حياته ، سأله هناك صاحبه الشامت وهو لا يكاد يكتم سخريته :

« ما صنعت يا عمرو ؟.. » .

فلم يرده الخجل عن جوابه :

« لقينى على فصرعنى ... » .

وضحك معاوية . ما خفى عنه استخزاء رفيقه ، ولا هذه الملامح من الضعة والهوان ترهق وجهه بغبرة عاره وإن غشاها بنقاب خادع من الجمود ...

وزجى حديثه له بعد قليل ، رفيقا لينا كوجه اليم فى يوم صائف ، الصفاء على السطح ، والشوائب فى القاع ! ... قال وظاهر لفظه الفرحة بنجاته ، وباطن مدلوله السخرية :

« احمد الله ، وعورتك ! . . . » .

فثار ابن العاص وقد وخزته الغمزة :

« ما أشد تغبيطك عليا فى أمرى هذا ! . . وهل هو إلا رجل لقيه ابن عمه فصرعه ! . . . أفترى السماء قاطرة لذلك دماء ؟ . . : »

فكانت الكلمات الوانية التى أرسلها العاهل الساخر ، فى تماوت وخبث :

« كلا . . . ولكنها معقبة لك خزيا أبا عبد الله ! . . » .

على أن هذه المساجلة بالمثالب بين الرجلين ، الحليفين الغريمين ، لم تكن لتفسد عليهما الألفة التى خلقتها المصلحة ، ووطدتها عبادة الذات . . . إنها اصطراع الموجة والموجة لا يعقد بهما عن التهاوى إلى الشاطئ الوسنان والاعتناق فوق فراشه الرملى الناعم . . . إنها سباق إلى التفوق بالجنان واللسان ، وبالدهاء والذكاء ، وبالزهو والخيلاء . . . إنها رياضة ذهنية مارساها وهما معا على بينة

من أهدافها ومراميها التي لم تكن قط لتحيد بالعين عن المرمى الأكبر ، والهدف الأوحد الذي رمقاه . . .

ذلك وحده غرض الشوط وغاية المباراة ! . . فما كان عمرو جادا حين راح يدفع إلى المبارزة صاحبه وهو يعلم أنها دفعة إلى فكي الأسد ودعوة سافرة للموت ! . . ما كان ليغفل أو يفقد على الأثر هدفه ، ومأرب حياته ، ومنتهى المأمول من دنياه . إنما عمل كمهده ليبدى سوأة الضعف فى معاوية ، ويضعه حيثما يجب أن يكون . وفى الفترة التي انعقد خلالها بينهما الحلف ، كان الرجلان فرسى رهان نحو السكر ، يحاول كل منهما أن يسبق رفيقه ، وأن يغلبه بحيلة . أن يركبه بخدعة تنال من كبريائه ، وثقته بنفسه ، واعتداده بنصيبه الموفور من الذكاء والدهاء الذي ظن أنه يبوئه مكان الصدارة بين الدهاء والأذكياء . . . ومع ذلك فلم يدخرا الوسع فى إيقاع على بشراك من الغدر محبوكة ، أملا أن تسد عليه المنافذ أو تزم الفروج لتوهن منه كلما أعياهما أن يلقياه جهرة لقاء أكفاء . . . وهما هنا والوقعة تضطرب ، والحرب تحرب ، وكفتهما فى مجال الصيال أثقل : بصف أثبت ، وجند أوفر وأغلب ، ونصر أدنى وأقرب ، يضمان معا أصابعهما العشرين . لتبتدع للإمام المزالق وتحفر الحفر ، وتنسج الأحابيل ... إنك تشهد لهما ظلا ينشر سواده على كل عمل يطوى خدعة وإن غلفاه بالنبل ، وموهاه بالمروءة ، ولفا لبة القتال بثوب خاتل من الكرم والأريحية بجلد الحية الرقش البراق ! . . يرسل عبد الله بن حنش رأس خثعم الشام إلى أبى كعب الخثعمى نصير على ، يحاول أن يفسد ولاءه :

« ... لو شئت تواقفنا فلم نقتتل . فإن ظهر صاحبك كنا معكم ، وإن ظهر صاحبنا كنتم معنا ولم يقتل بعضنا بعضا . . . »

لكن هذه المداجاة لم تخدع أبا كعب عن حقيقة الدعوة . فالظل بين . والنبل البادى الذي يقدس وشائج النسب والقرابة ويأبى لها أن تتمزق كان يشف من تحته عن تنكر للعهد وخرق للذمة . فما هو بحياد أريد به وجهه ، لكنه فى صميمه تخذيل عن الإمام ، وإغراء لأعوانه لينفضوا عنه . ولن يضير معاوية بحال ، وهو الأعز بالنفر والعتاد ، أن تنجح دعوة ابن حنش ، وتغمد خثعمة السلاح ، بل الغرم محيق حينذاك بعلى على أية حال . . .

وفشلت الخدعة ، أو فشلت خرافة الحياد ، ولم يحول من قلوب خثعم العراق عن أمير المؤمنين وقوف زعيم قومهم بالشام بيدى أسفه ، على ملأ من الفريقين ، ويتحدث لطائفته بلسان من ينشد السلام والحرص على صلات الأرحام :

« يا معشر خثعم ... قد عرضنا على قومنا من أهل العراق الموادعة صلة لأرحامهم ، وحفظا لحقهم ، فأبوا إلا قتالنا ... فكفوا أيديكم عنهم ما كفوا عنكم . . . »

ورد أبو كعب وهو يزحف بفريقه :

« يا معشر خثعم ، خدموا . . . »

قال ابن حنش ليثنيه :

« يا أبا كعب ، الكل قومك فأنصف . . . »

فما رد توسله . إنما انطلق وشرعة الحرب ، وواجب الولاء لإمامه ، يخوض المنايا غير ناكل عن قصده ، حتى فرغ دون بقية الصراع أجله ، فحاز الشهادة . .

وعندئذ بكى عليه قاتله ، وضمخ جسده الطعين بالدموع والحسرة :

« رحمك الله يا أبا كعب . . . لقد قتلتك فى طاعة قوم أنت أمس بى رحما منهم ، وأحب إلى نفسا منهم . ولكن والله ما أدرى ما أقول ولا أرى الشيطان إلا قد فتننا ، ولا أرى قريشا إلا قد لعبت بنا . . »

ثم لعبت أيضا الأصابع المشيرون لعبة جديدة ، أفدح وأخطر ، وأبعد أثرا فى تقويض دولة على وهدم سلطانه . . . فما تضعضعت أركان ميمنته ، وأضحى جيشه فرقة تذهل ، وفرقة تنكل ، وفرقة تؤثر الأجل فتهرب وتبور ، حتى سعى عبيد الله بن عمر إلى الحسن بن على يغنيه :

« إن أباك قد وتر قريشا أولا وآخرا ، وقد شنئوه . . . »

وكان قد وترها حقا الإمام وترها وهى فى شركها غارقة ، قد عنت للحجارة الصم وأبت أن تسجد لله . ووترها وقد صفت للإسلام ثم ملكتها الفتنة فخفضت لجاه الحياة الجباه ... فى بدر كما فى الجمل ، وفى أحد كما بصفين . وبين هذه وتلك كانت الترة بالدم ، والترة بالعلم ، والترة بالمحامد الزاكية والمكارم الرفيعة التى حسدت يوما عليها محمدا وهو مستضعف ، فلما ظهر ، وعلت به كلمة الله ، وآوى

الشارد لظله ، وجدت ضغائن القلوب المقروحة معدى عنه إلى صفيه النبيل تناله بالحقد والأذى والمكيدة . . .

وأكمل ابن عمر مراودته :

« . . . فهل لك أن تخلفه ونوليك هذا الأمر ؟ . . »

فصاح الحسن وقد لدغته عقرب الخيانة :

« كلا والله ، لا يكون ذلك ! . »

ثم تفرس مليا فى محدثه الغرر المغرور ، بنظرة تفيض بالترفع ، يقطر منها ذلك السم الذى خرق أذنيه ، وقال بامتهان وزراية :

« ... أما إن الشيطان قد زين لك ، وخدعك حتى أخرجك مخلقا بالخلوق ، ترى نساء أهل الشام موقفك ! . . . يا ابن عمر ، سيصرعك الله ، ويبطحك لوجهك ، وكأنما أنظر إليك مقتولا فى يومك أو غدك . . . »

وتركه بعد ساعاته ! ..

٥

حان العمل بعد الحيلة ..

الآن كفة معاوية ثقيلة . ميمنة على ما تزال فلولا يحاول أن يلم الأشتر شعثها من هنا ومن هناك . عن قلبه مولية . مضر الميسرة متخلفة عن مواقع القتال . . جموعه مفرقة ، وخطوطه ممزقة ، وليس يمسك المركة أن تنجلى عن هزيمة ساحقة إلا جلد الإمام واصطباره

ونادى ابن عمر فى طائفة من الميمنة الأموية ، وهو يومىء لهم إلا ربيعة :

« يا أهل الشام .. إن هزمتم هذه القبيلة أدركتم ثأركم فى عثمان ، وهلك على وأهل العراق . . . »

فشدوا القامة ، وهزوا الحسام ، وخرجوا معه ، معلين بالحضره

كانوا أعداء حمير ، عليهم ذو الكلاع . قد حرك فيهم معاوية تلك المواجد القديمة التى انطوت زمنا فى قلوب أمثالهم من عرب الجنوب على عرب الشمال . وكانوا نفرا وأربعة آلاف ، تعاقدوا معا على الفناء أو النصر . وكان النهار حينذاك

فى اعتداله ، الأفق ضياء ، والأرض رماد ، والنسمة لهب . لا تكاد وجوههم تصافح إلا لفحة ، وأقدامهم تطأ إلا جمرة ، وعيونهم ترى إلا قطر العرق الذى تجمع على أهدابهم ضبابا كثيفا اختلطت به حبات الرمل .

ولم يكن الجهد قد نال منهم وإن تبدى على ملامحهم القاسية بعض رهبة الموقف ، وبعض مشقة الطريق ، وبعض جد القتال لم يضيقوا الخطوة . ولا تهيبوا اللقاء . ولا خطر ساعة بأخلادهم أنهم يزحفون فى باطل . حتى ذو الكلاع لم يضطرب بالقلق فؤاده . . قبل نهوضه لهذا المسير ، من ليال ، كان الشك يحزه ، ويدمى ضميره ، ويوشك أن يشد قدمه إلى طنب فسطاطه ، ولكنه اليوم ، إذ زحف ، غسل من الحيرة نفسه ، ومن الريبة قلبه ، وبدد عن خاطره سحائب القلق فطاب . .

وردد الرجل بذهنه حديث ليلة فى الليالى أوشك حينها أن يفتنه عن أهل الشام ، وعن معاوية وأهدافه ، ويلوى به وبقومه اليمنية وراءه إلى مظاهرة على والانحياز لصفوفه . . وكان ذلك ذات أمس قريب . وكان مبعث التردد حينذاك كلمة جرت فى الغابر بسمعه ، من بضع سنين ، ما كاد الزمن يعكس لفظها على ذاكرته حتى مشت الرعدة بأوصاله ، والحيرة بصدره ، والألم العاصف النابض فى محياه . . .

إن تكن هزيمة فالهزيمة فى الله نصر . وإن يكن نصر فالنصر فى الخطيئة هزيمة ... وذو الكلاع لا يجب أن ينام على ريبة أو ينطلق شوطه وهو عن الحق مخدوع . ليس بجمل يقاد بخطامه . ليس أداة صماء ... ولئن ربطته بمعاوية روابط من الود والولاء والعهد ، فدينه أولى بولائه ...

وبعث ذلك اليوم إلى ابن عمه ، أبى نوح ، حليف الإمام ، يستقدمه ليبثه همه ، ويلتمس لديه راحة الروح :

« إنى أريد أن أسألك عن أمر فيكم تمارينا فيه . . . »

فلما أقبل عليه ، بعد استئمان ، قال ذو الكلاع له :

« إنما دعوتك أحدثك حديثا حدثناه عمرو بن العاص ، قديما ، فى إمارة عمر بن الخطاب . . . »

فسأله ابن عمه :

« وما هو ؟ . . . »

« حدثنا عمرو عن رسول الله قال : يلتقى أهل الشام وأهل العراق وفى إحدى الكتيبتين الحق وإمام الهدى ومعه عمار . . .

قال أبو نوح فى ثقة ، وقد توجهت عيناه :

« لعمر الله إنه لفينا . »

« أجاد هو فى قتالنا ؟ . . »

« نعم . ورب الكعبة لهو أشد على قتالكم منى . ولوددت أنكم خلق واحد فذبحته وبدأت بك قبلهم وأنت ابن عمى ! . . . »

عندئذ هتف ذو الكلاع وهو مفزع مهموم . قد زلزلته لهجة الحسم فى حديث صاحبه .

« ويلك ! . . . علام تتمنى ذلك منا ؟ . . والله ما قطعتك فيما بينى وبينك . وإن رحمك لقريبة ، وما يسرنى أن أقتلك . . . ؟

فلم يعطف فزعه ولين خطابه قلب هذا القريب الغريم الذى لا يداجيه . بل صمه ثانية يعنف ويلهب وجهه وقلبه بسوط الصراحة :

« إن الله قطع بالإسلام أرحاما قريبة ، ووصل به أرحاما متباعدة ، وإنى لقاتلك أنت وأصحابك . . . نحن على حق ، وأنتم على الباطل مقيمون مع أئمة الكفر ورءوس الأحزاب . . . »

واهتز فزع الحليف الأموى . وغدت قدمه كأن على ماء ! . . ما لعينيه غامتا ؟ . . ما لبدنه وهن ؟ . . ما لقلبه خار ؟ . . إنه حديث عمرو . ذات ألفاظه . من ذات شفتيه وإن بعد العهد وكرت عليه الأعوام . . . أفلا يؤمن الآن ، ويفىء إلى جانب الهدى وقد وضحت المعالم ؟ . .

وصاح بابن العاص وهو مستوحش :

« ويحك يا عمرو ! . . »

فخفته الخاتل الداهية . وأشرق عليه بوجه رائق فيه تألق الشعاع الهادى ، وصفاء النبع يتفجر من صخرة ، وطهر الوليد . . . وكانت بسمة ناعمة كلمسة النسيم تمسح شفتيه ، وصوته الخافت الرقيق ينساب :

« إنه سيرجع . . . سيرجع إلينا ويفارق أبا تراب . »

ولم لا ؟ . .

بلى ، فهذه سمات يقين ، وعلائم إيمان . والغد القابل القريب سيكشف الغطاء . .

وتفكر مليا الرجل الحائر . . الريبة تقبل عليه مرة ، وتدبر مرة ، تغيم وتقلع كأنها سحاب ليلة ذات ريح . تخف عن قلبه وتثقله . . . فإن يكن كذب ابن العاص ، فعلى نفسه عقبى كذبه ، ووبال هذه الفرية التى أول بها رأى محمد فأساء التأويل وخادع وخذل عن قدر الله . وإن يكن صدق فليست هذه أول مرة يصبأ فيها من هنا رجل ، ويثوب فيها من هناك آخر . . طوال الليالى التى عاشتها المحنة الدامية فوق أرض صفين ، كان الكثيرون على شبهة ، يستبدلون بالفكرة الفكرة ، وبالمعسكر المعسكر ، وبمعاوية وعلى عليا ومعاوية . وقد يصبح الصباح فيتابعهم عمار ! . . .

هنا استشعر بعض طمأنينة . . . إن هذه الحرب حرباء ! . . غير قلب ذات ألوان . أرته الأضداد والنقائض بدهته بالغريب والعجيب . الحق فيها حيران قارب تائه . بلا شراع . وبلا ملاح . الرياح سكانه . والموج ربانه ، وهذا الشاطىء الدانى كذلك الشاطىء البعيد . كلاهما بسط رجاءه ، ومهد رمله وحصباءه ، ونحى وعره وصخره ، وفتح صدره ينتظر أوبة الشريد ! . .

ثم نام الليلة فى أحضان رجائه ! . . وحلم وأصبح . وأضحت الضحوة عليه وهو مستبشر . فابن ياسر الآن منهم قريب ، على رمية رمح : على قيد النظرة من الأمل حالفهم النصر وفرت أمامهم عوامل الهزيمة فرار الظلمة أمام الشعاع . فما الباطل بغالب . وما الأمر إلا ساعة أو بعضها ثم ينبلج الحق ، ويفىء أهله إلى ظله ، ويقبل عليهم عمار من هناك ، يدع الظلمة ، ويجتني النور . . .

إنها أمانى . رؤيا حالم . آمال غرير مخدوع . ولكنها ليست وحدها ما أراح باله . فعدة الظفر فى عينه ، والغلبة لها سفراء ورسل بعث جم معاوية للمعسكر الآخر ، يعبدون الطريق لجيشه ، ويكشفون القلوب لسلاحه ، وينفثون السموم فى الصدور . . .

وكانت الخيانة من رسله ! .

ثمة رجل فى عينه الآن مفتاح الوقعة ، وغاية الغايات من ذلك الصراع الناشب الذى تهيأت حمياه تأكل الظلف والقدم ، كما يحرق اللهب الحطب وتذرو الزوابع الهشيم . . .

وثمة آخر توطدت له بين أهل العراق الكلمة ، وتمكنت فى عنها السيادة . وكان لقومه فى الغابر ملك ترنمت العرب بأخباره ، ولهجت بذكره وسيرته حقبة من الزمان . . .

وكان أولهما من الشمال . من ربيعة التى تثبت اليوم للهول من دون الناس ، تدفع عن على بالسيف وبالكف ، بالروح وبالقلب ، بالظفر وبالناب ، وإن تفرق عن نصره الحماة وتقطعت به عن مناجزة خصمه ، القوى الوفير ، الأسباب . . .

وكان ثانيهما من الجنوب . ما زال بنفسه بعض الولاء للإمام ، والإقامة على عهده . ولكنه امرؤ به زهو ، وآثار عزة وكبر تخلفت عن أسلافه الملوك من كندة الذين راوده ذات يوم شيطانه على امتشاق صولجانهم البالى ، ووضع تاجهم المحطم الدارس على مفرقيه وإن ارتد وخلع الإسلام ! . .

لهذين الكبيرين زحفت الخيانة !... لخالد بن المعمر صاحب اللواء فى ربيعة ، وللأشعث بن قيس صاحب الأمر فى كندة ، وكلا الرجلين كانت لهما يد من بعد فى مصير الصراع . . .

وكانت البذرة الأولى الخبيثة ، التى ألقاها معاوية فى الأرض الحمئة ، يوم دعا إليه عتبة أخاه فناجاه :

« ائت الأشعث بن قيس ، فإنه إن رضى رضيت العامة . . . »

فخرج عتبة إلى صاحب الردة يدعوه ، والناس حينذاك قد أكلتهم الحرب ، وجنحت أنفس منهم إلى رخاء السلام .

« أنا عتبة بن أبى سفيان . . . »

فزها الحالم أمسه بتاج الجنوب ، وقال :

« غلام مترف ، ولا بد من لقائه . . . »

واستقبله ، يسأله :

« ما عندك يا عتبة ؟ . . »

قال باذر الحبة الخبيثة وهو يهيئ لها من صدر المدل المغرور مغرسها الصالح:

« يا أبا محمد . . . إن معاوية لو كان لاقيا رجلا غير على للقيك . . . »

« إن لقيني والله لما عظم عنى ولا صغرت عنه » .

فثنى عتبة عليه بالمصانعة والنفاق :

« . . . إنك رأس أهل العراق ، وسيد أهل اليمن ، وقد سلف من عثمان إليك ما سلف من الصهر والعمل . ولست كأصحابك ... ... »

ولقد كان

فهو عامله قديما على أذربيجان . وهو صهر له ، ربطهما النسب ، منذ زوج ابنته عمرو بن عثمان بن عفان . فكادت الصلة : عملا ونسبا تميل به — لولا أن عيره قومه — إلى مظاهرة الشام وابن هند على العراق والإمام

ورد والنخوة تحرك لسانه :

« .. الرأس المنيع والسيد المطاع على بن أبي طالب ! ... وأما ما سلف من عثمان إلى فوالله ما زادني صهره شرفا ، ولا عمله عزا ... وأما عيبك أصحابي فإن هذا لا يقربك مني ، ولا يباعدني عنهم .. »

وعندئذ رفع عتبة بسن محراثه إلى الأرض السبخة :

« يا أبا محمد . . إنك حاربت عن أهل العراق تكرما ، ثم حاربت أهل الشام حمية . . . وإنا لا ندعوك إلى ترك على ونصر معاوية ، ولكننا ندعوك إلى البقية التي فيها صلاحك وصلاحنا . . . »

فتفكر الأشعث برهة يزن الأمر وهو تياه إذ انتهى إليه وحده حقن الدم وإقرار السلام . ثم ما لبث أن أجاب :

« .. سنرى رأينا إن شاء الله . . . »

وقال معاوية لاخيه حينما عاد :

« يا عتبة . الرجل عظيم عند نفسه . . . وقد جنح للسلم . . . »

وما أخطأ الماهل الصواب . فالتربة قلبها المحراث . والبذرة وضعها الباذر . والسقيا تمت : دهانا ورياء ومداجاة ، وعما قليل ، بعد ساعات . في إبان الدعوة إلى الاحتكام لكتاب الله ، ستكون هذه النواة نمت ، وفرع عودها وطال . وغدت دوحة سامقة ذات ثمر مسموم!

* * *

وكانت البذرة الخبيثة الثانية قد استوت منذ ليال فى الأرض الجثة ، ساقا مورقة ، لها براعم ، وطلع كأنه رءوس الشياطين ! ذلك ما راب الناس ، وعلم على وخاصت الألسن الزارية فيه بالسر حينا وبالجهر آونة عند ما حمل ذو الكلاع فى حمير ومعهم ابن عمر على ربيعة الباقية وحدها على الخط . الصابرة للخطر . . فإذ ذاك مال خالد بن المعمر السدوس للانسحاب ببعض قومه كأنما لينأى بهم مشفقا عن المصارع . فلما رأى من عداه من أصحاب الرايات فى ربيعة ثبتوا ، انثنى فعاد . . .

وتغامز الناس . . .

وتهامس فريق بشكه القديم :

« إنا لا نرى خالد بن المعمر السدوس إلا قد كاتب معاوية ! . . . »

ولغط فريق :

« أراد الانصراف فلما رآنا قد ثبتنا رجع إلينا ! . . . »

ودفع هو التهمة عن نفسه :

« لما رأيت رجالا قد انهزموا رأيت أن أستقبلهم ثم أردهم إليكم ، فأقبلت إليكم بمن أطاعنى منهم . . . »

ثم لم يغن عنه بلاؤه من بعد فى القتال ، وتحريضه القوم على الصبر . والدعوة التى دعاهم للجنة ! .. . كل هذا الغشاء لم يستر سره . لم يقتلع الدوحة النابتة فى ضميره . لم يجتث جذرها السام .. وإنها لليلة وركل النصر — يبيعه سلعة رخيصة فى سوق الغدر والنكث والغواية ، ثم ييمم وجهه شطر الشيطان » .

* * *

على أية حال ، كان ذو الكلاع وابن عمر حين زحفا بالكتيبة الخضرية الرقطاء قد آمنا أنها تسير للغلبة ، عدوها مهيض أوهنته الفرقة ، وأرضها لينة عبدتها الخيانة .. ولم يكن ثمة أمامها إلا ربيعة ، إن جالدت فحمية ، وإن صابرت فساعة . أما بقية جيش على فإلى الآن كالقطيع الضال ..

لكن ربيعة أبت أن تبور ، لا وهن ولا تخاذل ، ما تتهاوى منها فرقة حتى تقوم فرقة ، كأنما تعاقد الرجال فيها أن يتزاحموا على الموت دراكا تزاحم الإبل

الهيم على المورد المذب بعد شقة الرحلة تحت وقدة الهجير ! .. شهد الله كيف صبروا . وكيف ذاقوا المر فى الصبر ، وشهد أيضا تل الجماجم الذى استقبل منهم الهامة فوق الهامة ، كأنها الركام والحجارة ، تشمخ بها قمة ذلك الكثيب لتسبح السحب ، بهذه البقعة الحمراء بصفين ! .. حتى عندما نال البأس من عزم خالد ، أو نالت الغواية ، فمال بشرفه ورايته إلى نجوة ، لم يفتن الناس عن الجلاد ميله ، ولم تستهوهم منه هذه الدعوة الصامتة إلى الحياة . . . إنما أنكروا عليه . وشنئوا فعله ، وساطت جسده ألسن حداد دفعت به ثانية إلى صفهم ، وردت حياءه فى محياه ؟ ..

من اعتدال النهار لغروبه ظلت الحضرية تهز نصالها فى وجه ربيعة ، وربيعة أمامها تناضل ، كانت الصولة تقابل الصولة ، والكرة تقابل الكرة ، وإن همت الكثرة فى أحايين كثيرة أن تعصف وتقصف لولا هذه الإشاعة من الإيمان التى كانت تكشف دائما اضعاف المدد عن معانى الجنة من خلال الدماء ! . . ما من رجل واحد بين الفئة التى ناشها سلاح الكتيبة الرقطاء كان يستبيح أن يترك الغمرة ليستريح ، أو يركز رمحه ليلقف أنفاسه . . . بل الزفرة التى يلفظها كانت تحز فى فؤاده لأنها هنيهة من عمره وات سيقصر بعدها أمد نزاله ! . بل الصلاة كانت رمزا : التكبيرة تغنى عن الشعيرة . والخشوع يترجم عن السجود والركوع ! .. وفى خلال النهار كله لم تسر قدم إلا إلى أمام ، ولا يغمد سيف ، فالأغماد على سيوفها حرام ! ..

وغدت الحياة وليجة شهية الموت طعمها ضحوة ، وفى الظهر ، وساعة العصر ، وإبان تلون الأفق بصبغة الأصيل ، وذوبان الشفق فى ظلال العشية .. وكانت فكرة الفناء تطوف بأنفس ربيعة الصابرة فلا تفزعها بل ترفعها درجة فى مراقى الفداء . . وكانت فكرة الغلبة السريعة والنصر العاجل تذوى رويدا رويدا فى نفوس رجال الحضرية وابن عمر وذى الكلاع .. فما عدوهم هؤلاء إلا مردة ، للرحن [illegible] الناس أجل ، وللرجل منهم عدة آجال ! ..

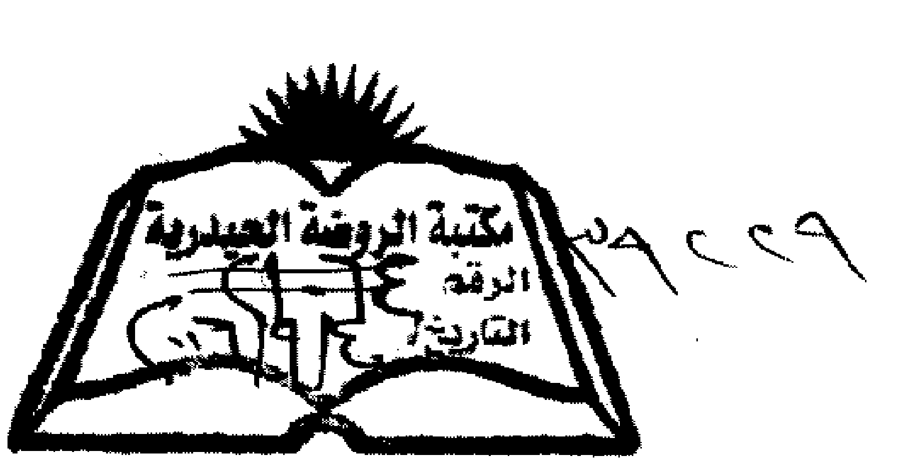
[illegible] وصاح خالد بن المعمر يحثهم وقد أخذته حمية القتال فأنسته ما ألقى به معاوية فى روعة :

« يا معشر ربيعة . . الإقدام منكم عادة ، والصبر منكم سجية ! .. »

وأسرع زيادة بن خصفة إلى عبد القيس يلتمس عندها وقودا جديدا يبقى لظى هذا الكفاح مستعرة :

« لا بكر بعد اليوم ! . . . إن ذا الكلاع وعبيد الله بن عمر أبادا ربيعة ، فانهضوا لهم وإلا هلكوا ! . . .

وما كانت هذه الطائفة لتبيد ، فالحياة لمن زهد الحياة . والموت يرهب الشجاع المصابر . . . وإن عزمها ليصلب وإن عنادها ليشتد ، وإنها لتقذف غير هيابة بأعدادها إلى فم الهلاك فيخدش ولا ينهش ، ويكلم ولا يلتهم ، كأن مذاق لحمها كريه ، أو هو أتخم فخثت نفسه وعاف الطعام ؟ . . .



مطبعة الحرية - بيروت
تلفون : ٣٢٠٤٤٠